الواضح في التفسير

السيد عباس علي الموسوي

الجزء الثاني

تابع سورة البقرة

مركز الغدير
للدراسات والنشر والتوزيع

الواضح في التفسير

مركز الغدير للدراسات والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت - حارة حريك - شارع السيد عباس الموسوي - بناية مركز الغدير
تلفاكس: ٠١/٥٥٨٢١٥ - ٠١/٥٥٢٢٦٢ خليوي: ٠٣/٦٤٤٦٦٢
ص.ب: ٢٤/٥٠ - الرمز البريدي: ١٠١٧ - ٢٠١٠ - برج البراجنة

www.alqadir.org

www.alqadir.net

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

الواضح في التفسير

السيد عباس علي الموسوي

الجزء الثاني

تابع سورة البقرة

مركز الغدير

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱسْتَعِينُوا۟﴾: اطلبوا العون، والعون هي المعاونة والمظاهرة وهي المساعدة.

﴿بِٱلصَّبْرِ﴾: الصبر: حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع أو عما يقتضيان حبسهما عنه.

﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾: في الأصل معناها الدعاء ثم استعملت في الأفعال المخصوصة.

﴿ٱلسَّبِيلِ﴾: الطريق الذي فيه سهولة، وجمعه سُبل، وسبيل الله: طريقه المؤدي إلى رضاه...

﴿لَا تَشْعُرُونَ﴾: المشاعر والحواس ولا تشعرون أي لا تدركون ذلك بالحواس.

التفسير

بعد الأمر بأداء شكر المنعم على نعمه ذكر سبحانه البلاء وأمر بالصبر عليه، والخطاب توجّه إلى المؤمنين بأفضل صفة يتصفون بها وهي صفة الإيمان...

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ حققوا ملكة الصبر في نفوسكم حتى تستطيعوا مواجهة الأحداث مهما كانت عظيمة أو كبيرة... الصبر الذي يعني الحالة النفسية التي يتغلب الإنسان بها على الصعاب وتجعل هذا الإنسان قوياً أمام الهزات والنكبات وما يعترض سبيله من أحداث ومشاكل وعقبات... الصبر بمفهومه الإسلامي يعني الرزانة والرصانة أمام الأحداث وإعداد الخطط للتغلب على هذه الحالة والتخلص منها دون سقوط أو انهيار...

الصبر لا يعني أن يستسلم الإنسان لواقعه ويخضع للقوى الظالمة والشريرة التي تمارس عليه القهر والاضطهاد، هذا إذلال لا يرضاه الله للمؤمنين...

الحياة بما فيها من مشاكل وما يعتريها من صعوبات بحاجة إلى هذا الصبر...

الحياة الإنسانية بما فيها من تكاليف إلهية إلزامية تحتاج إلى الصبر لإقامتها والاستمرار عليها... الصبر يحتاجه الفرد في تكاليفه الفردية الخاصة به ـ كما تحتاجه الأمم والشعوب يحتاجه الفرد لأداء واجباته ـ من صوم وصلاة وحج وزكاة وغيرها.. كما أن الإنسان بحاجة إلى الصبر عن المعصية وكل انحراف شخصي..

ومن هنا كان الصبر كما يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام «الصبر صبران، صبر على ما تكره وصبر عما تحب»[1].

ولولا الصبر لانهار الإنسان أمام الأحداث وسقط أمام هول ما يرى في الحياة من شرور وظلم واعتداء.

ومن هنا كان هذا الأمر بالاستعانة به والتمسك به وتحويله إلى ملكة يواجه بها الأحداث فيؤجر عليها المرء بل يوفّى أجره بغير حساب.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] وينقل ابن كثير حديثاً عن

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم، الحكمة/٥٥.

الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام ننقله لوجوده في هذا السفر الذي يغتصب صاحبه نفسه اغتصاباً عندما ينقل لأهل البيت منقبة أو فضيلة يقول:

إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادي مناد أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب؟

قال: فيقوم عنق من الناس فتتلقاهم الملائكة فيقولون إلى أين يا بني آدم؟ فيقولون إلى الجنة فيقولون وقبل الحساب؟

قالوا: نعم.

قالوا: ومن أنتم؟

قالوا: نحن الصابرون.

قالوا: وما كان صبركم؟

قالوا: صبرنا على طاعة الله وصبرنا عن معصية الله حتى توفانا الله.

قالوا: أنتم كما قلتم، ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين...

هذا بالنسبة إلى الصبر.. أما بالنسبة إلى الصلاة فإنها الصلة بين الله والعبد، ومن خلال هذه الوقفة بين يدي الله يتصل الإنسان بأعظم قوة في هذا الوجود ومتى كان اعتماده على مثل هذه القوة مع اعتصامه بالصبر يحقق عندئذ المعجزات ويقفز قفزات نوعية في الانتصارات على النّفس وعلى الأعداء، وهذا ما يرويه لنا التاريخ عن عصر النبوة وعصر الصدر الأول بعد النبي ثم لزيادة الطمأنينة لهذا العبد وكون الله معه، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ هذا ترغيب بتحصيل ملكة الصبر وحث أكيد للمسلمين أن يتمتعوا بهذه الصفة، ومعية الله للصابرين معية إعانة ونصر فهو الذي يوفّقهم للنصر إذا التزموا المقدمات المطلوبة منهم من الصبر والصلاة...

ثم ذكر الشهداء، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

تذكير بحقيقة ولكن بصيغة النهي: نَهى أن يقول المؤمنون عن الشهداء في سبيل الله أنهم أموات كما هو المعهود في المقتولين الآخرين أو فيمن انتهى أجلهم وفارقوا الدنيا.. بل لتُعلم حقيقة الشهداء... أن الشهداء أحياء، ولكن لا تحسون بحياتهم ولا تشعرون بها لأنكم لا تستطيعون الوقوف عليها...

كيف تكون حياة الشهداء بعد القتل في سبيل الله؟.. فهذا أمر يجب أن نؤمن به ونعتقده على عمومه وبشكل مجمل، أما التفصيلات فلسنا بحاجة إليها ولن نسأل عنها أو نحاسب عليها...

إن الشهداء أحياء في البرزخ وباعتبار أن عالمهم غير عالمنا المادي فإننا لا نشعر أو نحسّ بحياتهم وإن كانوا أحياء...

إن عالم الآخرة ـ ما بعد الموت ـ عالم مغاير تماماً لعالمنا في الدنيا فالشهداء أحياء في عالمهم ولكننا نحن البشر لا ندرك هذه الحياة ولا نقدر على الإحساس بها أو الشعور بوجودهم الفعلي لاختلاف الدنيا عما بعدها من البرزخ وبعده الجنة أو النار...

فائدتان

١ ـ إن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ فيه ترغيب شديد وحث أكيد على الجهاد وطلب هذه المرتبة الرفيعة التي تميّز الشهداء عن غيرهم من الناس الموتى...

٢ ـ هناك تفسيرات مجازية لحياة الشهداء لا يمكن المصير إليها أو الموافقة عليها طالما أنه يمكن حمل حياتهم على الحقيقة في البرزخ وخصوصاً مع قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ كمن فسّر حياتهم بخلود ذكرهم في الدنيا أو حياتهم بحياة دينهم وما من أجله قتلوا واستشهدوا فإن مثل هذه التفسيرات وإن كانت تقرّب المعنى إلى الأذهان وقد تستأنس بها النفوس وقد يذهب إليها بعضهم، ولكنها معانٍ مجازية لا يصار إليها إلا مع تعذر الحمل على الحقيقة وليس هذا المورد من موارد التعذر المذكور.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ
وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾
أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

اللغة

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾: من الابتلاء وهو الاختبار والامتحان.

﴿الْخَوْفِ﴾: توقع مكروه عن إمارة مظنونة أو معلومة يحصل منه انزعاج النفس.

﴿الْجُوعِ﴾: ضد الشبع وهو المخمصة.

﴿وَنَقْصٍ﴾: النقص: ضد الزيادة، ونقص الثمرات قلتها، ونقص الأنفس موتها.

﴿الْأَمْوَالِ﴾: ما ملكته من جميع الأشياء يذكّر ويؤنّث.

﴿الْأَنفُسِ﴾: جمع نفس وتطلق على ذات الإنسان.

﴿الثَّمَرَاتِ﴾: مفردها ثمرة اسم لكل ما يتطعّم من أعمال الشجر.

﴿وَبَشِّرِ﴾: والبشرى هي الأخبار السارة لأنها تبسط بشرة الوجه.

﴿أَصَابَتْهُم﴾: وصلت إليهم ووقعت عليهم من أصاب السهم إذا وصل إلى المرمى بالصواب، والمصيبة أصلها في الرمية ثم اختصت بالنائبة.

﴿مُّصِيبَةٌ﴾: نائبة والمصيبة كل ما يؤذي الإنسان ويصيبه في نفسه أو ماله أو ولده.

﴿رَٰجِعُونَ﴾: مفرده رجع وهو العود إلى ما كان منه البدء.

﴿صَلَوَٰتٌ﴾: جمع صلاة والصلاة في الأصل الدعاء وهي من الله بمعنى الرحمة ومن الملائكة بمعنى الدعاء.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾: الرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم وتستعمل في الرقة المجردة وتارة في الإحسان المجرد دون الرقة وإذا استعملت في الله فهي بالمعنى الثاني أي الإحسان المجرد...

التفسير

بعد أن ذكر سبحانه الصبر وأمر به ذكر بعض مفردات القضايا التي تحتاج إلى هذا الصبر، فقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾ سنختبركم ونكشف حقائقكم ونُظهر واقعكم ببعض الإبتلاءات من الخوف - وهو الفزع - والجوع، وهي المخمصة بأن تقعوا في خوف يصيبكم من جراء تكاثر الأعداء عليكم وزحفهم إليكم... وكذلك نخبركم بالجوع ومدى الصبر عليه وتحمّله ومحاولة السعي والعمل لإزالته ورفعه...

وقطعاً فالله يعلم حقائق هذا الإنسان ويعلم جوهره ومدى صبره وتحمله للمشاق، ولكن الحساب والعقاب لا يكون على ما يعلمه الله من عبده وإنما يجب أن يتحقق هذا الأمر من العبد نفسه ويخرج هذا العلم الإلٰهي بصورة فعل وممارسة من هذا العبد لكي تنقطع حجته فلا يقول إن الله لو ابتلاني لنجحت في الابتلاء وانتصرت في كل امتحان... لا بدّ من كشف الأمور وظهورها من طور القوة إلى طور الفعل لتنقطع أعذار المعتذرين وحجج المحتجين...

- ثم إن الخوف - هذا الغول الجاثم على صدر البشرية والذي يهدد حياتها

ووجودها ومصيرها ـ وخصوصاً في هذا الزمن ـ المملوء بالرعب النووي والأسلحة الفتاكة التي قد ينام الإنسان ولا يصحو إلا على كارثة تقضي على وجوده وموجوده، أقول هذا الخوف بحاجة إلى وسيلة تبدّده وترفع إزعاجه ولن يكون ذلك إلا بالعودة إلى الله والتمسك بتعاليم الدين ورفع كل إثارة تجعل الإنسان يعيش على أعصابه...

إن خوف الدنيا خوف قليل بالنسبة إلى خوف الآخرة وأهوالها وما فيها، ولكنه خوف يحتاج إلى صبر وضبط أعصاب وتفكير رزين للخروج منه والانتصار عليه.

وأما ﴿ٱلْجُوعِ﴾ الذي يمكن أن يعبّر عنه بالأمن الغذائي فالإنسان مهدد بالوقوع فيه... والجوع كافر ومذل... إنه امتحان يهدد وجود هذا الإنسان واستمراريته وسلامته فيحتاج الإنسان إلى ثورة على المحتكرين والمستغلين والمستبدين الذين سرقوا قوت الناس ولقمة عيشهم... وكما يقول أمير المؤمنين عليه السلام «ما جاع فقير إلا بما مُتع به غني».. فالظلم الاجتماعي هو الذي يخلق الجوع والفقر والحاجة وكم من الثمرات والغلات ونتائج المحصولات يدفع بها إلى التلف من أجل المحافظة على أسعارها العالمية ولو أن هذا الفائض من الإنتاج يتم توزيعه على الفقراء لسدوا جوعهم ومنعوهم من الحاجة والفقر والفاقة ولكنه الظلم والاستكبار الذي يعيشه الكبار... إنه البعد عن الله وعن التفكير في رفع العوز عن الناس وسد حاجاتهم...

وعلى كل حال «فالجوع» يحتاج إلى صبر وأناة وإلى تفكير في رفعه فلا يسقط الإنسان على أعتاب الجوع صريعاً ذليلاً، إنه ابتلاء يتعرّض له هذا الإنسان فيحتاج إلى مقابلته بالصبر والهدوء والرجوع إلى الله والاتكال عليه حتى يرتفع هذا البلاء وينجح هذا الإنسان وينتصر...

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ يتعرض الإنسان إلى آفة تصيب مواشيه فتقضي على إبله وبقره وغنمه إن كان مزارعاً أو يصاب بنكبة مالية يخسر خلالها ما جناه إن كان

تاجراً أو يتسلط عليه رب عمل يعمل عنده فيسلبه أتعابه ويأكل جهده وثمرة عمله... إنه هلاك المال يحتاج الإنسان في مواجهته إلى صبر واتزان وسيطرة كاملة على واقعه لئلا يصاب بانهيار فيقع فريسة سهلة لهذه الحالة الطارئة وبالتالي يفقد وجوده تبعاً لفقد ماله كما يحدث لبعض أصحاب الإرادات الضعيفة الذين يواجهون مثل هذه الحالات ـ لفقد الأموال ـ بعملية انتحارية تقضي عليهم أو تنهار أعصابهم فيتحولون إلى المصحّات العقلية.

إن مواجهة فقد المال يحتاج إلى وعي كامل من هذا الإنسان ومعرفة بأنه مجرد وكيل يتصرف بالنيابة عن الله، وما مُلكه لهذا المال إلا صورة شكلية أهّله لها الله وهو القادر على أن ينتزعها منه أو يرفع يده عنها.. إنه مجرد وكيل في إدارتها وليس بمالك لها على وجه الحقيقة فإذا راحت من يديه فلا يجب أن تذهب نفسه عليها حسرات... إنها نظرة واعية من الإنسان المؤمن تسقط عندها الأموال وتهون قيمتها فيما لو فُقدت منه أو تحوّلت عنه إلى غيره...

﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾ وهذه حالة يتعرّض لها الإنسان، يفقد أحبته من آباء وأولاد وأخوة فيحتاج إلى صبر في مواجهتها وإلى رجوع إلى الله.

﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ سواء كانت الثمرات الحقيقية التي هي نتيجة الأشجار والمزروعات أو الأولاد التي هي ثمرات الآباء، فإن فقدها عزيز ويحتاج الإنسان في مواجهتها إلى صبر وعزيمة وعودة إلى الله ولذا قال تعالى تعقيباً على كل هذه الابتلاءات بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

زفّ إليهم الأخبار السارة... إنقل إلى الصابرين البشرى بالفوز والفرح وكل ما يسعدهم ويقربهم من الله ثم بيّن لهم حالات الصابرين وصفاتهم وكيف يجب أن يواجهوا هذه الابتلاءات.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾.

إن هؤلاء الذين أصيبوا بالابتلاءات والنوائب وحلّت بهم المكاره والمصائب فزعوا إلى الله ورجعوا إليه واقعاً وحقيقة وعبّروا عن هذا الواقع بقولهم ﴿إِنَّا لِلَّهِ

﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ إنها الكلمة التي يسترجع المرء من خلالها وجوده ويعود فيها إلى واقعه...

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ كلمة تختصر واقع هذا الإنسان وحقيقته كما تحدّد نهايته ومصيره...

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ إقرار على أنفسنا بالملك و﴿إنا إليه راجعون﴾ إقرار على أنفسنا بالهُلك كما يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ كلمة ترتاح لها النفس ويطمئن إليها القلب ويعود الإنسان من خلالها إلى رحاب مالك الدنيا والآخرة فتهون عليه كل مصيبة وتخفف عنه كل بلية...

ثم أخيراً رتّب الجزاء لمن تحلى بالصبر واسترجع متحملاً المصيبة بقوله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ (الصابرون) لهم من الله الثناء والمغفرة كما أن لهم الرحمة التي تعني العطاء لهم من كراماته ومنحه وإحسانه وجمع الصلوات ـ كما قيل ـ للتنبيه على كثرتها وتنوّعها ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ يعني والصابرون هم المهتدون إلى طريق الفلاح والنجاح والوصول إلى الجنة ونعيمها...

فوائد

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم﴾ ليس على ظاهره لأن الابتلاء حقيقة لتحصيل العلم ولا معنى له من الله الذي يعلم ذلك، فهو إذاً من أجل إظهار المكنون من هذا الإنسان لئلا يحتج بعدم التجربة والابتلاء وإنه لو وقع له مثل ذلك لانتصر...

٢ ـ إن قوله ﴿بِشَيۡءٖ﴾ أي بقليل من الابتلاءات التي لا تسلب هذا الإنسان قدرته ولا حرية الاختيار...

٣ - إن قوله ﴿وَبَشِّرِ﴾ إما راجع إلى النبي أو لكل من يتأتى منه البشارة.

٤ - إن الابتلاءات المذكورة في الآية الكريمة ليست عقوبات بل هي لرفع الدرجات وللثواب المترتب الصبر عليها وتحملها وتحمل آثارها.

٥ - وردت الأخبار الكثيرة التي تحضّ على الصبر وتذكر أجر الصابرين على البلاء وثواب المبتلين المحتسبين نذكر منها نموذجاً ينفعنا في دنيانا وآخرتنا...

أ - عن أبي جعفر عليه السلام قال: ما من عبد يصاب بمصيبة فيسترجع عند ذكر المصيبة ويصبر حين تفاجأه إلا غفر الله له ما تقدم من ذنبه، وكلما ذكر مصيبة فاسترجع عند ذكره المصيبة غفر الله له كل ذنب اكتسبه فيما بينهما.

ب - عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من ابتليّ من المؤمنين ببلاء فصبر عليه كان له مثل أجر ألف شهيد.

ج - عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأوصياء ثم الأماثل فالأماثل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلصَّفَا﴾: جبل في مكة قرب البيت الحرام يتم السعي بينه وبين جبل المروة، والصفا في الأصل الحجر الأملس من صفا يصفو إذا خلص.

﴿وَٱلْمَرْوَةَ﴾: جبل في مكة قرب البيت الحرام يتم السعي بينه وبين جبل الصفا وأصل المروة الحجر الأبيض اللّين.

﴿شَعَآئِرِ﴾: مفرده شعيرة وهي العلامة، وشعائر الله أعلام متعبداته.

﴿ٱلْحَجّ﴾: في اللغة القصد، وفي الشرع القصد إلى بيت الله الحرام والقيام بالواجبات من إحرام وطواف وسعي وغيرها...

﴿ٱعْتَمَرَ﴾: العمرة: الزيارة، وفي الشرع هي زيارة بيت الله الحرام للقيام بأفعال مخصوصة مرسومة ومعروفة...

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾: لا إثم عليه وأصل الجناح الميل عن الحق وجنح إليه إذا مال إليه.

﴿يَطَّوَّفَ﴾: أصله يتطوّف أدغمت التاء في الطاء، والطواف هو الدوران حول الشيء ومنه الطواف حول الكعبة.

﴿تَطَوَّعَ﴾: التطوّع الإتيان بالفعل طوعاً لا كرهاً ثم أطلق على التبرع بالخير ثم أطلق على الإكثار من الطاعة بالزيادة على الواجب.

التفسير

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾.

الصفا والمروة جبلان قريبان من بيت الله الحرام يمارس عليهما الانحراف من قبل الجاهلية حيث تقيم أصنامها عليهما وتروح في طقوس وثنية بعيدة عن الاتصال بالله...

ويأتي الإسلام برسالته فيزيح عن الجبلين كل صنم ويرفع كل وثن ويُخرج كل بقايا الجاهلية عنهما ويحولهما إلى معلمين من معالم العبادة، حيث يمكن للإنسان أن يتعبد لله فيهما ويتوجه إليه بالسعي بينهما. إنه تشريع ينفي عنهما الصبغة الجاهلية التي يمكن أن يتوقف من أجلها المسلمون عندما يسترجعون ممارسة الكفر بانحرافاته فيهما.

يتحولان بتشريع الله وإرادته ـ بعد أن يقطع عنهما كل ممارسة جاهلية ـ إلى كونهما من معالم دين الله ومناسكه التي تعبّدنا الله بالسعي فيما بينهما... إنهما من شعائر الله...

من أبرز المعالم التي يتنسك بها المسلم ويتوجه إلى الله، فمن أراد الحج أو العمرة فلا إثم في أن يطوف بهما أي يسعى بين الصفا والمروة فيروح في أشواط سبعة حددتها السنة الشريفة تبدأ بالصفا وتنتهي بالمروة... إنه تشريع لجواز السعي بهما بنفي الإثم وعدم الحرج.

﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

من انقاد إلى فعل الخير وعمله برغبة وطواعية فإن الله شاكر لفعله يجزيه

بالأجر والثواب، وهو عليم بكل ما يصدر من عباده لا يفوته منها ذرة واحدة يجزي كل فاعل بما فعل...

وهذا ترغيب في السعي بين الصفا والمروة وترغيب في كل فعل يرغب فيه الله ويحبه...

الصفا والمروة من شعائر الله

لا شك أن مناسك الحج كانت إبراهيمية في منشأها ومصدرها وعندما بعث الله نبيه محمداً نظّفها من كل ما علق بها من شوائب الشرك وأوساخ الجاهلية وأعاد لها طهرها وقدسيتها، وقد كان أهل الشرك قد نصبوا على الصفا ـ صنمهم أساف ـ وعلى المروة ـ صنمهم نائلة ـ وكانوا إذا سعوا مسحوها تبركاً بها فعندما أمر النبي المسلمين أن يسعوا بينهما تحرّجوا من ذلك ودخلهم شك لفعل أهل الجاهلية وللأصنام المنصوبة فيها فجاءت الآية لترفع الحرج عن المسلمين وإنه لا ضير عليهم من فعل المشركين إذا صفت النية وتوجهت القلوب لله فليس الحرج في أصل الفعل وإنما الحرج لما يحيط فيه ويكتنفه من أصنام منصوبة وتمسُّح المشركين وتبركهم بها...

ويعقد هذا المعنى ما ورد في الكافي في سبب نزول الآية، فقد سئل أبو عبد الله عليه السلام عن السعي بين الصفا والمروة فريضة أم سنة؟

فقال: فريضة.

قلت ـ الراوي: أو ليس قال الله عز وجل: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾.

قال: كان ذلك في عمرة القضاء، إن رسول الله صلى الله عليه وآله شرط عليهم ـ أي على المشركين ـ أن يرفعوا الأصنام من الصفا والمروة فتشاغل رجل وترك السعي حتى انقضت الأيام وأُعيدت الأصنام فجاءوا إليه فقالوا: يا رسول الله! إن فلاناً لم يسع

بين الصفا والمروة وقد أعيدت الأصنام فأنزل الله عز وجل: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي وعليهما الأصنام...

ولا يخفى أن مذهب الفقهاء وجوب السعي بين الصفا والمروة لكل من حج البيت واعتمر وهذا الفعل من واجبات الحج فمن تركه عمداً بطل حجه...

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿يَكْتُمُونَ﴾: من كتم، والكتمان: ستر الحديث، وكتمان الفضل هو كفران النعمة.

﴿الْبَيِّنَاتِ﴾: الأدلة والحجج.

﴿الْهُدَىٰ﴾: الدلالة بلطف ويتعدى بحرف وبغير حرف فيقال هديته إلى الطريق وهديته الطريق.

﴿يَلْعَنُهُمُ﴾: من اللعن وهو الطرد والإبعاد.

﴿تَابُوا﴾: من التواب وهو ترك الذنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار.

﴿وَأَصْلَحُوا﴾: إصلاح العمل هو إخلاصه من قبيح ما يشوبه وأصلح بين المتخاصمين إذا أزال النفار بينهما.

﴿وَبَيَّنُوا﴾: كشفوا الأمور وأظهروها.

التفسير

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾.

هذه جريمة كتم المعلومات وستر الحقائق مع حاجة المجتمع إليها لتحقيق الحق وإثباته في أذهان الناس وأرواحهم. . .

فالله سبحانه أنزل المعجزات وأوضح الدلالات وأثبت في العقول كل ما ينفع ويفيد. . .

والآية الكريمة وإن حملناها على اليهود الذين قاموا بهذا الفعل الشنيع، حيث أخفوا صفات النبي محمد ﷺ التي نزلت بهاالتوراة خدمة لمصالحهم وحفظاً لكيانهم، فإن لفظها عام ينطبق على كل من أخفى شيئاً من الحق وستره مع حاجة الناس إليه وخصوصاً إذا كان بمستوى كتم المعلومات التي تثبت نبوة النبي ﷺ، والتي تشكل الأساس الذي يُبنى عليه غيره ويكون العمدة ونقطة الارتكاز؛ وأن اليهود أخفوا صفات النبي ﷺ التي أوردها الله في التوراة، وبذلك الإخفاء المتعمد منعوا الناس أن يؤمنوا به ومنعوا وصول الخير والهدى إلى كل فرد وبهذا قتلوا أمة قائمة كما قتلوا أمماً تنتظر وجودها في سلم الإحياء والحياة.

إن مثل هؤلاء الذين يمارسون عملية إخفاء الحقائق وسترها مع حاجة الأمة إلى إظهارها وبيانها أعدّ الله لهم حكماً مبرماً وهو الطرد من رحمته والإبعاد لهم عن ساحة قدسه، قال تعالى في حقّهم: ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ يبعدهم عن رحمته ويحرمهم نِعَم عطاياه ومن وقعت عليه لعنة الله استحق النار.

﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ ويلعنهم كل من يتأتى منه اللعن، ويصح منه لقبح جريمتهم وعظيم ما أتوا به من الانحراف بالناس وتضليلهم ومنعهم من الإيمان. . . وإعادة الفعل ﴿يَلْعَنُهُمُ﴾ لأن لعنة اللاعنين بمعنى الدعاء عليهم بالإبعاد عن رحمة الله.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾.

استثنى سبحانه ممن استحقوا اللعن الذين تابوا أي رجعوا إليه سبحانه ولم يصروا على كتمان الحق والاستمرار فيه، بل أقلعوا عنه وأفصحوا عن الحقيقة وجهروا بالقضية وحاولوا أن يصلحوا ما أفسدوا ويهدوا من ضللوا من الناس وبمقتضى قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ أنه يجب عليهم أن يصلحوا ما أفسدوا ويعودوا إلى إصلاح كل فرد عملوا على إضلاله وأخرجوه من الإيمان إلى هدايته والعودة به إلى الإيمان...

ومضافاً إلى ذلك يجب عليهم البيان - بينوا - الحقيقة كما هي وذلك بالاعتراف أمام من أضلوهم بخطئهم أولاً ثم إرشادهم إلى طريق الحق ثانياً. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ الذين تابوا وأصلحوا وبينوا يتوب الله عليهم أي يقبل توبتهم ويعود عليهم بالرحمة والمغفرة ولا يوصد الأبواب في وجوههم أو يحرمهم نفحاته وعطاياه.

﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الله سبحانه الذي يقبل التوبة بعد التوبة مهما تعددت وتكثرت ومهما كانت كبيرة وعظيمة ومهما اختلفت فإنه يقبلها ويرحم من يعود إليه باستمرار بقبولها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾.

* * *

اللغة

﴿ٱلْكُفْرَ﴾: في اللغة الستر والتغطية، والكفر جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة.

﴿ٱللَّعْنَةُ﴾: من اللعن وهو الطرد والإبعاد.

﴿خَٰلِدِينَ﴾: من الخلود وهو تبرّي الشيء من اعتراض الفساد وبقاؤه على الحالة التي هو عليها وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد تصفه العرب بالخلود.

﴿لَا يُخَفَّفُ﴾: لا يخفف عنهم العذاب، لا يرحمون.

﴿يُنظَرُونَ﴾: يؤخّرون.

التفسير

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ فهؤلاء هم الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى ثم لم يتوبوا أو الأعم منهم ومن كل كافر فيوافيه الموت وهو

على كفره ـ لم يتب أو يرجع عن غيه ـ إلى الإيمان إن كل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ التي تعني طردهم من رحمته وإدخالهم ناره وسوقهم إلى جهنم وما فيها من عذاب وعقاب.

وكذلك ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ التي تعني الدعاء عليهم بالطرد من رحمة الله لأنهم ابتعدوا عن الإيمان به وعن القرب من رحمته فاستحقوا هذا اللعن.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي في اللعنة الدائمة عليهم مؤبدة لهم خالدين في جزاء اللعنة التي هي النار.

﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ بيان لعظيم هذا الخلود في النار وما فيه من عذاب مستمر بحيث لا يرتفع عنهم ولو لفترة قصيرة أو مدة يسيرة أو يقلّ أثره وتخفّ وطأته.. إنه هو العذاب، هو العذاب بهوله وشدته وقوة وطأته مع استمراريته وعدم تأخيره...

ثم بعد أن ذكر سبحانه الكفر وعقابه ذكر التوحيد الذي هو القاعدة الأساسية للإيمان.

فقال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ إلٰهكم المستحق للعبادة والمستحق للتوجه إليه إنما هو إله واحد في ذاته وفي صفاته. واحد في ذاته فلا شبيه له ولا ندّ له وصفاته عين ذاته لا تشبهها صفات مخلوقاته ومهما تصور الفكر ذات الله أو صفاته فلن يعود بشيء يذكر أو يستحق أن يذكر، لأن كل ما عاد به هو تصورات بشرية قاصرة عن إدراك حقائقه وصفاته...

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ هو الإلٰه المتوحّد في ربوبيته الذي لا معبود سواه ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي وضع لهذا الإنسان قواعد وضوابط وقوانين إن انقاد لها وعمل بها هذا الإنسان أدرك أرفع المراتب وأسمى المنازل وحصل على سعادة الدارين ـ الدنيا والآخرة ـ وإلا فالنار مثواه ومأواه.

فوائد

١ - إن قيل كيف يلعنهم الناس جميعاً مع أن الواقع في الخارج غير ذلك؟

قيل في جواب ذلك عدة وجوه منها:

أ - إن اللعنة من أكثر الناس يطلق عليها إنها لعنة من جميع الناس تغليباً للأكثرية.

ب - إن كل أحد يلعن الظالم بما فيهم هذا الكافر، والكفر ظلم فهو يلعن نفسه.

٢ - قالوا إن الضمير في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يرجع إلى النار وإن لم تذكر بالاسم لاشتهارها واستغنائها عن الذكر، ولكن كما قلنا في الشرح إنه يرجع إلى اللعنة وإذا أمكن إرجاع الضمير إلى مذكور في اللفظ بدون خلل فلا يجوز عوده إلى أمر محتمل لم يذكر في الكلام. . .

٣ - قالوا إن قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نفي وإثبات نفي لكل إلٰه ثم إثبات الألوهية لله وهذا الأسلوب - الإثبات بعد النفي - أقوى أساليب الحصر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

اللغة

﴿ٱلْخَلْقِ﴾: أصله التقدير المستقيم ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء...

﴿ٱخْتِلَٰفِ﴾: تبدل وتحول.

﴿ٱلْفُلْكِ﴾: السفينة، ويستعمل للواحد والجمع وأصله من الدوران وكل مستدير فلك، ويقال فلكت الجارية إذا استدار ثديها وسميت السفينة بذلك لسهولة دورانها في الماء.

﴿تَجْرِي﴾: من جرى والجريُ المرّ السريع وأصله كمرّ الماء ولما يجري بجريه.

﴿ٱلْبَحْرِ﴾: أصل البحر كل مكان واسع جامع للماء الكثير ثم استعمل في غيره لمناسبة ما.

﴿يَنفَعُ﴾: من النفع وهو ما يستعان به في الوصول إلى الخيرات فالنفع خير وضده الضر.

﴿وَبَثَّ﴾: أصل البث التفريق وإثارة الشيء كبث الريح التراب.

﴿دَآبَّةٍ﴾: الدبّ مشي خفيف ويستعمل في كل حيوان.

﴿وَتَصْرِيفِ﴾: من الصّرف وهو رد الشيء من حالة إلى حالة أو إبداله بغيره، وتصريف الرياح هو صرفها من حال إلى حال.

﴿ٱلرِّيَٰحِ﴾: مفردها الريح وهي الهواء المتحرك.

﴿ٱلسَّحَابِ﴾: من السّحب وأصله الجرّ كسحب الإنسان ومنه السحاب إما لجره الريح له أو لجره الماء أو الانجرار في مرّه.

﴿ٱلْمُسَخَّرِ﴾: من التسخير وهي السياقة إلى الغرض المختص قهراً.

﴿لَءَايَٰتٍ﴾: من الآية وهي العلامة الظاهرة.

﴿ٱلْقَوْمِ﴾: في الأصل جماعة الرجال دون النساء ثم استعمل فيهما معاً.

﴿يَعْقِلُونَ﴾: يتفكّرون.

التفسير

إنها جملة أدلة يسوقها الله على إثبات وجوده وعلى توحيده وهي مما نألفه ونعتاده أو يمر أمامنا دون أن نتنبّه إليه أو نهتم به، مثله كمثل الهواء الذي نحيا به ونعيش بوجوده وإذا انقطع عنا لحظة تتوقف الحياة، ولكن مع ذلك لا نتنبه له ولا نعطيه بالاً ولا نفكر به كنعمة تمثل أعظم النعم علينا وعلى الأحياء، وما ذلك إلا لأننا اعتدنا عليه وألفناه وأصبح جزءاً منا لم يفارقنا...

إنها أدلة لو توقّف الإنسان أمام كل واحد منها وتفكّر فيها برويّة وتجرّد، بل أعطاه أدنى التفاتة وأقل نظر لعرف الله وجوداً كما عرفه واحداً أحداً لا شريك له...

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذه السموات المرفوعة بغير عمد ترونها الذي جعلها ضمن قوانين عامة موضوعة لها بما فيها من نجوم وكواكب ومجرات... وهذه السماوات بامتدادها وسعتها وعلوها ورفعتها لو فكر فيها الإنسان لأقرّ واعترف بأن لها خالقاً قادراً عليماً حكيماً...

وكذلك الأرض بسعتها وبما فيها من بحار وأنهار وخراب وعمران وإنسان وحيوان وناطق وصامت وغير ذلك من مخلوقات الله وبدائع صنعه إذا فكّر الإنسان قليلاً بتجرد وتعقل لعاد بإيمان ثابت بوجود صانع لها.. إنه الله القادر العليم الحكيم...

إن السماوات والأرض وما فيهما آيات واضحة ودلالات بينة على وجود الله ووحدانيته...

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ واختلافهما إما بمعنى تعاقبهما أي يذهب أحدهما ليحل محله الآخر، أو بمعنى اختلافهما في النور والظلمة والطول والقصر وغير ذلك مما فيه انتظام الفصول وتركيب معاش الناس وتنظيم شؤونهم مما يدلّ على أن وراء ذلك قدرة عليمة حكيمة هي التي تولّت الخلق وجعلته في أدق وأروع تنظيم بحيث لا يطغى عنصر على عنصر ولا يتجاوز عنصر عنصراً...

﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ هذه السفن التي تمخر عباب اليم بما تحمل من متاع ينفع الناس ويفيدهم... هذه السفن التي تحمل بضائع الناس وأمتعتهم بل وتحملهم أيضاً، إذا نظر الإنسان إليها بعين البصيرة وجد كيف تطفو على سطح الماء بحملها الثقيل مع سقوط المسمار الصغير وعدم طفوه لو نظر الإنسان إلى ذلك لعلم أن هناك نظاماً كونياً عاماً صُمّم بدقة على يد الله سبحانه الذي وضع هذا النظام المائي بحيث يحمل السفينة بضخامتها وثقل ما فيها ولا يحمل المسمار بصغر حجمه وخفة ثقله...

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾.

وهذه أيضاً واحدة من الأدلة على الله.. فهو سبحانه أنزل من السماء - من جهتها - أو من السحاب المتواجد فيها ماء صنعه بقدرته وقدّره بحكمته بحيث كانت المقادير متسقة متعادلة ثم الغيوم بحيث تجد كل غيمة هي قطعة ماء، ولكنها على نمط آخر ولا يسقط ما فيها من ماء إلا ضمن ظروف خاصة فسبحان من قدّر وحكم...

إنه سبحانه أنزل الماء من هذه السماء فدبّت الحياة في الأرض ونجمت الأشجار ثم بزغت واخضرّت، إنها الأرض التي كانت ميتة فاقدة للحركة والحياة وبمجرد هطول الأمطار ونزول الماء تغيّر وجه الأرض واكتست حياة وحركة، إنها صورة ناطقة من الجمال والحركة والحياة وخصوصاً في أوقات الربيع...

إن من لم يعتبر بهذه النعمة ويفكر في مبدعها ومنشىء تكوينها فهو أعمى البصيرة مطموس على قلبه...

ثم إنه لولا هذا الماء لما تحركت دابة على وجه الأرض بل لنفقت وماتت ولم تستطع أن تستمر في الحياة.

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]... فهذا الماء هو الذي حرّك كل دابة ونشرها في هذا الوجود ووراء هذا الماء قدرة الله وإرادته التي شاءت أن يكون للأمور أسبابها وللأشياء عللها فسبحانه من عليم مقتدر.

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أي تقليبها وتحويلها بحيث تتغيّر بحسب التقدير الإلهي والنظام الكوني العام فتارة تكون حارة وتارة أخرى باردة وقد تكون جنوبية وأخرى شمالية وثالثة قد تكون رخيّة نديّة وفيها الخير وأخرى قد تكون سموماً وعذاباً وفيها الشر، وهكذا تتقلب من حال إلى حال وبحسب ما أراد الله وما فيه المصلحة العامة وهذا يدل على مسبب لها ولحركتها ومقدّر لمسيرتها وتقلّبها...

﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي الغيوم التي نراها في الجو بين السماء والأرض وعبّر عنها بالمسخرة لأنها مذلّلة لقدرة الله وهو الذي جعلها مشحونة بالماء، ذليلة لله ينقلها حيث يشاء وفي أي وقت يشاء وإلى أين يشاء...

إنها غيوم تحمل الماء خاضعة لسلطان الله لا تخرج عن إرادته ومشيئته فربما حملت معها السيول فكانت عذاباً وربما حملت الري للأرض الظمأى فانتعشت، وفي هذا علامة دالة تحمل أصحاب العقول وأهل الفكر على وجود الله وعظمته.

﴿لَآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي آيات وعلامات ودلالات لأصحاب العقول التي تفكر وتهتدي من خلال النظر في كل ما تقدم وتستكشف منه وجود الباري ووحدانية الصانع... وقدرة هذا الخالق وعلمه وحكمته...

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿يَتَّخِذُ﴾: الاتخاذ هو الجعل.

﴿دُونِ﴾: يقال للقاصر عن الشيء: دون.

﴿أَندَادًا﴾: جمع ند وهو المماثل، وندّ الشيء مماثله في جوهره وليس كل مثل ند.

﴿أَشَدُّ﴾: الشّد: العقد القوي، والشدّة: تستعمل في العقد وفي البدن وفي قوى النفس وفي العذاب.

التفسير

ذكر سبحانه فيما تقدم الظواهر الدالة على وجوده وتوحيده وإن في النظر فيها دلالة لأولي الألباب الذين يعقلون الأمور ويفكرون فيها ويخلصون منها إلى الإيمان بالله وتوحيده. . .

وأما هنا فإنه ذكّر بعض الناس وهم الكفار الذين انحرفوا في عقيدتهم ولم يستعملوا فكرهم وعقلهم إلى إدراك هذه الحقيقة السابقة ـ حقيقة الإيمان بالله وتوحيده ـ فقال تعالى عنهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ هؤلاء الذين تخلوا عن الله والإيمان به ثم عمدوا إلى غير الله فآمنوا به واعتمدوا عليه ومحّصوه ولاءهم وأعطوه إخلاصهم وحبهم... إنهم جعلوا من دون الله نظائر وأمثال وراحوا يحبونهم كحب الله أي كما يستحق الله من الحب راحوا يحبون هذه الأنداد...

ثم إنه سبحانه ذكر حقيقة يعيشها الذين آمنوا بالله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ الذين آمنوا أشد حباً لله من حب الكفار للأنداد الذين يحبونها من دون الله...

إن الإنسان المؤمن لا يتخلّى عن إيمانه وعقيدته بالله تحت أعظم الضغوط وأشدها ومهما كانت القساوة والظلم... إنه إنسان يعيش الحب لله ويتعاطى مع هذه الحقيقة باستمرار لا يمكن أن يضعف هذا الحب أو يذبل ويتراخى بل على العكس من ذلك كلما طال الزمن قوي واشتدّ وتجذّر في القلب...

إن هذا الحب لله ينعكس فعلاً لكل أمر إلهي كما ينعكس سلباً في الامتناع عن كل ما حرم الله فهو طوع إرادة الله أمراً ونهياً...

ثم ذكر سبحانه حال هؤلاء الكفار مهدداً لهم ومخوّفاً عاقبة ما سيصلون إليه ويدركونه..

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾.

لو يرى هؤلاء الظالمون ما يقع بهم من العذاب يوم القيامة لأدركوا خطأ ما اعتقدوه وذهبوا إليه ولندموا على فعلهم وأدركوا أن الله له القوة وهو القادر على أخذهم والقضاء عليهم وعلى ما كانوا يتخذون من دون الله...

ثم زيادة في الترهيب قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ والشدّة هنا لا يمكن تصورها بحدود معينة، فإنها فعل الله لا يمكن تحديدها أو تقييدها طالما أطلقت ولم تتقيد..

فائدتان

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ فُسّرت الأنداد المتخذة من دون الله بالأوثان والأصنام التي كان يعبدها الكفار.

وأيضاً فُسرّت بالزعماء والرؤساء الذين يطاعون من دون الله.

والحق أن كلمة ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تشمل كل شيء غير الله، سواء كانوا أصناماً أم زعماء ورؤساء أم ملوكاً ظلمة أم من الأمور الاعتبارية كالوطن والقومية والعلم وغيرها من المقولات التي يمشي خلفها الكفار ويعتمدون عليها ولا يرون الله من خلالها...

٢ ـ قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ قيل أن معناه: إن الكفار يحبون الأنداد كما يحب المؤمنون الله، وإن كانت محبة المؤمنين أشد لأنها لا تزول ولا تتغير بينما محبة الكفار للأنداد قائمة على المنافع والفوائد فمتى توقفت المنافع والفوائد توقف الحب لها...

قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿تَبَرَّأَ﴾: انفصل ومنه برىء من مرضه إذا انفصل منه بالعافية.

﴿اتُّبِعُوا﴾: واتبعه إذا قفا أثره.

﴿الْأَسْبَابُ﴾: من القطع وهو فصل الشيء مدركاً بالبصر أو بالبصيرة فالأول كقطع اليد.

﴿الْأَسْبَابِ﴾: جمع السبب وأصله الحبل، والمراد به ما يكون وصلة إلى غيره ووسيلة إليه.

﴿الْكَرَّةَ﴾: الرجعة والعودة.

﴿حَسَرَاتٍ﴾: جمع الحسرة وهي أشدُّ الندم على ما فات.

التفسير

صورة تحكي حال الذين اتخذوا - في الدنيا - من دون الله أنداداً يمتثلون أمرهم وينفذون مشيئتهم... إنهم أولئك الأتباع الذين لا يعقلون تحركهم ولا كيف توجههم.. بل هم طوع إرادة سادتهم وقادتهم وهم عبيدهم المخلصون.

يجتمع التابعون والمتّبعون في يوم الحساب، ويرى الجميع العذاب إنه واقع بهم لا محالة ويظن التابعون أن من اتخذوهم أنداداً من دون الله ينفعونهم في ذلك الموقف الرهيب... إنهم كانوا لهم في الدنيا أولياء فعلى المتبوعين أن ينقذوا أتباعهم ويخلّصوهم من هذه الشدّة، ولكن الأمور جاءت عكس ذلك، لقد تخلّى المتبوعون عن الاتباع بل تبرّؤا منهم وانفصلوا عنهم وأعلنوا عن عدم الصلة بهم أو أي رابط بينهم وبين من كانوا أتباعهم في الدنيا ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴿١٦٦﴾﴾ رأى الأتباع العذاب ولم يعد في البين من جعل نجاة أو وسيلة خلاص...

ولما رأى الأتباع ما قام به المتبوعون وأدركوا خطأ السير وراءهم واقتفاء آثارهم تمنوا لو أن لهم رجعة إلى الدنيا ليتبرؤا منهم ويرفضوا السير وراءهم كما تبرّؤا هم منهم في هذا اليوم - يوم الحساب ورؤية وقوع العذاب - فتمنوا لو أنهم يعودون إلى الدنيا ليتبرؤا منهم ويرفضوهم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾.

ولكن الوقت انتهى والزمن لن يعود إلى الوراء؛ إن أعمالهم في دار الدنيا تحوّلت إلى حسرات تأكل نفوسهم في الآخرة... إنهم يعيشون الندم على ما فات ولكن دون جدوى... إن نهايتهم إلى النار يدخلونها ولن يخرجوا منها...

﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

إنه مصير تعيس يحرك في كل منا شعوراً بالعودة إلى التفكير فيما هو فيه

ليدرسه بدقة ويعيد النظر في حركته التابعة لغيره وهل تتفق مع الخط الإلهي أو تتجافى عنه..

إنه المستقبل يرسمه الإنسان في الدنيا وفي هذا الوقت بالذات، فإذا وصل إلى عالم الآخرة فلا عودة ولا ترميم أو إصلاح لما أفسد أو هدم. إنها أبداً الجنة أو النار ولا بد لهذا الإنسان من الوصول إلى أحدهما...

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿حَلَٰلًا﴾: ضد الحرام وأصله من حل العقد إذا فكها ومنه استعير قولهم حلّ الشيء حِلاً.

﴿ٱلطَّيِّبِ﴾: أصله ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس والطعام الطيب في الشرع ما كان متناولاً من حيث يجوز وبقدر ما يجوز ومن المكان الذي يجوز.

﴿خُطُوَٰتِ﴾: جمع خطوة وهي المسافة ما بين القدمين عند المشي وتستعمل مجازاً في تتبع الآثار.

﴿ٱلْعَدُوُّ﴾: من عدا، والعدو بتسكين الدال التجاوز ومنافاة الالتئام، فيقال: العداوة والمعاداة ومنه رجل عدو لأنه تجاوز الحد في مكروه صاحبه، وجمع العدو عدىً وأعداء وضده الصديق.

﴿مُّبِينٌ﴾: ظاهر واضح.

﴿ٱلسُّوٓءِ﴾: في الأصل ما يسوء الإنسان أي يحزنه، ويطلق على المعصية مطلقاً.

﴿ٱلْفَحْشَآءِ﴾: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال وتطلق على الزنا.

التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾.

بعد أن ذكر سبحانه فيما تقدّم دلائل التوحيد وما أعدّه للكافرين من العذاب وما أعده للمؤمنين من الثواب، ذكر سبحانه ـ هنا ـ نعمه على الناس جميعاً، المؤمن منهم والكافر، وإنه ربهم يجري خيره على الجميع، وقد أباح لهم ما في الأرض مما يؤكل أو يصح أن يتداول فيه...

كلوا مما في الأرض مما أباحه الشرع وأجاز تناوله، وقد أجاز كل شيء فيها ما عدا بعض المحرمات التي تضرُّ بالصحة أو المجتمع، وهي محرمات معدودة محصورة يعرفها كل متدين متفقه بل يعرف بعضها من لا دين له ولا يتدين بعقيدة إلهية أو تشريع سماوي.

ثم إنه سبحانه نهى الناس عن اتباع الشيطان فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي لا تقتفوا أثره وتتبعوه فيما يأمر به أو ينهى عنه، وإذا صحّت الرواية من أنها نزلت في قوم حرّموا على أنفسهم بعض المباحات من الأنعام فيكون تحليل الحرام وتحريم الحلال من أوامر الشيطان ومَنْ أطاعه والتزم أمره ـ تحليلاً وتحريماً ـ فقد اتبع أثره ومشى وراءه والله سبحانه هنا ينهى الناس عن اتباع أوامر الشيطان ونواهيه.

ثم سبحانه علّل هذا النهي بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فالشيطان عدو للإنسان، والعدو لا ينصح خصمه أو ينفعه، بل يسعى إلى الضرر به والوقيعة فيه...

إن الشيطان عدّو لأبينا آدم وهو أيضاً عدو لنا؛ لم يتخل عن عداوته أبداً بل أعلن وجاهر بالعداوة وأخبرنا الله هنا بعدائه لنا كما أخبرنا بعدائه في آيات

أخرى، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴿٦﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾.

وإذا كان الشيطان متجاهراً في عداوته لنا معلناً بها فيجب علينا أن نكون أعداءه، فنرفض أوامره ونجتنب مسالكه ولا نقبل مسايرته بل علينا أن نستعد له بكل ما أعطينا من قوة وقدرة وما أعطينا من طاقة على مواجهته ثم هزيمته...

ثم إنه سبحانه بعد أن أخبرنا بعداوته الظاهرة، ذكر تفصيل ذلك في بعض مصاديق شرّه وكيده، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴿١٦٩﴾﴾.

فهذه ثلاثة رذائل كبيرة يأمر بها الشيطان إنها عناوين عامة للمعاصي تجمع شتات الموبقات وتضم في طياتها كل انحراف.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ﴾ هو كل معصية تحزن صاحبها وتسوءه كأكل الربا وضرب اليتيم والاعتداء على الناس وأكل أموالهم ظلماً...

﴿وَالْفَحْشَآءِ﴾ وهي أقبح وأعظم مما تقدم كالزنا وقتل النفس المحرّمة وغيرهما...

﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴿١٦٩﴾﴾ هذه ثالثة الأثافي وهو أن ينسب الإنسان إلى الله أمراً لا يعلم إن الله أمر به أو نهى عنه، فهذا كذب وافتراء عليه فأنت لا تعلم حرمة الشيء الفلاني فتحرّمه وتنسب تحريمه إلى الله بدون معرفة منك بالتحريم أو تحلل الشيء الفلاني وتنسب تحليله إلى الله بدون معرفة منك بحكم الله فيه...

وإذا كانت نسبة حكم إلى الله بدون علم بواقع أمر هذا الأمر معصية كبيرة، فمن نسب إلى الله أمراً خلاف ما يعلم فهو أشدّ ظلماً وأكثر جرماً كمن يعلم حرمة الشيء الفلاني ثم ينسب إلى الله تحليله أو يعكس الأمر في قضية أخرى فيحرّم الحلال وهو على علم بحليته...

إن الشيطان يأمر هذا الإنسان أن يقول على الله ما لا يعلم فينسب إلى الله أمراً يجهل واقعه، وهذا حرام وظلم فيجب أن نتوقف عما لا نعلم وجهه وإلا كنا من التابعين لأوامر الشيطان الممتثلين لقوله...

فوائد

١ ـ قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ فيه إشارة واضحة بل تصريح أن الله له وحده حق التشريع والتحليل والتحريم، وكل من يتولى من البشر ذلك فهو يعزل الله عن هذا الحق وهذا جرم عظيم...

٢ ـ إن هذه الآية تضع قاعدة عامة مفادها أن الأصل في الأشياء الحِل حتى تأتي الحرمة، وقد ذكرت المحرمات وبيّنت بشكل واضح وظاهر في محالّها وكل ما عداها فجائز تناوله وهو حلال...

٣ ـ لا يخفى أن السوء الذي يأمر به الشيطان هو كل معصية وانحراف، وهو معنى عام، وذكر الفحشاء بعده من باب ذكر الخاص بعد العام لأن الفحشاء هو ما تناهي قبحه وسوءه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾.

اللغة

﴿نَتَّبِعُ﴾: اقتفوا الأثر.. اعملوا.

﴿وَأَلْفَيَا﴾: وجدنا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥].

التفسير

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ هذه دعوة مخلصة منقذة تريد للناس الحياة الكريمة... دعوة إلى اتّباع ما أنزل الله على رسوله من عقائد وأحكام وتشريع وما ينفعهم ويفيدهم ويحقق عزتهم ويثبّت وجودهم... دعوة للحياة العزيزة الكريمة يجب أن تقابل بكل ترحاب ويسارع إليها كل إنسان لما فيها من الخير... إنها دعوة إلى الأخذ بأيديهم والارتفاع بهم إلى أعلى الأمجاد والكرامات وحقها أن تقبل ويسارع إلى الأخذ بها والعمل بمقتضاها، ولكنهم قابلوها بقولهم: ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ إنهم تمسّكوا بما عليه آباءهم وما تلقّوه منهم ووجدوهم عليه... إنهم لا يعدلون عما وجدوا عليه آباءهم..

وجدوهم يعبدون الحجر والمدر والصنم والوثن فهم لن يتخلوا عن هذه العقيدة أو يتركوا هذه السنة السلفية.

إن الدعوة إلى اتّباع ما أنزل الله فيه تغيير للعادة كما يحمل في طياته احتقار لما عاشه الآباء والأجداد، وهم لا يريدون ذلك ولا يريدون التجديد مهما كان يحمل من حق وصدق ونفع عام...

إن الآباء وطريقتهم ومسيرتهم كل ذلك مقدّس عندهم، لا يجوز المس به أو العدول عنه، ولذا أصرّوا على التمسك به ومتابعته والاقتداء به...

ويردّ الله عليهم وعلى عقيدتهم هذه الرافضة لما أنزل الله بقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ استفهام يتضمن توبيخاً وتعجباً من هذا الموقف المنحرف... إن هؤلاء القوم يتابعون آباءهم حتى وإن كان الآباء لا يعقلون عن الله حكماً ولا يهتدون إلى طريق الصواب... أإذا كان آباؤهم بهذا المستوى من الغباء وعدم المعرفة والضلال سوف يكونون معهم ويكملون مسيرتهم ولن يتخلوا عنهم وعن طريقتهم؟. نعم إنه التقليد الأعمى الذي بنوا عليه سلوكهم وسيرتهم...

إنه ازدراء لهم واحتقار لمواقفهم، تبعاً لازدراء آبائهم الفارغين من كل فكر وثقافة ومن كل حق وصدق...

فائدتان

١ ـ اختلف المفسرون في الضمير ﴿لَهُمُ﴾ وإنه لأي شيء يرجع فقال بعضهم يرجع، إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾.

ومنهم من قال إنه يرجع إلى الناس في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

ومنهم مَنْ قال إنه يرجع إلى اليهود وإن لم يسبق لهم ذكر، باعتبار أنهم

السبب في نزول الآية عندما دعوا إلى الإيمان فرفضوا وأصروا على سنّة آبائهم وما أخذوه منهم وعنهم.

٢ ـ في الآية ذم للتقليد ودعوة إلى الاجتهاد، فإن الله ذمّ اتّباع الآباء ونعى على من مشى خلفهم بدون دليل...

قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿الْمَثَلُ﴾: الشبه.

﴿يَنْعِقُ﴾: يصيح ومنه نعق الراعي بغنمه إذا صاح بها وزجرها.

﴿الدُّعَاءَ﴾: الدعاء كالنداء إلا أن النداء قد يقال بيا أو أيا ونحو ذلك من غير أن يضمّ إليه الاسم، والدعاء لا بدّ من ضم الاسم، إليه وقد يستعمل كل منهما موضع الآخر.

﴿وَنِدَاءً﴾: النداء: رفع الصوت، وقد يقال للصوت المجرّد كما في الآية وأصل النداء من الندى أي الرطوبة واستعارة النداء للصوت من حيث أن من يكثر رطوبة فمه حسُن كلامه ولهذا يوصف الفصيح بكثرة الريق.

﴿صُمٌّ﴾: جمع أصم والصمم في كلام العرب الانسداد، يقال صممت القارورة إذا سددتها وأذن صماء إذا فقدت حاسة السمع ويوصف بالصمم من لا يصغي إلى الحق أو يقبله.

﴿بُكْمٌ﴾: جمع أبكم، وهو الأخرس الذي لا ينطق، وقيل إن الأبكم الذي لا ينطق ولا يفهم، فإذا فهم فهو الأخرس.

﴿الْعُمْيَ﴾: جمع الأعمى، وهو ذهاب البصر، ويقال أيضاً لمن فقد البصيرة.

التفسير

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ واتخذوا من دون الله أنداداً مثل الذين كفروا مع الدعاة إلى الله من الأنبياء والمرشدين وأصحاب الكلمات الطيبة الهادية.

﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ كمثل الراعي الذي يصيح على غنمه وماشيته فهي تسمع الصوت والكلام دون أن تعرف معناه ومدلوله، وهؤلاء الكفار كالبهائم يسمعون كلام الله وكلام رسوله ومع ذلك لا يفكرون فيه أو يعيدون النظر في مضمونه بل اتخذوا طريق الآباء وسيرتهم حجة لهم وأقفلوا عقولهم عن كل شيء يصدر من غيرهم...

ثم زيادة في التبكيت لهم وصفهم تعالى بقوله:

﴿صُمٌّ﴾ فلا يسمعون وإن كانوا يملكون آلة السمع.

﴿بُكْمٌ﴾ لا يتكلمون بالحق وإن كانوا يملكون آلة الكلام.

﴿عُمْيٌ﴾ فهم لا يبصرون وإن كانوا يملكون آلة البصر.

﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا يفهمون ولا يفكرون، لأن من يملك عقلاً ووعياً وفهماً ينظر إلى الأمور ويفكر في مضمونها وأبعادها وما وراءها، ومن يملك منطقاً يستعمله بالحق وينطق بهذا الحق ومن يملك سمعاً يصغي إلى الحق ويفكر فيه... إن كل عضو يجب أن يأخذ دوره المعدّ له وإلا تحوّل إلى عدم، وأصبح وجوده وعدمه سواء وتحوّل من يحمله إلى إنسان مشلول فاقد للفكر وعديم للفهم وكفى بهذا مُنبهاً للعقلاء في أن يعيدوا النظر في مواقفهم ويستمعوا لكلمة الحق الصادرة من أهلها حتى ينتفعوا بها ويؤدوا دورهم في الحياة...

فائدة

١ ـ هناك من يذهب إلى تفسير هذه الآية بتأويل آخر غير ما ذكرناه، وملخص هذا التفسير أن الكفار عندما يدعون أصنامهم فكأنهم يدعون البهائم، فكما أن البهائم لا تفهم المعنى وإن سمعت الصوت فكذلك الأصنام تسمع الصوت ولكنها لا تفهم المعنى وهنا يكون المحذوف هو المدعو.

وأقول هناك فرق بين الحيوانات وبين الأصنام، فالحيوانات تملك آلات السمع بينما الأصنام خالية من ذلك فكيف تشبّه بها إلا مع بعض التسامح الفاضح. . .

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾.

* * *

اللغة

﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾: جمع الطيب وأصله ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس، والطعام الطيب في الشرع ما كان متناولاً من حيث يجوز وبقدر ما يجوز ومن المكان الذي يجوز.

التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ بعد أن خاطب الله الناس جميعاً أن يأكلوا مما في الأرض حلالاً طيباً خصّ هنا المؤمنين بالخطاب تفضيلاً لهم واعتناء بهم واهتماماً بشأنهم وليدخل من هذا الأمر إلى الأمر بشكره، فقال تعالى:

﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي إن كنتم تخصون الله بالعبادة فاشكروه على نعمه هذه فكأن عبادته لا تتم إلا بشكره...

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾.

اللغة

﴿حَرَّمَ﴾: منع وحظر، والحرام هو الممنوع منه.

﴿الْمَيْتَةَ﴾: من الحيوان ما زال روحه بغير تذكية.

﴿وَالدَّمَ﴾: أصله دمي وجمعه دماء وأصله السائل الأحمر الذي يجري في عروق الحيوان.

﴿الْخِنزِيرِ﴾: جمعه خنازير وهو الحيوان المعروف بكراهة منظره.

﴿أُهِلَّ بِهِ﴾: الإهلال رفع الصوت عند رؤية الهلال ثم استعمل لكل صوت وبه شُبّه اهلال الصبي ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أي ما ذكر عليه غير اسم الله.

﴿اضْطُرَّ﴾: الاضطرار: الإلجاء، واضطر أي الجيء أي ألجأته الضرورة إلى الأكل من المحرمات.

﴿بَاغٍ﴾: من البغي وهو الفساد وتجاوز الحد المرسوم إلى غيره من دون ضرورة، والباغي: هو فاعل ذلك.

﴿عَادٍ﴾: من العدوّ وهو التعدّي في الأمور وتجاوز ما ينبغي أن يقتصر عليه.

﴿إِثْمَ﴾: جمعه الآثام وهو الذنب الذي يستحق صاحبه عليه الملامة.

التفسير

أمرنا سبحانه وتعالى فيما تقدم أن نأكل من الحلال الطيب وهنا يفصّل لنا بعض المحرمات، فيقول تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ أي أكلها والانتفاع بها وأسند الحرمة إلى العين إشارة منه سبحانه إلى حرمة كل تصرف فيها...

والميتة هي كل حيوان مات على غير تذكية شرعية سواء مات حتف أنفه أو بضربة عصا أو بذبح على غير الطريقة الشرعية.

﴿وَالدَّمَ﴾ وهذا حرام تناوله وأكله وقد كان العرب يتناولونه بالأكل.

﴿وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ ويحرم أكل لحم الخنزير وأسند التحريم إلى اللحم وإن كان الشحم حرام، وكذلك كل أجزائه لأن اللحم هو المقصود للأكلة كما أنه هو المستطاب عندهم وأيضاً غيره تبع له...

﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ ويحرم أكل ما ذكر عليه غير اسم الله عند ذبحه، وقد كان العرب يرفعون أصواتهم باسم المقصود بالذبيحة فيقولون بسم اللات أو العزى ليعّينوها له...

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾. أباح سبحانه للمضطر وهو الملجأ اضطراراً إلى تناول هذه المحرمات عند الضرورة ولكن بشرطين أن يكون غير باغ - غير ساعٍ في فساد - ولا عادٍ ولا متجاوزٍ مقدار الحاجة التي تحفظ عليه نفسه واستمرارية حياته، فمثل هذا لا إثم عليه فإنه سبحانه يرفع الذنب عنه ولا يؤاخذه به رحمة منه.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إشارة إلى أن مقتضى الحرمة موجود ولكن رُفع للاضطرار وهذا من رحمته فإنه غفر هذا التجاوز وأباحه لكم...

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿يَكْتُمُونَ﴾: يسترون ومنه كتم الحديث إذا ستره.

﴿يَشْتَرُونَ﴾: حقيقة الاشتراء: الاستبدال، والعرب تستعمل ذلك في كل من استبدل شيئاً بشيء.

﴿ثَمَنًا﴾: اسم لما يأخذه البائع في مقابل المبيع عيناً كان أو سلعة، وكل ما يحصل عوضاً عن شيء فهو ثمنه.

﴿قَلِيلًا﴾: القلة: نقصان المقدار عن مقدار غيره، ويطلق على الحقير واليسير.

﴿بُطُونِهِمْ﴾: مفرده بطن وهو خلاف الظهر في كل شيء.

التفسير

هذه أعظم جريمة يمكن أن يرتكبها إنسان... إنها جريمة إخفاء الحق وطمس معالمه ليقتل الناس ويضلهم عن هدى الله...

إن اليهود كانوا أصحاب كتاب (التوراة) وقد حملت معها البشارة ببعثة رسول الله وصفاته وخصائصه، وقد كانت تترقّب ظهوره منها ولما ظهر من العرب أبت قبوله والإيمان به وأخذت تكتم صفاته الواردة في كتابها أو تحرّفها عما هي عليه فنزلت الآية الكريمة ـ وغيرها من الآيات ـ تكشف أسرارهم وأعمالهم وما يمارسونه من انحراف في كتمان الحق وإضلال الناس. . .

إنهم كتموا وستروا صفات النبي ﷺ التي نزلت في توراة الله وكلامه من أجل أن يحفظوا دنياهم التي يتمتعون بها ويعيشون من خلالها حياة رغيدة. . .

إنهم اشتروا أمجادهم والحفاظ عليها وجمعوا الأموال وأصرّوا عليها في مقابل أن يطمسوا الحقيقة التي بشّرت بها التوراة وهي نبوة محمد وبعثته إلى الناس. . .

إنه ثمن قليل مهما كان غال ونفيس، لأنه إلى انقطاع وزوال بالنسبة إلى الآخرة الدائمة الباقية ونعيمها الذي لا نظير له ولا مثيل. . .

إن جزاء هذا الانحراف العظيم والفعل الشنيع لا بد وأن يكون كبيراً وعظيماً ومن نفس النوع الذي من أجله كان الانحراف. . .

إنهم اشتروا ستر الحق بالثمن القليل وهو الدنيا التي يتمتعون بها ويتلذذون بطيباتها فترتب على هذه المعاملة الباطلة الخاسرة عذابات، هي:

الأولى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾.

إنهم أرادوا أن يأكلوا الدنيا وما فيها ويتلذذوا بنعيمها وإن أدّى ذلك إلى ضياع الحق وضياع الخلق، فكان أن تحوّل ما يأكلونه إلى نار في بطونهم تحرق تلك الأمعاء وتشوي ذلك الجهاز الذي من أجله كانت صفقتهم الخاسرة.

الثاني: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إنه لغضبه عليهم لا يلتفت إليهم ولا يؤنس وحشتهم أو يهدىء من روعتهم. . . وما أروع هذه المقابلة بين كتمانهم للحق وعدم البوح به.

وبين قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ وعدم تكليم الله لهم يعني غضبه عليهم الموجب لسقوطهم في العذاب.

الثالث: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي لا يقبل أعمالهم ولا يطهرهم من دنس الذنوب والخطايا كما يفعل بالمؤمنين الذين زلّت بهم القدم في بعض المواقف لضعف الإرادة مع حفظ القواعد العقيدية الأساسية عندهم...

وهنا أيضاً مقابلة واضحة بين خبثهم وإيذائهم للنبي ﷺ وعدم تزكيتهم وتطهيرهم...

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي عذاب مؤلم وهو نار جهنم التي أعدّها الله للكفرة والمشركين والفسقة العاصين...

فائدتان

١ ـ قالوا إن هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾، نزلت في رؤساء اليهود حيث كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا، فلما بعث الله محمداً خافوا من إيمان الناس به إن بيّنوا صفاته وأنه النبي المبشّر به فكتموها خوف أن يخسروا هذه العطايا وبعض الامتيازات.

٢ ـ دلّت الآية على حرمة كتمان الحق وإن على العالم بشيء أن يظهره ويكشفه ولا يمنعه عن أهله ورواده والمستحقين له...

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥﴾.

اللغة

﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾: من ضل والضلال هو العدول عن الطريق المستقيم ويضاده الهداية، ويقال الضلال لكل عدول عن المنهج عمداً كان أو سهواً يسيراً كان أو كثيراً. . .

﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾: الدلالة بلطف، وخصّ ما كان دلالة بهديت وما كان إعطاء بأهديت ويتعدى بحرف وبغير حرف.

﴿ٱلۡعَذَابِ﴾: الإيجاع الشديد، وقد عذّبه تعذيباً أكثر حبسه في العذاب، والتعذيب في الأصل هو حمل الإنسان أن يعذّب أي يجوع ويسهر وقيل إن الأصل من الضرب بعذبة السوط.

﴿ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾: والغفران من الله هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب. . .

التفسير

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾.

إن أهل الكتاب ـ اليهود ـ الذين كتموا صفات النبي ﷺ أو انحرفوا بها إلى غيره، أولئك أصرّوا على انحرافهم وضلالهم عن عمد ومعرفة. فهم قبلوا الانحراف بدل الاستقامة والضلال بدل الهدى، وبهذا سلكوا الطرق الموصلة إلى النار، إنهم قوم تركوا الجنة ونعيمها واستبدلوا ذلك ـ حيث كتموا صفات النبي ـ بعذاب النار.

ثم ذكر سبحانه جرأتهم وإقدامهم بقوله:

﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ ما أشد صبرهم على تحمل النار فهو تعجّب من هذا الفعل المؤدي بهم إلى النار مع معرفتهم بما سيصلون إليه من النار جراء فعلهم...

إنهم فعلاً فئة جريئة على اقتحام جهنم مع معرفتهم بعجزهم عن تحمل عذابها وما فيها من ويلات...

إنهم فئة تقتحم النار بفعلها فتستحق من كل مؤمن أن يتعجب من حمقها وغفلتها وإقدامها على دخول النار...

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾.

اللغة

﴿نَزَّلَ﴾: من نزل، والنزول في الأصل هو انحطاط من علوّ وإنزال الله للقرآن والإيحاء به إلى النبي ليبلّغه للناس...

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مصدر كتب وأصله الجمع ومنه قيل كتيبة ويطلق على القرآن وعلى التوراة...

﴿بِٱلْحَقِّ﴾: أصل الحق المطابقة والموافقة وكون القرآن حقاً لأنه نزل على ما تقتضيه الحكمة، ولهذا يقال فعل الله تعالى كله حق.

﴿ٱخْتَلَفُوا۟﴾: الاختلاف والمخالفة كما يقول الراغب أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو قوله...

﴿شِقَاقٍ﴾: الخلاف والعداوة، وحقيقة الشقاق أن يكون واحد من الخصمين في شق ـ جانب ـ غير ما فيه الآخر...

﴿بَعِيدٍ﴾: البُعد ضد القرب وليس لهما حد محدود، والضلال البعيد: هو الضلال الذي يصعب الرجوع منه..

التفسير

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي ذلك العذاب بأنواعه لأن الله نزّل التوراة بالحق الذي هو الصدق المتضمن لصفات النبي، فكتمها هؤلاء وأخفوها عن الناس فاستحقوا العذاب.

ثم أعطى سبحانه كبرى كلية تنطبق على التوراة كما تنطبق على كل كتب الله عندما تُرفض هذه الكتب أو تكذّب أو يُكتم الحق الذي فيها. ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾. إذا أريد بـ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ الجنس، فمعناه أن الذين اختلفوا في الكتاب من جهة الإيمان ببعض، والكفر بالبعض الآخر كمن يؤمن بالتوراة ثم ينكر الإنجيل والقرآن فهؤلاء في فراق لا لقاء بينهم أو في خلاف بعيد عن الحق.

وإن أريد بـ ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ القرآن، فمعناه ما قالوه فيه من أنه سحر أو كهانة ـ أو قول البشر فذلك خلاف بعيد عن الحق.

وإن أريد بـ ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ التوراة، فمن جهة أنهم اختلفوا في صفات النبي أو أنهم أخفوها واختلقوا غيرها...

قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿الْبِرَّ﴾: التوسع في فعل الخير وهو اسم جامع لأعمال الخير.

﴿تُوَلُّوا﴾: يقال ولّيتُ سمعي كذا أو عيني أو وجهي إذا أقبلت به عليه وإذا عدّي بـ«عن» لفظاً أو تقديراً اقتضى معنى الإعراض وترك قربه.

﴿وُجُوهَكُمْ﴾: جمع وجه وأصله الجارحة المعروفة ولما كان الوجه أول ما يستقبلك وأشرف ما في ظاهر البدن استعمل في مستقبل كل شيء وأشرفه ومبدئه، فقيل وجه النهار...

﴿قِبَلَ﴾: ناحية وجهة.

﴿الْمَشْرِقِ﴾: اسم لموضع الشروق، وشرقت الشمس شروقاً: طلعت، وأشرقت: أضاءت.

﴿ٱلْمَغْرِبِ﴾: اسم لموضع الغروب.

﴿ءَامَنَ﴾: صدّق واعتقد.

﴿ٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾: يقابل به اليوم الأول وهو الدنيا، واليوم الآخر يوم البعث والحساب.

﴿وَءَاتَى﴾: أعطى، والإيتاء الإعطاء.

﴿ٱلْمَالَ﴾: جمعه أموال ما ملكته من جميع الأشياء يذكر ويؤنث.

﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: القرابة من الأرحام ومن يمتّ إليك بصلة.

﴿ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾: جمع يتيم وهو انقطاع الصبي عن أبيه بالموت قبل البلوغ وفي سائر الحيوانات من قبل الأم وكل منفرد يتيم.

﴿وَٱلْمَسَـٰكِينَ﴾: جمع مسكين وهو الفقير وقيل إنه الأشد حاجة من الفقير.

﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: ابن الطريق وسمي به لسفره وملازمته له في هذا السفر، وهو المنقطع به في الغربة المحتاج وإن كان في بلده غنياً.

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾: المتسولين الذين يطلبون الصدقة ويستجدونها.

﴿ٱلرِّقَابِ﴾: جمع رقبة وفي الأصل هو العنق وتطلق على البدن كله وتطلق ويراد بها العبيد الأرقاء.

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: قام الشيء إذا دام وثبت، ويقيمون الصلاة يداومون على إقامتها ويثبتون عليه...

﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾: أعطى المال المخصوص وأخرجه عنه إلى مستحقه، والزكاة إخراج جزءٍ مقدّر عند الشارع من المال فيعطى للفقراء والمساكين وغيرهما ممن ذكرهم الله في القرآن...

﴿وَٱلْمُوفُونَ﴾: من وفّى بعهده يفي وفاء وأوفى إذا تمّم العهد ولم ينقض حفظه وضده الغدر.

﴿ٱلْعَهْدُ﴾: العقد، حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال، وباعتبار الحفظ قيل للوثيقة بين المتعاقدين عهدة.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: من الصبر وهو الإمساك في ضيق، والصبر حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع أو عما يقتضيان حبسهما عنه...

﴿ٱلْبَأْسَآءِ﴾: الفقر.

﴿ٱلضَّرَّآءِ﴾: السقم والوجع وغيرها مما يضر الإنسان.

﴿ٱلْبَأْسِ﴾: في الأصل معناه الشدة ويراد به في الآية القتال.

﴿صَدَقُوا۟﴾: يراد بـ«صدقوا» هنا فعلوا ما يجب وكما يجب، وقوله ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي حققوا العهد بما أظهروه من أفعالهم...

التفسير

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ هذه الآية الكريمة جاءت لتصحح مفهوماً خاطئاً ذهب إليه أهل الكتاب ويمكن أن يسري إلى غيرهم بعموم الخطاب...

إنه مفهوم البر الذي يعني الخير الجامع لكل الأعمال الطيبة المقرّبة من الله، فقد ذهب اليهود إلى أن البر هو ما هم عليه من استقبال المغرب. وذهب النصارى إلى أن البر هو ما هم عليه من التوجه إلى المشرق.

إن هؤلاء القوم تبنّوا مفهوماً صاغوه كما أحبوا وأرادوا دون أن يعودوا إلى الله في تحديده وضبطه وبيانه بشكل جيد... إنهم ذهبوا إلى أن مجرد التوجه إلى المشرق أو المغرب يكفي في تحقق هذا المفهوم قاطعين النظر عن عمقه ومصدره ومدلوله وما يريده الله من مضمونه...

ربّما كان التوجه إلى الجهتين ﴿ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ منسوخ كما هو فعلاً وحقيقة

وواقعاً... وربّما كان التوجه إليهما مجرداً عن النية الصادقة والالتزام الخالص لطاعة الله فلا يكون لهذا التوجه أثر إيجابي نافع ومفيد.

إن ﴿ٱلْبِرَّ﴾ بمفهوميه اليهودي والنصراني ليس صحيحاً، إنه ليس براً أصلاً أو ليس ببر كامل على أقل التقادير، ومن هنا يجب أن تُنفى عنه صفة البر... يجب أن يبطل هذا المفهوم ـ اليهودي والنصراني ـ ويلغى أثره بل يجب أن يمحى بالكامل ثم يحدّد للبر مفهومه الواقعي الصحيح، ومن هنا جاء هذا الهدم الواضح لمفهوم ﴿ٱلْبِرَّ﴾ بالمفهوم اليهودي والنصراني...

أبداً ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ ليس هذا التوجه بوجوهكم إلى المشرق أو المغرب هو البر، وإذا لم يكن هذا هو البر فما هو البر؟..

إنه ينتظم في عقيدة سليمة وفي علاقات اجتماعية سليمة وفي تهذيب للنفس، رقيق، البر يتقوم بأمور هي:

١ ـ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ وهذا أساس البرّ وعمقه.. الإيمان بالله وجوداً ووحدانية.

وما له من صفات الجلال والكمال... الإيمان بالله الذي هو خالق العالم وبيده الأمور كلها لا ينازع في حكمه ولا يردّ أمره... إن الإيمان بالله هو أساس كل عقيدة إلٰهية تريد أن تكون على الخط الصحيح والسليم، ثم بعدها يأتي الإيمان بالآخرة.

٢ ـ ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ وهو يوم القيامة.. المعاد حيث يخرج الناس للحساب فيجازي الله المجرم بالنار والمطيع بالجنة.. يوم القيامة من أهم الأسس الدينية وأسس البر حيث يشعر الإنسان بأن كل عمل يقوم به في الدنيا سيحصد نتيجته في الآخرة ومن هنا سيقوّي هذا الإنسان الدوافع الصالحة نحو كل عمل طيّب خيّر...

٣ ـ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ وهذا أمر غيبي أخبر الله عنه على ألسنة رسله، والإيمان

بالملائكة فرع عن الإيمان بالأنبياء الذين ينقلون لنا أخبارهم ودورهم، وقدّمهم الله في المقام لشرفهم وكرامتهم عليه ولأنهم لا يعصونه وبأمره يعملون.. الإيمان بالملائكة على اختلاف مراتبهم ومنازلهم وخصوصياتهم ولو بصورة إجمالية دون الغوص في تفاصيل ذلك أو التحقيق فيه.

٤ - ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو كل كتاب مُنزَل من قبل الله سواء كان توراة أم إنجيل أم قرآن، وهذا من خصائص هذه الأمة وكرامتها أنها تؤمن بكتب الله جميعاً وتعترف بنزولها من عنده كما تعترف أن لكل زمان كتاب خاص ينسخ ما قبله ويلغى العمل به ويعيّن العمل بالذي بعده أو يلغي بعض ما تقدم حسب الأمر الإلٰهي، وقد كان آخر هذه الكتب وأشرفها الذي تعيّن العمل بمضمونها هو هذا القرآن الكريم المعجزة الخالدة مدى الزمن...

٥ - ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وهؤلاء الأنبياء السفراء البررة الذين تلقّوا عن الله كلامه ونقلوه إلى البشر إنهم أطهر الناس وأشرفهم اختارهم الله لعلمه بطينتهم الطاهرة ونفوسهم الزاكية إنهم الأنبياء الذين كلّفوا بحمل الرسالة من عند الله يجب الإيمان بهم والأخذ منهم وعنهم.. يجب الإيمان بالجميع ومن أخلّ بالإيمان بواحد منهم كان كمن لم يؤمن بأحد منهم.

ومن هنا يتمتع المسلم بإيمان صحيح وسليم من خلال الإيمان بكل أنبياء الله ويختم إيمانه بالإيمان بسيدهم وقائدهم نبي الرحمة محمد بن عبد الله ﷺ...

الإيمان بالأنبياء يقتضي الإيمان بأنهم سفراء الله وأن على البشر أخذ كلامهم والعمل به ولا يجوز مخالفتهم أو عصيان أمرهم...

هذا كله هو الأساس العقيدي لـ﴿ٱلْبِرَّ﴾ كي يقع صحيحاً سليماً.

وأما على مستوى العلاقات الاجتماعية والتفاعل فيما بين الناس فيشترط في صحة البر وسلامته أن ينظر الإنسان إلى أخيه الإنسان ويوفر له ما يقدر عليه من معونة ومساعدة ولا يبخل عليه بحطام الدنيا وما فيها ويتجسد ذلك في بذل المال والسخاء به على جملة من المحتاجين إليه وقد فصل الله ذلك بقوله تعالى:

٦ - ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أعطى المال رغم حبه له إلى أقربائه وأرحامه ومن يلتقي معه في نسب...

المال مهما كان نوعه وصنفه ووضعه إما عيناً كما هو الحال في الدراهم والدنانير وغيرها من النقود كما ينصرف إليه لفظ المال وإما ماشية أو ماعوناً أو غرضاً آخر يقضي به حاجته...

إن بذل المال ترجمة عملية للإيمان بالله والأنبياء واليوم الآخر والملائكة والكتاب... إنه عملية تحويل لهذا الإيمان من عقيدة تعيش في القلب إلى عمل يمارس فعلاً في إعطاء المال إلى قريب محتاج... وهذا القريب الذي يوصلك به رحم ويجمعك معه قربى، هذا الرحم القريب يكون في الإحسان إليه أجر عظيم حيث تجتمع فيه خصلتان القرابة والحاجة وفي ذلك وصل وترابط... وكذلك الإعطاء إلى اليتامى.

٧ - ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ وهم الذين فقدوا آباءهم وبفقدهم فُقد المعيل والكفيل وذاق اليتيم من جراء ذلك الحرمان وعاش الفاقة وفقد الحيلة لتحصيل متطلباته والضروريات من الحياة فاحتاج إلى مدّ يد العون إليه والمساعدة له لإخراجه مما يعانيه من ألم الحاجة وذل الفاقة.

٨ - ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ وكذلك يتجلى البر في إعطاء المساكين الذين سكنت حركاتهم لفقرهم وحاجتهم... إنهم يعملون ولكنهم باستمرار بحاجة وعوز فهؤلاء تجبر قلوبهم وتطيّب خواطرهم عندما تمدّ إليهم الأيدي بالمساعدة... إنه شعور رقيق يخرج من قلب يعيش مع الله في أوامره وما يريد... إنهم المساكين الذين لا يطلبون ولا يسألون ولكنك تعرفهم بسيماهم وواقع حالهم...

٩ - ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهذا فرد من جملة ما يتحقق به البر من الأفراد... إنه المسافر الذي ابتعد عن بلده وفقد ماله فمثل هذا يحتاج إلى مساعدة يرفع بها عوزه وحاجته، ولفقره سُمّي ابن السبيل حيث يلازم الطريق بدون مأوى أو مسكن فتحول إلى ابن لهذا الطريق.

١٠ ـ ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ هم الفقراء الذين تدفعهم الحاجة إلى التسوُّل والطلب والاستجداء. . .

إن أي إنسان لا يقبل ذُلَّ السؤال ولا يقبل أن يضع نفسه في ذلك المقام المهين، ولكن قد يتحول السؤال في بعض الأحيان إلى ضرورة يلتجيء إليها الإنسان ويتجرعها كما يتجرع السم ولكنه يقدّرها بقدرها دون زيادة. . .

١١ ـ ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ أي يعطون أموالهم في تحرير العبيد الذين وقعوا في ذل العبودية. . .

إنها حالة تحكم المسلم فيشعر من خلالها أنه مطالب بتحرير الإنسان وإطلاق سراحه، وهذا عنوان يحكي بمطالبة المسلم بتحرير كل إنسان مستعبد مستذل يحكمه الطغاة والظالمون ويمارسون عليه أقسى أنواع الظلم والاضطهاد. . .

إن المسلم اليوم مطالب بتحرير الشعوب المستعمرة التي تعاني من جراء احتلال أرضها وشعبها والتي تُصادر حريتها وتمتهن كرامتها وتسلب خيرات بلادها. . .

وأما العنوان الثالث المتجسد في تهذيب النفس وتقويمها والسلوك بها في الطريق الصحيح، فهذا يمكن أن يتحقق في القيام بمفردات ومصاديق متى جاء بها المسلم مع غيرها مما فُرض في الآية عندها يتحقق مفهوم البر الصحيح. . .

إن تهذيب النفس وتأديبها يتحقق في امتثال قوله تعالى.

١٢ ـ ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وإقام الصلاة يعني الدوام عليها والإتيان بها بجميع أجزائها وشروطها وإزالة مبطلاتها وكل ما هو مطلوب في تحقيقها، فإذا أقيمت كما يجب عندها تنهَى عن الفحشاء والمنكر. . . وعندها تكون معراج المؤمن وقرة عينه. . . وهكذا. . .

١٣ ـ ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي اخرج الزكاة الواجبة عليه وهي المفروضة على مَنْ ملك النصاب في هذه الفريضة. . .

إنها فريضة تتقوّم حقيقتها بنية القربى الخالصة لله على حد الصلاة والصيام. . .

وأما تفاصيل الأعيان الزكاتية بماذا تجب ومتى تجب وكم هو مقدار الزكاة الواجب إخراجها وغير ذلك؟ فهذا موكول إلى كتب الفقه المعدّة لهذه الأمور. . .

١٤ ـ ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ فإذا التزموا بعهد ـ وهو العقد ـ بينهم وبين الله أو بينهم وبين أحد من الناس نفّذوه كما التزموه وطبقوا مضمونه كما توافقوا عليه لا ينقضونه أو يخلّون به. . . إنه عندهم قضية مقدسة يشعرون أنهم مطالبون بها ولا يتحللون منها إلا بالقيام بها. . .

١٥ ـ ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ وهذه ملكة الصبر التي تعني فيما تعني أن يبقى الإنسان أمام الشدائد في وعي كامل يحاول حلّ ما وقع فيه من مشاكل، فهو على هذا معنى إيجابي يحفظ الإنسان من الانهيار وفقدان التوازن فلا يضطرب أو يفقد اتزانه أمام الصعوبات والضربات والحالات الصعبة. . .

فالصابرين على الفقر الذين لا ينهارون أو يسقطون أمام هذه الحالة، وكذلك الذين لا يسقطون أمام المرض وحالات الانحراف الصحي، إنّ هؤلاء يملكون السيطرة على أعصابهم ويتمتعون بقوة وقدرة تحفظهم من الانزلاق والسقوط. . .

البأساء والضراء حالتان تحتاجان إلى صبر وعزيمة وقوة إرادة. . .

ثم ترقّى إلى فرد أكثر صعوبة ويحتاج إلى صبر أكثر وأقوى إنه الصبر على الحرب وشدة القتال. . .

﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ الصبر وقت الحرب وشدتها.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ من أقام هذه الأمور المتقدمة وأتى بها على وجهها فقد صدق في إيمانه والتزامه كما صدق في إتيان البر.

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أيضاً أولئك هم الذين اتقوا الله بترك المحرمات والتزام الواجبات. . .

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿كُتِبَ﴾: فرض وثبت.

﴿ٱلْقِصَاصُ﴾: بكسر القاف، من قصّه إذا اتبع أثره وهو في الشرع اسم لاستيفاء مثل الجناية.

﴿ٱلْقَتْلَى﴾: مفرده قتيل وأصل القتل إزالة الروح عن الجسد كالموت، لكن إذا اعتبر بفعل المتولي لذلك يقال قتل وإذا اعتبر بفوت الحياة يقال موت، ولفظة قتيل يستوي فيه المذكر والمؤنث فيقال رجل قتيل وامرأة قتيل.

﴿ٱلْحُرُّ﴾: نقيض العبد وهو الطليق الذي لم يسترق أو يستعبد ولا يصحّ أن يبتاع أو يشترى.

﴿ٱلْعَبْدُ﴾: هو المملوك من الإنسان الذي يصح بيعه وابتياعه.

﴿ٱلْأُنثَىٰ﴾: خلاف الذكر ويقالان في الأصل اعتباراً بالفرجين.

﴿عُفِيَ﴾: من عفا، والعفو هو الترك والعفو عن المعصية ترك العقاب عليها.

﴿ٱلْأَخِ﴾: جمعه أخوة إن كانوا لأب وإلا فجمعه إخوان.

﴿فَٱتِّبَاعٌۢ﴾: اقتفاء الأثر.

﴿ٱلْمَعْرُوفِ﴾: اسم لكل فعل يُعرف بالعقل أو الشرع حسنه.

﴿وَأَدَآءٌ﴾: دفع الحق دُفعة وتوفيته وأصل ذلك من الأداة التي بها يتوصل إلى الشيء، وأديت الأمانة أوصلتها.

﴿ٱلْإِحْسَٰنِ﴾: فوق العدل لأن العدل يأخذ ما له ويعطي ما عليه.

﴿تَخْفِيفٌ﴾: التخفيف هنا يراد به السعة واليسر، وقال الراغب: يستعمل الخفيف فيما يستحليه الناس وثقيل، فيما يستوخمه...

﴿ٱعْتَدَىٰ﴾: الاعتداء: التجاوز.

﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أصحاب العقول، والألباب جمع لب مأخوذ من لب النخلة.

التفسير

هذه الآيات نزلت لتصحّح مساراً فاسداً يعيشه المجتمع يوم ظهور نور الإسلام حيث كان الأقوى يجور على الأضعف عندما يحتدم القتال بينهم وتأخذ الحرب بعض الأفراد، فكانت القبيلة القوية لا تكتفي بالمماثلة في القتلى بل كانوا يقتلون الحر بالعبد ويقتلون بدل إنسانهم جملة أناس من أعدائهم، وهكذا يتحصّن القوي بقوته ويندفع للانتقام من أعدائه بما تطال يده دون ضوابط أو قوانين...

جاءت هذه الآية لتضع القانون الذي يحمل العدل والمساواة كما يحمل الرحمة والشفقة. وخاطبت المؤمنين لحمايته وحمله وتنفيذه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾.

خطاب للمؤمنين سواء كانوا ولاة أمر أم قتلة أم أولياء دم، فالحاكم ينفّذ

الحكم والقاتل يسلّم نفسه وجوباً وأولياء الدم يرفعون القضية ويطلبون المحاكمة ويثبتون حقهم من خلال الأدلة القضائية المثبتة لهذا الحق...

إن القصاص واجب يتحتم على الجميع إقامته، وثابت في الشرع والدين أن يستوفى هذا الحق من القاتل، فكما قتل يجب أن يُقتل - إذا لم يرض الأولياء إلا بالقتل -... إنه حكم يوصل الحق إلى أصحابه ويمنع ردّة الفعل السيئة، ويحظّر على الناس الفوضى في الثأر والانتقام...

ثم ذكر سبحانه مصاديق لذلك وعيّنات، قال تعالى: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾ فيُقتل الإنسان الحر إذا قتل إنساناً حراً مثله وهذا عدل لمساواتهما من جميع الجهات ومنها الحرية فلا يقتل غير القاتل ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ وإذا قتل العبد عبداً مثله قُتل به لمساواتهما لبعضهما.

﴿وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ﴾ لو قتلت امرأة امرأة قُتلت بها...

هذه ثلاثة مصاديق كان أهل الجاهلية يخالفون فيها ويتجاوزونها كانوا يقتلون الحر بالعبد والأنثى بالرجل والرجل بالرجال فردّهم الله إلى هذا الحكم وأوجب عليهم تنفيذه دون ظلم أو إجحاف واعتداء...

ثم كانت الرحمة الإلٰهية التي ترافق هذا الإنسان وتتابعه في كل خطواته حيث ترسم له طريقاً فيه الرحمة والشفقة فيقول سبحانه.

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾.

إن ولي الدم إذا ترك دم المقتول ولم يقتص من القاتل بمثل جنايته نفساً بنفس وقبل الدية بدلاً عن ذلك، فإن ذلك يجب أن يُتبعه بالرفق والعطف واللين فيُنظر المعسر المطلوب بالديّة أو يقسطها عليه بحسب قدرته دون أن يرهقه أو يسقطه وكذلك على القاتل الدافع للدية أن يؤديها بإحسان فلا يمطله ولا يبخسه حقه بل يؤديها بلطف ورفق وسرعة.

إذن فإذا تصالح أولياء الدم والقاتل على الديّة وعفى هؤلاء الأولياء عن القصاص وعدلوا عنه إلى بديله كان ذلك أمراً إلٰهياً يُرغب بمثله مع الوصية

لأولياء الدم بأخذ الديّة بالمعروف أي باليسر والرفق وعلى القاتل أن يؤديها بإحسان المتمثل بالإسراع فيها مع القدرة، وعدم إنقاص شيء منها...

وأشار سبحانه بعد هذا الحكم إلى الحكمة في ذلك وأن الرحمة تتابع هذا الإنسان وتلاحقه في كل حكم وتشريع، فقال سبحانه:

﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي الحكم بقبول الدية بدل القتل - إذا تم الوفاق عليها - هذا الحكم فيه لين وسهولة ويسر من الله وليس فيه عسر وشدة وعنف وتلك هي رحمة الله التي تظلل هذا الإنسان وتتابع مسيرته...

والتخفيف في هذا الحكم من حيث يحفظ دماء القاتل وينتفع الأولياء من الدية المطلوبة...

ثم إن هذا الحكم - القصاص أو الدية - فيه عدل ورحمة والعدل من جهة أن للأولياء القصاص من القاتل بالقتل إذا أرادوا التشفي وأما الرحمة فمن جهة أنهم إذا قبلوا الدية انتفعوا بها.

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي بعد الصلح وقبول الديّة إذا تجاوز أولياء الدم فقتلوا القاتل سمّى الله ذلك اعتداءً وهو في الواقع كذلك، لأنه بعد الصلح سقطت كل التبعات والآثار المترتبة لأولياء الدم على القاتل، فإذا قتلوه بعد الصلح فهو اعتداء جديد يؤاخذون به في الدنيا قصاصاً وعقاباً ولهم أيضاً في الآخرة عذاب أليم لا يطيقه بشر...

وفي الحديث عن الحلبي[(١)] عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألته عن قول الله عز وجل: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فقال: هو الرجل يقبل الديّة أو يعفو أو يصالح ثم يعتدي فيقتل فله عذاب أليم كما قال الله (عز وجل) وفي الكافي «هو الرجل يقبل الدية أو يصالح ثم يجيء بعد ذلك فيمثّل أو يقتل فوعده الله عذاباً أليماً».

---

(١) عن تفسير نور الثقلين في تفسير الآية.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي الْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴿١٧٩﴾﴾.

هذا بيان للحكمة في تشريع القصاص وإنه من أجل حفظ الحياة وليس حباً بالانتقام. . .

- في القصاص حياة - لأنه عندما يعرف القاتل أنه سيُقتل قصاصاً يرتدع عن ارتكاب الجريمة وبذلك يحفظ غيره من القتل ويحفظ نفسه من القود وبهذا تستمر الحياة وتدوم. . .

وخصّ أولي الألباب لأنهم الذين يدركون سر هذا التشريع ويفكرون في حكمته ويدركون أهميته وإن كان خيراً للناس جميعاً وفائدته تعم البشر وأما قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فإن من عرف أن مصيره القتل إنْ قتل اتقى القتل ولم يرتكب هذا المحرم الفظيع. . .

فوائد

١ - إن قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ كلام في غاية الفصاحة والبلاغة، وقد أوجز العرب معناه فجاء قولهم «القتل أنفى للقتل» أو «القتل أنقى للقتل» بالفاء والقاف وقد فاق النص القرآني ما جاء به العرب بأربعة عشر وجهاً بلاغياً أذكر منها. . .

١ - قلة الحروف في النص القرآني.

٢ - الإطراد إذ في كل قصاص حياة وليس في كل قتل أنفى للقتل، كما فإن القتل ظلماً ادعى للقتل.

٣ - الطباق بين القصاص والحياة فإن القصاص تفويت للحياة فهو مقابلها.

٤ - الخلو عن التكرار.

٥ - عذوبة اللفظ وسلاسته.

٦ - النص على المطلوب وهو الحياة.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾.

اللغة

﴿كُتِبَ﴾: فرض وثبت.

﴿حَضَرَ﴾: الحضر خلاف البدو والحضارة السكون بالحضر ثم جعل ذلك اسماً لشهادة مكان أو إنسان أو غيره.

﴿تَرَكَ﴾: يقال: تركه إذا خلاّه.

﴿خَيْرًا﴾: الخير المال.

﴿الْوَصِيَّةُ﴾: جمعها وصايا وأصلها من وصَى مخففاً وتواصى النبت إذا اتصل وأرض واصية إذا اتصل نبتها والوصية هي التقدم إلى الغير بما يعمل به بعد وفاته.

﴿لِلْوَالِدَيْنِ﴾: للأب والأم.

﴿الْأَقْرَبِينَ﴾: من القُرب وهو يقابل البُعد والأقربين من يمتّ إليك برحم وصلة قرابة.

﴿ٱلْمَعْرُوفِ﴾: هو اسم لكل فعل يُعرف بالعقل أو الشرع حسنه ويطلق على العدل. . .

﴿حَقًّا﴾: لازماً واجباً.

﴿بَدَّلَهُۥ﴾: من بدل والإبدال: والتبديل، والاستبدال جعل شيء مكان آخر، ويقال للتغيير مطلقاً وإن لم يأت بالبدل وتبديل الوصية تغييرها عما هي عليها عندما كتبها صاحبها.

﴿إِثْمُهُۥ﴾: الإثم فعل ما لا يحل، الخطيئة، كل فعل يبطىء عن الثواب.

﴿خَافَ﴾: الخوف توقع مكروه عن إمارة مظنونة أو معلومة.

﴿مُّوصٍ﴾: هو الذي يعهد إلى غيره بتنفيذ بعض ما يتعلق به بعد الموت.

﴿جَنَفًا﴾: الميل في الحكم، الجور عن الحق.

﴿فَأَصْلَحَ﴾: من الصلاح وهو ضد الفساد وقوبل في القرآن تارة بالفساد وأخرى بالسيئة والصلح يختص بإزالة النفار بين الناس، ومنه يقال اصطلحوا وتصالحوا. . .

التفسير

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾.

هذا حكم تشريعي آخر يوجّه إلى المؤمنين ليعملوا بمضمونه. . إنه فرض بمقتضى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ المفهوم منه الإلزام. . إنه تشريع الوصية التي تعني التصرف بمال الشخص بعد موته بمقتضى ما ينص عليه هذا الشخص من جهة تعيين الموصى إليه وقدر الموصى به. . وهذه الوصية إنما تجب إذا ظهرت على الإنسان إمارات الموت من مرض شديد أو شيخوخة أو حكم عليه بالموت لسبب

ما أو لغير ذلك وهو المعبّر عنه في الآية ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ فإن الموت إذا حضر لا يمهل ومن هنا كان لا بد من حمل ـ حضر الموت ـ على حضور أسباب الموت، فإذا حضر الموت وجب على الإنسان أن يوصي بماله إذا كان كثيراً معتبراً له قيمة وهو المعبر عنه «بالخير» من حيث أن القليل من المال كما يقال لا يسمى خيراً. . .

وعلى كل حال فإذا كان هذا الإنسان الذي ظهرت عليه إمارات الموت يملك مالاً كثيراً فيجب عليه الوصية إلى الوالدين ـ الآباء والأمهات ـ والأقربين من الأولاد والأرحام ومن يمتّ إليه بصلة بحيث يصدق عليه مفهوم القرابة. . .

وهذه الوصية بالمال للوالدين والأقربين يجب أن تكون بالمعروف أي بالعدل بحيث توزّع الأموال بشكل عادل، فلا يُظلم أحد من المستحقين فمن كان فرداً لا يعيل إلا نفسه يجب أن تكون الوصية له أقل ممن كان يعيل نفسه وغيره وهكذا. . .

ثم أكّد سبحانه هذه الوصية بقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ أي إنها واجبة على المتقين الذين يخافون عذاب الله ويتقون عقابه. . .

ثم حذر الذين يتلاعبون بهذه الوصية ويحرّفونها عما كانت عليه وعما أراده الموصي منها، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ بدّل هذا الإيصاء وغيّره عما هو عليه بزيادة أو نقصان أو حذف أو إضافة أو غير ذلك.

﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾ بعد أن وصل إليه هذا الإيصاء وعرفه وعرف مضمونه وحقيقته وما يريد الموصي. . .

﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ أي الذنب والمعصية إنما تكون على الذي يتولى تغيير الوصية وتبديلها وهو الذي يتحمّل هذا الإثم ويبوء بهذا الذنب. . .

وليس على الموصي ذنب أو إثم بعد أن أتم الوصية بالمعروف كما أمر الله وأراد. . .

ثم زيادة في الترهيب والتخويف عقّب - سبحانه - كلامه بالوعيد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع كل كلمة تغيّر من خلالها الوصية كما يعلم التبديل والتغيير ولا يخفى عليه ذرة في السماوات والأرض فيحاسب عليها ويؤاخذ بها. . .

ثم بعد أن ذكر سبحانه عدم جواز تبديل الوصية وحرمة تغييرها عما هي عليه أشار إلى نقطة مهمّة يجوز فيها التغيير للوصية. . . إنها حالة استثنائية لا يراد بها الإضرار أو الإفساد وإنما يراد بها تصحيح هذه الوصية وإيرادها على وجهها بحيث تكون لصالح الموصي ونفعه كما تكون لصالح الموصى إليهم ونفعهم، وقد بينه سبحانه بقوله:

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾.

فمن خاف من المسلمين أو الشهود أن يكون الموصي مخطئاً في وصيته بأن تجاوز العدل فحَرَم بعض الوالدين أو الأقربين ممن لهم نصيب بحسب العدل أو ارتكب إثماً بهذه الوصية بأن أوصى لمن لا يستحق أو لمن يرتكب الحرام بهذا المال الموصى به فهذا الذي علم بحيف وصية الموصي أو إثمه فيها يجوز له أن يصلح هذه الوصية على الوجه الشرعي بالسعي في الإصلاح بين الموصي والموصى إليهم بحيث يحمله على العدل ويحملهم على قبوله ومثل هذا الإصلاح للوصية لا إثم على القائم به ولا معصية في حمل الموصي على ذلك لأنه لصالحه لما فيه من المنع عن ارتكاب ما لا يجوز من الظلم. . .

ثم إنه سبحانه عقّب ذلك بوعد للمصلح أنه سبحانه غفور للمعاصي إذا تاب أصحابها ورحيم بمن أطاعه بطريق أولى كما في مقام الإصلاح الذي هو الطاعة لله والالتزام بأمره وتحقيق مراده. . .

فوائد

١ ـ إن قوله تعالى ﴿كُتِبَ﴾ ذكرت بدون تاء مع أن ﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾ مؤنثة.

قيل في جواب ذلك أمران:

١ ـ لأنه أراد بالوصية الإيصاء.

٢ ـ لأنه فصل بين الفعل وهو جائز، كما في قولك: حضر القاضي امرأة وحضرت القاضي امرأة.

٢ ـ أجمع المفسرون على أن قوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ إن المراد بالخير هنا هو المال الكثير.

٣ ـ عندنا تصحّ الوصية للوارث وتنفذ ويجب الوفاء بها، وهذا هو مدلول الآية بالنص ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ وكذلك وردت السنة بهذا.

ـ في الحديث عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام[1] قال: سألته عن الوصية للوارث فقال: تجوز: ثم تلا هذه الآية: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

وكذلك وردت الرواية عن أبي عبد الله بل بلغ هذا الحكم حدّ القطع والتسالم على جوازه...

٤ ـ حُمل قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ على الاستحباب إجماعاً منا.

قال الشهيد الأول في كتاب (اللمعة) من كتاب (الوصايا) «تستحب الوصية لذوي القرابة وارثا أم غيره» واستدل له الشهيد الثاني بقوله: لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ لأن فيه صلة الرحم وأقل مراتبه الاستحباب.

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب الوصايا، باب ١٥، حديث ٢٥.

٥ ـ قيل إن هذه الآية منسوخة بآية الإرث وبالحديث «ألا لا وصية لوارث».

والأصل عدم النسخ وأيضاً لا منافاة بين الوصية والإرث إذ هو زيادة في الصلة ولو سُلِّم النسخ فهو رافع للوجوب لا الجواز مع أنه يمكن حمله على التخصيص بما زاد على الثلث، والتخصيص خير من النسخ كما تقرر في الأصول.

وأما الحديث فإنه خبر آحاد ولا يخصص الكتاب بخبر الآحاد وعلى تقدير صحته يخصص بما زاد عن الثلث.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾.

اللغة

﴿كُتِبَ﴾: فرض وثبت.

﴿ٱلصِّيَامُ﴾: كالصوم مصدر صام ومعناه لغة الإمساك والكف، وشرعاً إمساك عن أشياء معدودة نهاراً قربة إلى الله.

﴿مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾: معيّنات بالعدّ أو قليلات لأن القليل يسهل عدّه.

﴿مَّرِيضًا﴾: المريض جمعه مرضى، والمرض هو فساد المزاج وتغيّر الصحة بعد اعتدالها.

﴿سَفَرٍ﴾: أصل السفر الكشف ومنه اشتق السفر لأنه يكشف ما لم ينكشف في الحضر، والسفر هو الخروج عن الوطن وقد حدد بحدود معينة.

﴿عِدَّةٌ﴾: شيء معدود فإن العدة بمعنى المعدود ومنه عدة المرأة.

﴿أُخَرَ﴾: غير التي افطرها.

﴿يُطِيقُونَهُ﴾: من طاق، والطاقة هي القوة وأطاقه إذا قوي عليه، وقال الراغب: الطاقة اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله مع المشقة وشبه بالطوق المحيط بالشيء.

﴿فِدْيَةٌ﴾: يقال فدية لما يقي به الإنسان نفسه من مال يبذله في عبادة قصّر فيها، والفداء والفدى حفظ الإنسان عن النائبة بما يبذله عنه.

﴿طَعَامُ﴾: ما يتناول من الغذاء يسمى طعاماً وقالوا قد اختص بالبر - القمح - في بعض الأحاديث..

﴿مِسْكِينٍ﴾: جمعه مساكين قيل هو الذي لا شيء له وهو أبلغ من الفقير.

﴿تَطَوَّعَ﴾: من طاع إذا انقاد وتطوّع بالشيء تبرع به. والمتطوع المتنفّل الذي يأتي من الأعمال الصالحة زيادة على الفرائض والواجبات.

﴿خَيْرًا﴾: فضلاً، حصول الشيء على كمالاته.

﴿شَهْرُ﴾: الشهر جمعه للقلة أشهر وللكثرة شهور وأصله من شهر الشيء إذا أظهره وهو المدة المعينة التي تبدأ برؤية الهلال.

﴿رَمَضَانَ﴾: شهر من الأشهر العربية يقع بين شعبان وشوال وهو من الرمض أي شدة وقع الشمس والرمضاء شدة الحر وهو شهر الصوم عند المسلمين.

﴿أُنزِلَ﴾: من نزل وهو في الأصل انحطاط من علو، وإنزال الكتاب إعطاؤهم إياه..

﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾: اسم لكلام الله الذي نزل على قلب رسول الله.

﴿هُدًى﴾: الهدى: الدلالة بلطف وخصّ ما كان دلالة بأهديت وما كان إعطاء بأهديت ويتعدى بحرف وبغير حرف.

﴿بَيِّنَٰتٖ﴾: جمع بيّنة من بان الشيء يبين إذا وضح وظهر.

﴿ٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾: من فرق الشيء إذا فصله والفرقان ما يفرق بين الحق والباطل.

﴿شَهِدَ﴾: حضر.

﴿ٱلۡيُسۡرَ﴾: السهولة ومنه اليسار للغنى وهو ضد العسر.

﴿ٱلۡعُسۡرَ﴾: الصعوبة وهو ضد اليسر والأعسر الذي يعمل بشماله وأعسر الرجل إن افتقر.

﴿وَلِتُكۡمِلُواْ﴾: لتتمّوا.

﴿ٱلۡعِدَّةَ﴾: المعدود من الأيام.

﴿لِتُكَبِّرُواْ﴾: التكبير يقال لتعظيم الله تعالى بقولهم الله أكبر ولعبادته واستشعار تعظيمه..

التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾.

بهذا النداء الكريم وهذه الكلمات الندية شرّع الله هذه الفريضة ـ فريضة الصوم ـ وأوجبها على المؤمنين...

نداء من الرب العظيم إلى هذا الإنسان الضعيف... يناديه ليرفعه إلى مقام كبير.. إنه نداء إلى المؤمنين لأنهم المنتفعون به المستفيدون من مضمونه وإن كان التكليف يتوجّه إلى جميع الناس...

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ مماثلة في أصل الوجوب وإن اختلفت بعض الخصوصيات أو الكيفيات.. إنكم وجميع الأمم

تشتركون في هذه الفريضة، فلستم متفردين فيها أو مختصة بكم دون غيركم..

ثم إنه سبحانه بيّن سرّ هذا التشريع.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فمن مارس هذه الفريضة وقام بها كما ينبغي لها أدرك التقوى ووصل إلى هذه المرحلة المتقدمة من الغاية المترقبة وراء هذه العبادة...

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فإنها فريضة تهذّب النفس وتطهّرها من كل أهوائها ورواسبها التي تشدّها إلى الانحراف والمعصية...

ـ في الحديث عن محمد بن سنان عن أبي[1] الحسن الرضا عليه السلام فيما كتب إليه من جواب مسائله: علة الصوم لعرفان مس الجوع والعطش ليكون العبد ذليلاً مستكيناً مأجوراً محتسباً صابراً، ويكون ذلك دليلاً له على شدائد الآخرة مع ما فيه من الانكسار له عن الشهوات واعظاً له في العاجل دليلاً على الآجل ليعلم مبلغ شدّة ذلك من أهل الفقر والمسكنة في الدنيا والآخرة.

ـ في الحديث عن أبي جعفر[2] عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لجابر بن عبد الله الأنصاري يا جابر هذا شهر رمضان من صام نهاره وقام ورداً من ليله وعفّ بطنه وفرجه وكفّ لسانه خرج من ذنوبه كخروجه من الشهر.

فقال جابر: يا رسول الله ما أحسن هذا الحديث.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا جابر ما أشد هذه الشروط...

ـ وفي الحديث يقول الصادق عليه السلام[3]: ليس الصيام من الطعام والشراب أن لا يأكل الإنسان ولا يشرب فقط، ولكن إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك وبطنك وفرجك وأكثر السكوت إلا من خير وارفق بخادمك...

فهذه الأحاديث لو التزم بها الصائمون لحققوا الغاية من الصوم وأدركوا

(١) وسائل الشيعة، كتاب الصوم، باب ١ من أبواب وجوبه، حديث ٣.
(٢) وسائل الشيعة، كتاب الصوم، باب ١١ من أبواب آدام الصوم، حديث ٢.
(٣) وسائل الشيعة، كتاب الصوم، باب ١١ من أبواب آداب الصائم، حديث ١٠.

التقوى التي بها يتحول الصوم إلى عبادة صحيحة مثمرة تخرج عن الوظيفة وعما تعارفنا عليه خلال قيامنا بهذا الواجب..

والصوم كما يعرفه الفقهاء «هو الكف نهائياً عن المفطرات مع النية».

والمفطرات هي: الأكل، الشرب، الجماع كله، إيصال الغبار المتعدي إلى الحلق، البقاء على الجنابة ليلاً حتى يطلع الفجر، الكذب على الله ورسوله والأئمة، الاحتقان بالمائع، إنزال المني بفعل ما يؤدي إلى ذلك، تعمّد القيء، رمس تمام الرأس في الماء دفعة واحدة..

هذه هي المفطرات على خلاف في بعضها بين الفقهاء... ثم بعد أن شرّع الله وجوب الصوم كأصلٍ، بيّنه نوع تبيين فقال تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ إنها أيام محصورة معدودة أو يراد بالأيام المعدودة أي قليلة، لأن المعدود قليل وذكر سبحانه ذلك ليخفّف وقعها على الناس ولا يستوحش منها من يسمع أصل التشريع فإنه إذا عرف أنها أيام قليلة ارتاحت نفسه وعرف أنها ستنتهي بانتهاء هذه الأيام...

ومن رحمته تعالى بعباده أنه أوجب الإفطار على بعض المكلفين الذين لهم أعذار، حدّد سبحانه بعضها بقوله:

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

فإذا حضر شهر رمضان وحلّت أيامه وكان من المكلفين من هو مريض وجب عليه الإفطار ولا يصح منه الصوم وهذا نص الآية واضح لا يخرُج عنه إلا بدليل ولا دليل، وإن وجد فهو معارض بما يتفق مع الآية وهناك خلاف بين أهل السنة في صوم المريض وإفطاره وإن أجاز بعضهم ذلك لقصور في فهم الآية أو لوجود رواية مع ترك الروايات المؤيدة لمضمون الآية...

وعلى كل حال فيجب على المريض الإفطار ثم القضاء بعدد ما أفطر من الأيام وهو نص قوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي فعليه قضاء مثل ما أفطر من أيام أخر ـ بعد الصحة ـ وهذا هو مذهب أهل البيت ومدرستهم.

وقد وردت الروايات الكثيرة عنهم التي تثبت هذا الحكم وتوجبه.

ففي الحديث عن رسول الله ﷺ «أن الله (عز وجل) تصدّق على مرضى أمتي ومسافريها بالإفطار في شهر رمضان، أيحب أحدكم لو تصدّق بصدقة أن ترد عليه؟!»[1].

وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام[2] عن سماعة، قال: سألته ما حدّ المرض الذي يجب على صاحبه فيه الإفطار كما يجب عليه في السفر من كان مريضاً أو على سفر؟ قال: هو مؤتمن عليه مفوض إليه فإن وجد ضعفاً فليفطر...

وعلى كل حال فالحكم بوجوب الإفطار عند المرض مقطوع به وقد حدد الفقهاء المرض الموجب للإفطار بأحد ثلاثة أمور.

١ - إذا أوجب حدوث المرض.

٢ - إذا أوجب زيادته.

٣ - إذا أوجب البطيء في شفائه.

وأما المسافر فيجب عليه الإفطار وهذا مذهب أهل البيت وعليه بنى فقهاؤهم وشيعتهم وقد وردت فيه الأحاديث الكثيرة.

في الحديث عن عبيد بن زرارة قال[3] قلت لأبي عبد الله عليه السلام قول الله (عز وجل): ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ قال: ما أبينها من شهد فليصمه ومن سافر فلا يصمه...

وفي حديث آخر عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمّى رسول الله ﷺ قوماً صاموا حين أفطر «قصر عصاة» وقال أبو جعفر: هم العصاة إلى يوم القيامة وإنّا لنعرف أبناءهم وأبناء أبناءهم إلى يومنا هذا...

(١) وسائل الشيعة، كتاب الصوم، باب ٤ من أبواب من يصح منه الصوم، حديث ٥.

(٢) وسائل الشيعة، كتاب الصوم، باب ٢ من أبواب من يصح منه الصوم، حديث ٤.

(٣) وسائل الشيعة، كتاب الصوم، باب من أبواب من يصح منه الصوم، حديث/٨.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ وعلى الذين يستطيعون صيامه مع المشقة لشيخوخة أو ضعف إذا أفطروا عليهم فدية تقدّر بإطعام مسكين عن كل يوم وبهذا المعنى وردت الأخبار ورُويت الآثار.

في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام: «وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين». قال: الذين كانوا يطيقون الصوم فأصابهم كبر أو عطاش أو شبه ذلك فعليهم بكل يوم مد».

وفي الحديث عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ قال: الشيخ الكبير والذي يأخذه العطاش.

والمدّ كما وردت به الروايات يبلغ ثلاثة أرباع الكيلو تقريباً تُسلّم إلى المسكين فيتملكها وبعدها إن شاء أكلها وإن شاء باعها أو تصرف فيها كيف يشاء، أو أن يُدعى الفقير إلى وجبة طعام يأكل منها حتى يشبع وتكون من أوسط ما يطعم المرء به أهله. فلا يجب أن تكون لحماً وعسلاً كما لا يجوز أن تكون خلاً وملحاً...

ما اخترناه من تفسير الآية هو الذي ينسجم مع ما ورد عن الأئمة الطاهرين.

وبه ندفع ما قيل من «إن في هذه الآية قراءات وتأويلات واختلافات» وكلها نتيجة البُعد عن أهل بيت العصمة، حتى ذهب بعضهم إلى نسخها بما بعدها مع وحدة السياق والنزول وتلاحق الآيات مما يستوجب الاستهجان والغرابة...

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ فمن زاد عن المدّ في إطعام المسكين أو من زاد في إطعام أكثر من مسكين فهو خير له...

﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كلام مبتدأ يحكي خيرة الصوم بطبيعته لما فيه من المصلحة والمنفعة والفائدة إن كنتم تعلمون ذلك وتدركونه وتقفون عليه...

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

هذا بيان لما أجمل سابقاً وهو نص صريح في وجوب صوم شهر رمضان، كما أن في هذا الشهر خصوصية إنزال القرآن فيه زيادة في تأكيد تشريفه وكونه مباركاً بهذا الحديث العظيم.

ثم وصف الله القرآن بأنه هدى للناس، فهذا حاله ومن أجل هداية الناس كان إنزاله.. من أجل أن يرشدهم ويشدّهم إلى الله ويهذّب نفوسهم ويقوّم طبائعهم...

إن هذا القرآن يملك هذه الخاصية، خاصية هداية الناس بما فيه من قصص وحِكَم وترهيب وترغيب وعقيدة وتشريع ووعظ وإرشاد وما فيه من دلالات تدل الناس إلى الحق والصواب وما فيه سعادتهم وخيرهم...

كما أن فيه بيّنات من الهدى أي دلالات خاصة من الحلال والحرام والحق والباطل، فهو الفارق والفاصل لكل هدى وضلال وحق وباطل، ثم بعد هذا صدر الأمر الإلهي لكل حاضر ـ غير مسافر ـ أن يصوم شهر رمضان ـ.

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أمر فيه تشريف وتكليف لهذا العبد الضعيف أن يصوم شهر رمضان إذا كان حاضراً في وطنه ـ غير مسافر ـ.

ثم عاد سبحانه ليؤكد سقوط الصوم ووجوب الإفطار عن المريض والمسافر، فقال: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا﴾ إذا كان الصوم يحدث له المرض أو يزيده أو يبطىء شفاءه ويؤخره فهذا يجب عليه الإفطار، وتقدير ذلك للمكلف نفسه إن وجد هذه الحالة أو وقع الخوف في نفسه منها وقد تقدم ذلك سابقاً وكذلك من كان على سفر وجب عليه الإفطار، ولكن إذا أفطر المريض والمسافر ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي يجب عليهما الإفطار وبدل كل يوم يجب قضاء مثله يوماً آخر بعد ذلك عند الشفاء والصحة والاستقرار في الوطن...

ثم تطييباً لخاطر هذا الإنسان وتبياناً لفضل الله عليه وكرمه قال سبحانه ﴿يُرِيدُ

اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ إنه يريد بكم من وراء هذا التكليف أن يسهل الأمور عليكم ولا يشق في تكاليفه على عباده...

﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ أي ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ التي هي قضاء الأيام التي أفطرها لعلة المرض أو السفر إنما كانت من أجل إتمام الشهر وإكماله، وليأت بعدد أيامه سواء كانت تسعاً وعشرين أم ثلاثين...

فمن كان مريضاً أو على سفر وأفطر لوجوب ذلك عليه، وجب عليه أن يقضي ما فات بعدد ما فات، وبذلك يكمل شهر رمضان ملفّقاً بعضه أداء وبعضه قضاءاً أو يأتي الشهر بذلك كاملاً بعدد أيامه وبدون نقص...

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ فمقابل هذه الهداية العظيمة من الله لكم وما أرشدكم إليه وبيّنه من الدلالات الكريمة فإنه يستحق التعظيم والتبجيل المتمثل برفع الصوت بعظمة الله وعلّوه وجلاله.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولكي تشكروه على هذا الإحسان والفضل والهداية، وهذا حق النعم وأداء شكر المنعم بها...

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿سَأَلَكَ﴾: استدعاء معرفة أو ما يؤدي إلى المعرفة واستدعاء مال أو ما يؤدي إلى المال.

﴿قَرِيبٌ﴾: ضده البعيد ويستعمل القرب في المكان وفي الزمان وفي النسبة وفي الحظوة والرعاية ومن هذا الأخير قُرْب الله منا.

﴿أُجِيبُ﴾: من الجوب وهو القطع ومنه جاب البلاد إذا قطعها ويقال: في مقابل السؤال، وخُصّ بما يعود من الكلام دون المبتدأ من الخطاب.

﴿الدَّاعِ﴾: كالنداء إلا أن النداء قد يقال بيا أو أيا من غير أن يضم إليه الاسم، والدعاء: لا يكاد يقال إلا إذا كان معه الاسم، ودعوته إذا سألته.

﴿يَرْشُدُونَ﴾: من رشد والرّشد والرُشْد خلاف الغي، والاستقامة على طريق الحق.

التفسير

سبب النزول

روي في سبب نزول هذه الآية أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فنزلت الآية...

وقيل إنها ذكرت هنا لأنه سبحانه لما أمر المؤمنين بصوم شهر رمضان ومراعاة العدة وحثهم على التكبير والشكر عقبه بذكر هذه الآية الدالة على كمال علمه بهم وبما يفعلون وأنه يقبل منهم الدعاء ويستجيب لهم...

وعلى كل حال فمضمونها يعيش في قلوب المؤمنين يدركون حقيقتها ويعيشون عمقها ويعلمون أن الله قريب من كل واحد منهم... إنه قرب معنوي، يتجسد في علمه بأقوالهم وأفعالهم وإحاطته بكل حركة يقوم بها هذا الإنسان، أو إشارة يرسلها أو يستقبلها...

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ بما تحمل كلمة ﴿عِبَادِى﴾ من التزام بأوامره وخضوع لجلاله وتطبيق لكل حركة أرادها منا...

كلمة ﴿عِبَادِى﴾ التي تعني تخلّص هذا الإنسان من كل الشهوات والميول والرغبات ومن الأنانية والذاتية إلى العيش مع الله في إخلاص وصفاء واطمئنان...

﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ وبعد استحالة القرب المادي عليه سبحانه فلا بد وأن يكون قربه منا من جهة علمه بنا ومعرفته بكل حركاتنا وسكناتنا، فهو قريب منا بل هو أقرب إلينا من حبل الوريد تدليلاً على معرفته بنا أكثر منا بأنفسنا، ويفسّر هذا ويرشد إليه قوله بعد ذلك.

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

فالله سبحانه أخذ على نفسه في هذه الآية أن يلبي دعوة من دعاه ويحقق مضمون ما سأل هذا العبد وأحب، ولكن شرط أن يكون الدعاء من القلب

العارف بالله الذي استشعر ضعفه وحاجته إلى الله فراح في عمق طيّاته يصرخ بلسان الحال والمقال معرباً عن تحقيق مراده ممن يملك ذلك ملكاً حقيقياً ألا وهو الله!..

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾. التزام إلٰهي يتحقق مضمونه متى كان الداعي صادقاً في دعواه ولا يتحقق ذلك إلا بالإطاعة الكاملة لله في كل ما أنزل من عقائد وشرائع وأحكام وأخلاق وأدب ونظم وتعليمات، بحيث يتحول هذا العبد إلى صورة متحركة عما أراد الله وأحب.. ثم أمرهم: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى﴾ في كل أمر أمرتهم به من الطاعات والعبادات... ليستجيبوا لله في ترك كل ما نهى عنه وحظّره عليهم ومنعهم من ممارسته.

﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِى﴾ قيل إنه أمر بالثبات والمداومة على الإيمان به تعالى، ويمكن أن يكون دعوة إلى معرفته كما هو حقه من نفي التجسيم عنه والشرك به ونفي كل ما لا يليق به...

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ لعلهم بذلك يدركون الصواب ويصيبون الحق وهم بدون شك سيدركون ذلك إن جاهدوا وأخلصوا في نياتهم وعقائدهم وأعمالهم وما يقومون به...

بحث في الدعاء

كتبت في كتابي - الأربعون حديثاً[1] - ما نصّه:

الدعاء وقفة أمام الله واتصال به بدون وسائط، إنه المناجاة التي يلتقي فيها الإنسان مع الله فيبثه شجونه وشؤونه ويشرح واقعه ويسأله العون..

(١) الأربعون حديثاً المختارة من السنّة للمؤلف، ط دار المرتضى.

الدعاء

الدعاء.. نشيد العارفين ولذة العابدين وقرة عين المتقين، به يسبح الإنسان في روحانية ملائكية تعيد له الاتصال بالله كلما انقطعت الصلة وتقويها كلما وهنت أو ضعفت...

من خلال الدعاء يتصل الإنسان.. الضعيف الصغير.. بالله الكبير القوي فاطر السماوات والأرضين فيرتفع الإنسان ويكبر ويعلو.. وكلما ازداد الاتصال وتقوّى كلما شعر الإنسان بلذة الدعاء وطيب المناجاة وتحرر من قيود الطغاة وأصحاب الجاه والسلطان...

في جنح الظلام.. وفي وضح النهار.. في الأزمات الشديدة والمحن العصيبة.. في أيام الرخاء والنعم وفي السرّاء والسقم.. عندما تضيق الدنيا في عيني الإنسان.. وعندما تأتي إليه مستسلمة.. في أثناء ذلك كله يتوجه الإنسان إلى الله بالدعاء فتنفتح الدنيا أمام عينيه ويتبدد الظلام وتزول المحن وتستمر أيام الرخاء والنعم..

من يملك الدعاء والتوجه إلى الله، يملك كنزاً لا يقدّر بثمن.. إنه أعظم رصيد يواجه به الحياة، حيث يتخطى به الأزمات ويتغلب على متاعب الحياة ومصاعبها.. إنه رصيد أهل الإيمان والتقى في كل أحوالهم ورصيد غيرهم في أوقات الأزمات قهراً عنهم حيث لا يجدون إلاّ الله يتوجهون إليه لكشف الضر عنهم والبلاء...

والاتصال بالله.. عبر الدعاء ـ وإن لم يكن بحاجة إلى شفيع أو وسيط من البشر ـ حيث يستطيع كل شخص الاتصال مباشرة ـ ولكنه بحاجة إلى أن يستجمع شروط الدعاء حتى يتم له ما أراد..

ونحن سنستعرض بعض ما يتعلق بموضوع الدعاء مما له أهمية في استجابته...

الدعاء في الكتاب والسنة

أكّد القرآن والسنّة على الدعاء، وهو مظهر من مظاهر العظمة في الإسلام حيث يتصل هذا الإنسان بالله ويلتقي معه في كل حين، فليس الله بعيداً عنه ولا جافياً له ولا مستصغراً لقدره وقيمته بل إنه سبحانه لعنايته بهذا الإنسان وتقديره له يفتح الطريق إليه للوصول إلى رحاب ملكوته بل يدعوه إلى أن يدعو، وقد ورد في الكتاب الحث على ذلك.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُرْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾..

وأما السنة فالأخبار فيها كثيرة نذكر بعض الروايات منها:

١ ـ قال أمير المؤمنين عليه السلام: أحبّ الأعمال إلى الله في الأرض الدعاء وأفضل العبادة العفاف.

٢ ـ عن الصادق عليه السلام قال: ما من شيء أفضل عند الله (عزّ وجلّ) من أن يُسأل ويُطلب مما عنده، وما أحد أبغض إلى الله (عزّ وجلّ) ممن يستكبر عن عبادته ولا يسأله ما عنده.

٣ ـ عن النبي صلى الله عليه وآله قال: أفضل العبادات الدعاء وإذ أذن الله للعبد في الدعاء فتح له باب الرحمة، إنه لن يهلك مع الدعاء أحداً.

---

(١) الفرقان/ ٧٧.
(٢) غافر/ ٦٠.

لماذا لا يستجاب لنا؟

من المعلوم أنه سبحانه يقول: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ ونقول لماذا ندعو ويدعو الناس ولا نجد الاستجابة؟.. كثيرون منّا بل كلنا نتوجّه إلى الله ونطلب أمراً بل أموراً ولم يتحقق منها شيء.

لماذا لم يستجب لنا دعاءنا ولم تتحقق آمالنا؟!.

قلنا في الجواب: إن عدم الاستجابة إنما كانت لفقدان شرائط الدعاء، فإن من لم يستجمع شرائطه ويدفع موانعه ويحقق كل ما هو مطلوب فيه لا يتحقق مضمون دعائه، وفي حديث الصادق عليه السلام دلالة على ذلك يسأله بعضهم: آيتين في كتاب الله أطلبهما ولا أجدهما قال عليه السلام: وما هما؟

يقول الراوي ـ قول الله عزّ وجل: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾. فندعوه فلا نرى إجابة.

قال عليه السلام: أفترى الله أخلف وعده؟

قلت ـ الراوي ـ: لا.

قال: فلم ذلك؟

قلت ـ الراوي ـ: لا أدري.

فقال عليه السلام: ولكني أخبرك، من أطاع الله فيما أمره ثم دعاه من جهة الدعاء أجابه.

قال ـ الراوي ـ: وما جهة الدعاء؟

قال عليه السلام: تبدأ فتحمد الله وتذكر نعمه عندك ثم تشكره ثم تصلي على النبي وآله ثم تذكر ذنوبك فتقرُّ بها ثم تستغفر منها فهذه جهة الدعاء..

فالإخلال بأوامر الله مانع من الاستجابة، كما أن الإخلال في شرائط الدعاء مانع.

وربما كان السبب في عدم الاستجابة أنه طلب ما لا صلاح له فيه أو يكون فيه مفسدة له ولغيره من عامة الناس والعبد لقصوره وعدم اطلاعه على سائر حيثيات الأمور وخلفياتها ربما طلب أمراً يكون فيه مضرّته أو مضرّة الخلق والله وحده العالم بالأمور والمحيط بها من جميع جوانبها.

الآداب المقارنة للدعاء

حالة الدعاء وفي أثنائه ينبغي أن يكون الداعي مستجمعاً لبعض الآداب ونحن نختصرها من كتاب (عدّة الداعي) وهي:

١ ـ التلبث بالدعاء وترك الاستعجال فيه.

عن الصادق عليه السلام قال: إن العبد إذا دعا لم يزل الله تعالى في حاجته ما لم يستعجل.

٢ ـ الإلحاح في الدعاء:

عن الصادق عليه السلام قال: إن الله كره إلحاح الناس بعضهم على بعض في المسألة وأحب ذلك لنفسه، إن الله يحب أن يُسأل ويطلب ما عنده.

٣ ـ تسمية الحاجة أي أن يذكر حاجته:

عن الصادق عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى يعلم ما يريد العبد إذا دعا ولكنه يحب أن يبث إليه الحوائج.

٤ ـ الإسرار بالدعاء لبعده عن الرياء لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

عن الرضا عليه السلام قال: دعوة العبد سراً دعوة واحدة تعدل سبعين دعوة علانية.

٥ ـ التعميم في الدعاء بأن يشمل معه غيره فيكون بصيغة الجمع، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا دعا أحدكم فليعمم فإنه أوجب للدعاء.

٦ ـ الاجتماع في الدعاء بأن يجتمع المؤمنون ويدعوا كلهم:

قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [الكهف:٢٨].

عن الصادق عليه السلام قال: ما اجتمع أربعة قط على أمر فدعوا الله تعالى إلا تفرقوا عن إجابة.

٧ ـ إظهار الخشوع، قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

٨ ـ تقديم المدحة لله والثناء عليه قبل المسألة:

عن الصادق عليه السلام قال: إياكم إذا أراد أن يسأل أحدكم ربه شيئاً من حوائج الدنيا حتى يبدأ بالثناء على الله (عزّ وجلّ) والمدحة له والصلاة على النبي وآله، ثم يسأل الله حوائجه.

٩ ـ تقديم الصلاة على النبي وآله عليهم السلام.

١٠ ـ البكاء حال الدعاء وهو سيد الآداب وذروة سنامها، وذلك لدلالته على رقة القلب الذي هو دليل الإخلاص الذي عنده تحصل الإجابة.

قال الصادق عليه السلام: إذا اقشعرّ جلدك ودمعت عيناك ووجل قلبك فدونك دونك فقد قصد قصدك.

١١ ـ الاعتراف بالذنب قبل السؤال لما فيه من الانقطاع إلى الله سبحانه...

روي أن عابداً عبد الله سبعين عاماً صائماً نهاره قائماً ليله فطلب إلى الله حاجة فلم تقض، فأقبل على نفسه وقال: من قَبلِك أُتيت لو كان عندك خير قضيت حاجتك. فأنزل الله إليه ملكاً فقال له: يا بن آدم إن ساعتك التي أزريت فيها على نفسك خير من عبادتك التي مضت.

١٢ ـ الإقبال بالقلب، لأن من لا يقبل عليك لا يستحق إقبالك عليه وهذا لب الأمر وسنامه وأعلى مراتبه أن يتوجه الداعي بقلبه إلى الله.

عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: لا يقبل الله دعاء قلب ساهٍ؛ وعن الصادق عليه السلام قال: إذا دعوت الله فأقبل بقلبك.

١٣ ـ التقديم في الدعاء قبل الحاجة:

قال الصادق عليه السلام: إن الدعاء في الرخاء ليستخرج الحوائج في البلاء.

١٤ ـ الدعاء للأخوان والتماسه منهم:

عن الصادق عليه السلام قال: من قدّم أربعين مؤمناً ثم دعا استجيب له.

وعن الباقر عليه السلام: أسرع الدعاء نجاحاً للإجابة دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب وإذا بدأ بالدعاء لأخيه فيقول له ملك موكل به آمين ولك مثلاه.

٥ ـ أن لا يسأل محرماً، فمن سأل الله أن يوفقه للسرقة مردود دعاؤه غير مقبول.

١٦ ـ أن لا يتضمن الدعاء قلة الحياء وإساءة الأدب كأن يطلب من الله منزلة أعلى من منازل الأنبياء، قال أمير المؤمنين عليه السلام: يا صاحب الدعاء لا تسأل ما لا يكون وما لا يحل.

ومن الآداب تنظيف البطن بالصوم والجوع وتجديد التوبة.

١٧ ـ حسن الظن بالله وأنه سوف يستجيب دعاء الداعي، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة..

الآداب المتأخرة عن الدعاء

١ ـ معاودة الدعاء بعد الإجابة وعدمها، أما مع الإجابة فلأن ترك الدعاء جفاء فينبغي تكرار الدعاء، وأما مع عدم الإجابة فلأنه ربما كان لتأخير لأن الله يحب صوته والإكثار من دعائه.

يقول الرضا عليه السلام لأحمد بن أبي نصر: (يا أحمد إياك والشيطان أن يكون له

عليك سبيلاً حتى يقنطك. إن أبا جعفر عليه السلام كان يقول: إن المؤمن ليسأل الله حاجة فيؤخر عنه تعجيل إجابته حباً لصوته واستماعاً لنجيبه ثم قال: والله ما أخّر الله عن المؤمنين ما يطلبون في هذه الدنيا شيئاً إلاّ خيراً خير لهم مما عجل لهم فيها، وأي شيء في الدنيا!).

٢ ـ أن يمسح الداعي بيديه وجهه.

عن الصادق عليه السلام قال: ما أبرز عبد يده إلى الله العزيز الجبار إلاّ استحى الله (عزّ وجلّ) أن يردها صفراً فإذا دعا أحدكم فلا يرد يده حتى يمسح على وجهه ورأسه.

٣ ـ أن يختم دعاءه بالصلاة على النبي وآله.

عن الصادق عليه السلام قال: من كان له إلى الله حاجة فليبدأ بالصلاة على محمد وآله، ثم يسأل حاجته، ثم يختم بالصلاة على محمد وآله، فإن الله (عزّ وجلّ) أكرم من أن يقبل الطرفين ويدع الوسط، إذ كانت الصلاة على محمد وآله لا تحجب عنه.

٤ ـ أن يعقب دعاءه بما روي عن الصادق عليه السلام: إذا دعا الرجل فقال بعدما يدعو (ما شاء الله لا قوة إلاّ بالله العلي العظيم) قال الله استبتل عبدي واستسلم لأمري اقضوا حاجته.

٥ ـ أن يكون الداعي بعد الدعاء خيراً من ذي قبل فإن الذنوب الواقعة بعده ربما منعت من استجابة الدعاء، وأعوذ بك من الذنوب التي ترد الدعاء، وأعوذ بك من الذنوب التي تحبس الدعاء.

من لا يستجاب دعاؤه

هناك تعساء في المجتمع لا يستجاب دعاؤهم، إنهم أناس قطعوا العلاقة بينهم وبين الله وأصروا على معصيته ومخالفة أمره، أو أنهم لم يحققوا ما أراد منهم فراحوا يدعون بدون إجابة..

- أربعة يجمعهم حديث واحد عن الصادق عليه السلام قال: أربعة لا يستجاب لهم دعوة:

رجل جالس في بيته يقول: اللهم ارزقني، فيقال له: ألم آمرك في الطلب؟

ورجل كانت له امرأة فاجرة فدعا عليها، فيقال له: ألم أجعل أمرها إليك؟

ورجل كان له مال فأفسده، فيقول: اللهم ارزقني، فيقال له: ألم آمرك بالإصلاح [بالاقتصاد] ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

ورجل كان له مال فأدانه رجلاً ولم يشهد عليه فجحده.

فيقال له: ألم آمرك بالإشهاد.

- لا يستجاب لمن دعا بقلب قاس أو لاهٍ.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله لا يستجب دعاء بظهر قلب ساهٍ، فإذا دعوت فاقبل بقلبك ثم استيقن الإجابة.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله (عزّ وجلّ) لا يستجيب دعاء بظهر قلب قاس ومن لم يتقدم في الدعاء لم يسمع منه إذا نزل به البلاء.

- لا يستجاب لمن هو مصرٌّ على المعاصي.

عن الصادق عليه السلام قال: كان رجل من بني إسرائيل يدعو الله تعالى أن يرزقه غلاماً ثلاث سنين فلما رأى أن الله لا يجيبه.

قال: يا رب أبعيد أنا منك فلا تسمعني أم قريب فلا تجيبني؟

فأتاه آت في منامه، قال: إنك تدعو الله منذ ثلاث سنين بلسان بذيء، وقلب عات غير نقي، ونية غير صافية، فاقلع عن بذائك وليتق الله قلبك ولتحسن نيتك، ففعل الرجل ذلك عاماً فولد له غلام.

- ولا يستجاب دعاء مع أكل الحرام.

وأكل الحرام معصية مانعة عن إجابة الدعاء.

ـ عن رسول الله ﷺ: من أحب أن يستجاب دعاؤه فليطيب مطعمه وكسبه.

ـ وقال (صلوات الله عليه) لمن قال له: أحب أن يستجاب دعائي قال له: طهّر مأكلك ولا تدخل بطنك الحرام.

والمتحمل لمظالم العباد وتبعات المخلوقين مردود الدعاء.

فإن الظالم للعباد لا يستجاب له دعوة كيف والمظلوم يدعو عليه.

عن النبي ﷺ قال: أوحى الله إليّ أن يا أخا المرسلين ويا أخا المنذرين انذر قومك لا يدخلوا بيتاً من بيوتي ولأحد من عبادي عند أحد منهم مظلمة فإني ألعنه ما دام قائماً يصلي بين يدي حتى يرد المظلمة.

المستجاب دعاؤهم

١ ـ الصائم مستجاب الدعاء، بذلك وردت الأخبار.

ـ في خطبة النبي ﷺ التي خطبها في آخر جمعة من شعبان يقول: هو شهر دعيتم فيه ـ في شهر رمضان ـ إلى ضيافة الله وجعلتم فيه من أهل كرامة الله، أنفاسكم فيه تسبيح ونومكم فيه عبادة وعملكم فيه مقبول ودعاؤكم فيه مستجاب...

ـ وفي حديث: دعوة الصائم تستجاب عند إفطاره.

ـ عن الصادق عليه السلام قال: نوم الصائم عبادة وصمته تسبيح وعمله متقبل ودعاؤه مستجاب.

٢ ـ المريض مستجاب الدعاء.

وقد يكون من باب أن المرض يُطهّر النفس ويرد المريض إلى الله وخصوصاً في المؤمن الصالح، حيث تصفو نفسه وتنقطع علائقه إلاّ بالله سبحانه وتعالى.

- عن الصادق عليه السلام قال: إذا دخل أحدكم على أخيه عائداً له فليسأله يدعو له، فإن دعاءه مثل دعاء الملائكة.

- يقول الصادق عليه السلام: ثلاثة دعوتهم مستجابة، الحاج، والغازي والمريض فلا تغيظوه ولا تضجروه.

- عاد رسول الله صلى الله عليه وآله سلمان في علّته فقال: يا سلمان إن لك في علّتك ثلاث خصال: أنت من الله (عزّ وجل) بذكر، ودعاؤك فيه مستجاب، ولا تدع العلة عليك ذنباً إلاّ حطته، متّعك الله بالعافية إلى انقضاء أجلك..

٣ - الغازي في سبيل الله مستجاب الدعاء:

عن الصادق عليه السلام: ثلاثة دعوتهم مستجابة: أحدهم الغازي في سبيل الله فانظروا كيف تخلفونه.

٤ - الحاج والمعتمر يستجاب دعاؤهما:

يقول رسول الله في خطبة له: ومن خرج حاجاً أو معتمراً فله بكل خطوة إلى أن يقول... وإن رجع رجع مغفوراً له، مستجاباً له فاغتنموا دعوته فإن الله لا يرد دعاءه.

وعن الصادق عليه السلام يقول: الحاج والمعتمر وفد الله، إن سألوه أعطاهم وإن دعوه أجابهم..

٥ - دعاء الأخ لأخيه مستجاب:

- عن الصادق عليه السلام قال: من دعا لأخيه بظهر الغيب وكّل الله به ملكاً يقول: ولك مثلاه.

- وعن موسى بن جعفر عليهما السلام قال: من دعا لأخيه بظهر الغيب نودي من العرش ولك مئة ألف ضعف مثله.

٦ ـ الدعاء بعرفة مستجاب:

ـ عن الباقر عليه السلام قال: ما يقف على تلك الجبال ـ عرفة ـ بر ولا فاجر إلاّ استجاب الله له، فأما البر فيستجاب له في آخرته ودنياه وأما الفاجر فيستجاب له في دنياه.

٧ ـ دعوة المظلوم مستجابة:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إياكم ودعوة المظلوم فإنها ترفع فوق السحاب حتى ينظر الله (عزّ وجلّ) إليها، فيقول: ارفعوها حتى أستجيب له...

وعن الصادق عليه السلام قال: كان أبي يقول: اتقوا الظلم فإن دعوة المظلوم تصعد إلى السماء.

٨ ـ دعوة الوالد لولده والعكس:

في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: إياكم ودعوة المظلوم.. إلى أن يقول: إياكم ودعوة الوالد فإنها أحد من السيف.

وهو أحد الأربعة الذين لا ترد لهم دعوة حتى تفتح لهم أبواب السماء وتصير إلى العرش.

٩ ـ الإمام المقسط (العادل):

عن الباقر عليه السلام قال: خمس دعوات لا تحجبن عن الرب تبارك وتعالى: دعوة الإمام المقسط.. وعد الباقي..

١٠ ـ المتقدم بدعائه يستجاب له:

عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: تقدموا في الدعاء فإن العبد إذا دعا فنزل به البلاء فدعا قيل: صوت معروف، فإذا لم يكن دعا فنزل به البلاء قيل: أين كنت قبل اليوم؟..

الأوقات التي يرجى فيها الإستجابة

هناك أوقات شريفة لها ميزة على غيرها يستحب للمؤمن أن يغتنمها للدعاء.

عند هبوب الرياح، عند زوال الشمس، عند منتصف النهار، عند نزول المطر، بعد الفجر، عند التقاء الصفين للشهادة، عند السحر، عند قراءة القرآن.

وكذلك هناك حالات تعتري المؤمن إذا أتته فليغتنمها ويدعو.

في الحديث عن الصادق عليه السلام قال: إذا رقّ أحدكم فليدع فإن القلب لا يرق حتى يخلص.

وفي حديث آخر: إذا اقشعر جلدك ودمعت عيناك فدونك دونك فقد قصد قصدك.

سؤال وجواب

إن قلت إن الله لا يفعل خلاف المصلحة فإن كانت المصلحة في وقوع الفعل وقع وإن لم تدع، وإن كانت المصلحة في عدم وقوعه لم يقع وإن دعوت بوقوعه.

وجوابه كما أجاب صاحب كتاب (عدة الداعي) من وجوه:

أولاً: لا يمتنع أن يكون وقوع ما سأله إنما صار مصلحة بعد الدعاء.. وقد نبه على ذلك الصادق عليه السلام حيث قال لأحد أصحابه: يا ميسر ادعُ الله ولا تقلْ: إن الأمر قد فرغ منه، إن عند الله منزلة لا تنال إلاّ بمسألة، ولو أن عبداً سدّ فاهه ولم يسأل، فلن يعطى شيئاً، فاسأل تعطى يا ميسر إنه ليس يقرع باب إلاّ ويوشك أن يفتح لصاحبه.

وثانياً: إن الدعاء بنفسه عبادة وهو أمر مطلوب.

عن النبي ﷺ: الدعاء مخ العبادة.

وثالثاً: أنه إذا كانت المصلحة معجلة عجّل فيها وإن كان في تأخيره أخرت الإجابة، وعلى الحالتين يؤجر الداعي.

ورابعاً: ربما أخرت الإجابة لزيادة صلاح الداعي وعظيم منزلته عند الله.

وإذا أجيبت دعوتك

وإذا أجيبت دعوتك وقضي مقصودك فلا تغرّك نفسك وتتعاظم على الناس، أو تكبر في ذاتك وترى أن لك وجوداً مستقلاً فكما تحتمل أن إجابته سبحانه لك لكرامتك عنده وقربك منه. ينبغي أن تحتمل أيضاً أن إجابته ليقطع صوتك ويمنعك عن وصاله لسوء فعلك وعملك وفي مثل ذلك تكون المصيبة عليك عظيمة، فمن هنا ينبغي عليك أن تدوم على الدعاء وتستمر على التضرع إليه حتى لو قضيت حاجتك ونجحت في طلبتك وبهذا وردت الأحاديث عن المعصومين عليهم السلام..

مع الحديث

وأخيراً مع الحديث الشريف الذي نحن بصدده ففيه عدة أمور:

١ ـ إن الله وحده هو المقصود، إليه يُلجأ في الملمات والمهمات وفي كل حاجة من حوائج الدنيا والآخرة.

٢ ـ لا بد من الضراعة إليه والخشوع أمامه والوقوف ببابه.

٣ ـ الدعاء مخ العبادة ولبها ولا خير في عبادة منقطعة عن الدعاء.

٤ ـ إن الله يستجيب للمؤمن لا محالة..

قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

اللغة

﴿أُحِلَّ﴾: أحِلّ الشيء: جعله حلالاً، وهو ضد الحرام، ما جاز فعله.

﴿الرَّفَثُ﴾: كلام متضمّن لما يستقبح ذكره من ذكر الجماع ودواعيه، وجُعل كناية عن الجماع في الآية المباركة.

﴿النِّسَآءِ﴾: النسوة جمع امرأة من غير لفظها.

﴿لِبَاسٌ﴾: هو الثوب الذي يستتر به، وهنا كناية عن أن كلاً من الزوج والزوجة يمنع الآخر عن القبيح ويصدّه عن تعاطيه.

﴿تَخْتَانُونَ﴾: من الخيانة، وهي ضد الأمانة وتختانون أنفسكم أي تخونونها ولا تمتنعون عن وطء النساء المحرم عليكم في ليالي رمضان، وتعبير تختانون فيه زيادة وشدة في الخيانة.

﴿تَابَ﴾: رجع، وتوبة العبد: رجوعه عن المعصية وإقلاعه عنها، وتوبة الله: قبول التوبة عن العبد.

﴿عَفَا﴾: والعفو هو التجافي عن الذنب.

﴿بَٰشِرُوهُنَّ﴾: من المباشرة وهي إلصاق البشرة بالبشرة، وهي ظاهر الجلد، وكنى بالمباشرة عن الجماع.

﴿ٱبْتَغُوا۟﴾: اطلبوا.

﴿كَتَبَ﴾: فرض وثبت.

﴿يَتَبَيَّنَ﴾: يظهر ويتضح.

﴿ٱلْخَيْطُ﴾: السلك، جمعه خيوط، والخيط الأبيض بياض الصبح فجراً وهو على التشبيه بالخيط لدقته.

﴿ٱلْأَبْيَضُ﴾: ضد الأسود في الألوان والمقصود هنا ظهور النهار.

﴿ٱلْأَسْوَدِ﴾: اللون المضاد للبياض وهو ظلام الليل.

﴿ٱلْفَجْرِ﴾: أصل الفجر: شقُ الشيء شقاً واسعاً، وقد قيل للصبح فجر لكونه فجر الليل، والفجور: شق ستر الديانة.

﴿أَتِمُّوا۟﴾: أكملوا.

﴿عَٰكِفُونَ﴾: من عكف، والعكوف: الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له، وعكفته على كذا إذا حبسته عليه.

﴿حُدُودُ﴾: جمع حدّ وهو الحاجز بين الشيئين الذي يمنع اختلاطهما، وحدّ الدار ما تتميز به عن غيرها، وسمي حد الزنا والخمر به لكونه مانعاً لمتعاطيه عن معاودة مثله ومانعاً لغيره أن يسلك مسلكه.

التفسير

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ هذه الآية تحمل تحليل الجماع وإتيان الرجل زوجته في الليلة التي يكون صبيحتها صائماً الذي يفهم من هذا التحليل أنه كان محظوراً على المسلمين وممنوعاً من ممارسته عليهم وسبب النزول يكشف هذا المعنى ويحكيه.

ففي تفسير علي بن إبراهيم قال الصادق عليه السلام: كان النكاح والأكل محرمان في شهر رمضان بالليل بعد النوم، يعني كل من صلى العشاء ونام ولم يفطر ثم انتبه حرم عليه الإفطار وكان النكاح حراماً بالليل والنهار في شهر رمضان وكان رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يقال له خوات بن جبير أخو عبد الله بن جبير الذي كان رسول الله صلى الله عليه وآله وكّله بمهامّ الشعب يوم أحد في خمسين من الرماة ففارقه أصحابه بقي في اثني عشر رجلاً فقُتل على باب الشعب وكان أخوه هذا خوات بن جبير شيخاً كبيراً ضعيفاً وكان صائماً فأبطأت عليه أهله بالطعام فنام قبل أن يفطر فلما انتبه قال لأهله: قد حرم عليّ الأكل في هذه الليلة فلما أصبح حفر الخندق فأغمي عليه فرآه رسول الله صلى الله عليه وآله فرقّ له وكان قوم من الشبان ينكحون بالليل سراً في شهر رمضان فأنزل الله ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ . . . الآية، فأحل الله تبارك وتعالى النكاح بالليل في شهر رمضان والأكل بعد النوم إلى طلوع الفجر . . .

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ هذا سبب للحل وجواز الجماع في ليالي شهر رمضان وذلك أن المرأة والرجل لكثرة مخالطتهما لبعضهما، فلا يمكن أن يصبر كل منهما عن الآخر أو يجتنبه، بل نفسه تتوق إليها وتشتاق، وكذلك الأمر بالنسبة إليها وفي ذلك صعوبة ومشقة فحلّ لأجل ذلك أن يأخذ كل منهما لذته من الآخر . . .

وما أجمل هذه المقابلة ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ فكما أن الرجل يستر

عورة المرأة ويحفظها من الانحراف والسقوط في الانحراف والرذيلة، كذلك هي لها نفس الدور بالنسبة إليه تحفظه من الوقوع في الانحراف والرذيلة...

والتعبير باللباس تدليلاً على أن كلاً من المرأة والرجل فضلاً عن أنه يحصّن الآخر من الوقوع في الرذيلة والانحراف فهو ساتر له ويتجمّل به ويراه زينة له ومدعاة ظهور كريم...

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾.

هذا بيان لحالهم السابق على الحلّ وكيف كانوا يمارسون النكاح سراً في الليل المحرم فيه الجماع وكيف لم يحفظوا أمانة التكليف الإلهي بهذه المخالفة التي تعود إلى الضرر عليهم وإلحاق الأذى بهم، لأن كل معصية يعود مردودها السيء على نفس مرتكبها...

ثم بيّن سبحانه أنه قبل توبتهم لأنها صادقة ولم يكن الذنب منهم إلا عن زلة حصلت وشهوة دفعت ونزوة طرأت، ثم أيضاً زيادة في المنّة عليهم ﴿عَفَا عَنكُمْ﴾ أي محى الأثر وكل أثر حاصل من تلك المعصية وذلك البعد عن الله الذي حصل في ساعة ضعف انتابتهم وأصابتهم...

﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآن بعد التحليل باشروهن أي جامعوهن. ولفظه لفظة الأمر ويراد به الإباحة، لأنه جاء بعد الحرمة والحظر. والأمر بعدهما يحمل على الإباحة، كما هو عند الأصوليين... ﴿وَابْتَغُوا﴾ اطلبوا هذا المباح الذي كتبه الله لكم وأباحه في كتابه...

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾. وهذا أيضاً أمر يراد به الإباحة لأنه وقع بعد الحظر والمنع، وقد أباح الله الأكل والشرب في ليالي شهر رمضان وحدّد حدود نهايته بظهور الفجر الصادق حيث تتضح معالم النهار عن الليل فعندما يختفي ظلام الليل وتظهر تباشير الصباح عندها يُمنع الأكل والشرب ويبتدأ الصوم ويستمر إلى أن يهبط الليل مساءً بظلامه، عندها تنتهي مدة الصوم...

إذن من طلوع الفجر المعبر عنه ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ أي يظهر ويتضح ﴿لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ﴾ الذي هو أوان طلوع الفجر الكاشف ببياضه عن النهار ﴿مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ الذي هو الليل فإذا ولّى الليل حرم الأكل والشرب...

﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ يجب إكمال الصيام من الفجر إلى الليل أي إلى دخوله فإذا دخل حلّ ما كان محرماً...

وقد وردت الأحاديث أيضاً تحدّد مبدأ نهار الصوم ومنتهاه.

ففي الحديث الصحيح عن الحلبي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الخيط الأبيض من الخيط الأسود فقال: بياض النهار من سواد الليل قال: وكان بلال يؤذن للنبي صلى الله عليه وآله وابن أم مكتوم وكان أعمى يؤذن بليل ويؤذن بلال حين يطلع الفجر فقال النبي صلى الله عليه وآله: إذا سمعتم صوت بلال فدعوا الطعام والشراب فقد أصبحتم...

وفي الحديث عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله[1] عليه السلام، متى يحرم الطعام والشراب على الصائم ويحل الصلاة ـ صلاة الفجر ـ؟.

فقال: إذا اعترض الفجر وكان كالقبطية البيضاء فثمّ يحرم الطعام ويحل الصيام وتحل الصلاة صلاة الفجر.

وأما انتهاء وقت الصوم فهو إلى دخول الليل المتحقق بغياب قرص الشمس عن الرؤية، وقد بينته الأحاديث بغياب الحمرة المشرقية الكاشفة عن غياب قرص الشمس.

ففي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال[2]: وقت سقوط القرص ووجوب الإفطار من الصيام أن تقوم بحذاء القبلة وتتفقد الحمرة التي ترتفع من

(١) وسائل الشيعة، كتاب الصوم، باب ٤٢ من أبواب وقت الإمساك، حديث ١ ـ ٢.
(٢) المصدر نفسه.

المشرق، فإذا جازت قمة الرأس إلى ناحية المغرب فقد وجب الإفطار وسقط القرص . . .

﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ هذا استثناء من قوله تعالى: ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ فهنا يحرم على المعتكف أن يجامع النساء . . .

والاعتكاف هو اللبث ـ البقاء ـ في المسجد بقصد العبادة ضمن شروط أهمها:

١ ـ نية القربة في هذا اللبث لأنه عبادة.

٢ ـ الصوم فلا يصح الاعتكاف بدون صوم.

٣ ـ العدد وأقل الاعتكاف ثلاثة أيام يقضيها في المسجد صائماً ويجوز الزيادة عن ذلك.

٤ ـ أن يكون في أحد المساجد الأربعة، المسجد الحرام ومسجد النبي ﷺ في المدينة المنورة ومسجد الكوفة ومسجد البصرة بل يجوز في كل مسجد جامع يصلي فيه إمام عادل . . .

٥ ـ استدامة اللبث في المسجد فلا يخرج إلا لقضاء حاجته وبعض الأمور المنصوص عليها في السنة كإقامة شهادة وتشييع جنازة . . .

وإذا تحقق الاعتكاف حرم على المعتكف أمور:

١ ـ الجماع وهذا بنص الآية الكريمة ـ ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾.

٢ ـ الاستمناء.

٣ ـ البيع والشراء.

٤ ـ المماراة بداعي إثبات الغلبة . . .

وقد كان النبي ﷺ يعتكف وخصوصاً في العشر الأواخر من شهر رمضان

ويحثّ على هذه العبادة لما فيها من الإخلاص والخشوع والانقطاع إلى الله والتوجّه إليه. . .

- عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث[١] قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا كان العشر الأواخر اعتكف في المسجد وضربت له قبة من شعر وشمّر الميزر وطوى فراشه.

وفي حديث آخر عن الصادق عن رسول الله صلى الله عليه وآله[٢] قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله اعتكاف عشر في شهر رمضان تعدل حجتين وعمرتين.

وفي الحديث عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا اعتكاف إلا بصوم في مسجد الجامع.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أي ما تقدم من أحكام الصوم والاعتكاف أحكام الله فلا تقربوها بارتكاب شيء محرم عليكم فيها وقوموا بها كما هو حقّها. والتعبير بـ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ تعبير بليغ للغاية من حيث حرمة القرب منها الدال بطريق أولى على حرمة مباشرتها.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

مثل ما بيّن الله هذه الأحكام وأظهرها كذلك يبيّن الله كل أحكامه ويبلّغها إلى الناس لكي يتّقوا المحرّم منها ويعملوا بالواجب والمطلوب فتحصل لهم ملكة التقوى التي تحميهم من النار وتنجيهم من عذابها وألمها. . .

فوائد

١ - قوله ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ روى العامة كما ينقل

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب الاعتكاف، باب١، ح ١ - ٣.

(٢) المصدر نفسه.

ذلك القرطبي في جامعه عند تفسير هذه الآية أن عمر نام ثم وقع على امرأته وأنه أتى النبي ﷺ فأخبره بذلك فنزلت: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾.

ومن عجيب أمر القرطبي في جامعه أنه عدّ مخالفة عمر لأمر الله ومعصيته له منقبة وشرفاً، قال ما نصه: وهو في صدد تفسير الآية الكريمة.. «وقال علماء الزهد: وكذا فلتكن العناية وشرف المنزلة خان نفسه عمر (رضي الله عنه) فجعلها الله تعالى شريعة وخفّف من أجله عن الأمة فرضي الله عنه وأرضاه..».

فهل رأيت أسخف من هذا الهذيان وبطلان هذا الاستنتاج...؟ إنسان يعصي الله فيعد معصيته منقبة وشرفاً عظيماً.. إنه الحب يعمي ويصم...

٢ ـ قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾.

تعددت الآراء في هذا النص الكريم حتى ذهب الربيع كما ينقل القرطبي إلى قوله: «هن فراش لكم وأنتم لحاف لهن» وهذا من انحطاط الفهم وإسفاف الفكر وسقوطه لمخالفته لظواهر القرآن وما عليه أهل المحاورة واللسان...

ومثل هذا في السخف والسقوط تفسير بعضهم لهذا الكلام الإلهي بقوله «لأن كل واحد منهما ستر لصاحبه فيما يكون بينهما من الجماع من أبصار الناس».

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

«قيل اطلبوا الولد فإنه الغرض الأهم في نظر الشارع..» ولكن هذا الفهم لا يمكن أن يساعد عليه النص ولا يدل على ذلك من قريب أو بعيد، إذ لا ذكر للولد أبداً بل ولا إشارة إليه وإنما المشار إليه الأمر بالمباشرة فحسب..

٤ ـ روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ قال عدي بن حاتم: أخذت عقالين أبيض وأسود فجعلتهما تحت وسادتي وكنت أقوم من الليل فأنظر إليهما فلم يتبين لي الأبيض من الأسود فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فضحك وقال: إنك لعريض القفا ـ أي أبله ـ.

ومن المقطوع به أنه كنى عن الصبح ـ بالخيط الأبيض وعن الليل بالخيط الأسود. . .

أقول: إن صحّت الرواية ـ فإن هذا الفهم للقرآن من صحابي يعيش مع النبي ﷺ ـ يدل على أن أقوال الصحابة في القرآن وفهمهم له لا يمكن أن تعبّر عن المراد منه واقعاً ولا يكون حجّة على غيره ممن يأتي بعدهم بل هم بشر يحكمهم ما يحكم البشر في أقوالهم وأفعالهم وكل ما يقومون به لا يجب التدين بأقوالهم ولا بما فهموه منه ـ نعم هناك بدون شك ثلة منهم ـ تملك الفهم الدقيق والرأي السديد ولهم يد طولى في إدراك معاني القرآن وما تحمله آياته من الدلالات والحجج والبراهين. .

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلْأَكْلِ﴾: تناول الطعام وبلعه ويراد به هنا الأخذ والاستيلاء، وعبّر عنه بالأكل لأنه أكثر ما ينفق به المال وهو الغاية والنهاية.

﴿ٱلْأَمْوَٰلِ﴾: ما ملكته من جميع الأشياء يذكر ويؤنث.

﴿ٱلْبَٰطِلَ﴾: في اللغة الزائل الذاهب وفي الشرع هو المال الحرام كالربا والغصب والسرقة.

﴿وَتُدْلُوا۟﴾: الإدلاء في الأصل إرسال الدلو في البئر ثم جعل لكل دفع أو إرسال، وأدليتها إذا أخرجتها والتدلي الدنو والاسترسال والمراد بالإدلاء إلى الحكام الدفع إليهم بطريق الرشوة.

﴿ٱلْحُكَّامِ﴾: مفرده حاكم، يقال: لمن يحكم بين الناس ويفصل بينهم ويطلق على ولاة الأمر وعلى القضاة.

﴿فَرِيقًا﴾: اسم جمع لا واحد له من لفظه وجمع القلة فيه أفرقة وللكثرة أفرقاء وهي الجماعة والطائفة.

﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾: جمعه الآثام وهو الذنب الذي يستحق صاحبه عليه الملامة.

التفسير

﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾.

هذا هو الحكم الأول التي تضمنته هذه الآية المباركة وهو النهي المانع من أن يأكل بعضنا مال البعض الآخر بغير إذن شرعي أو إباحة له...

إنه حكم يُمنع بموجبه أن يتناول أحدنا مال الآخر ويستولي عليه ظلماً وعدواناً بغير حق أو بدون إذن شرعي كأن يأكله غصباً أو سرقة أو غشاً أو رشوة، وعبّر بالأكل وإن كان المراد منه الأعم ـ لأن غير الأكل من التصرفات كالأكل ـ لكنه لما كان المقصود الأكثر من التصرف بالمال لأجل الأكل عبّر عنه بذلك..

والتعبير ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم﴾ أي لا يأكل بعضكم مال بعض سماه مالاً إشعاراً بوحدة الأمة، وكأن مال من تلتقي معه في العقيدة هو مالك فيجب أن تحافظ عليه كما تحافظ على مالك، ومن أكل مال الناس بالباطل كَمَنْ يقيم شهادة الزور ليبطل حقاً أو يثبت باطلاً أو يحلف يميناً كاذبة على إثبات أمر أو نفيه ـ ومن أكل مال الناس بالباطل أن يقضي له القاضي خطأ أو عمداً وهو يعرف بطلان ذلك وهكذا...

﴿وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

وهذا هو الحكم الثاني وهو حرمة الرشوة للحكام المتنفذين ـ كالقضاة ـ من أجل أن تأكلوا بعض أموال الناس ظلماً وعدواناً وأنتم تعرفون ذلك وتعلمون به، وهذا من أقبح أنواع أكل الحرام لأنه أكل للمال عن سابق علم ومعرفة وتصميم ومثل هذا كون معصيته أشد وظلمه أقوى، وقد وسّع الأئمة مفهوم أكل المال

بالباطل ليشمل ما يحكم به ولاة الجور ـ وإن كان حكماً حقاً ـ لأنهم تولوا مناصبهم ظلماً وجلسوا في غير مجالسهم فكان ما يصدر عنهم والحال كذلك باطل غير شرعي وبالتالي من يأكله بحكمهم فهو يأكل الحرام إلا إذا انحصر تحصيل الحق عن هذا الطريق.

وقد ورد عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قول الله (عز وجل) في كتابه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾.

فقال: يا أبا بصير إن الله (عز وجل) قد علم[1] أن في الأمة حكاماً يجورون أما إنه لم يعنِ حكام أهل العدل، ولكنه عنى حكّام أهل الجور، يا أبا محمد إنه لو كان لك على رجل حق فدعوته إلى حكام أهل العدل فأبى عليك إلا أن يرافعك إلى حكام أهل الجور ليقضوا له لكان ممن حاكم إلى الطاغوت، وهو قول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠].

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب القضاء، أبواب صفات القاضي، باب ١، ح٢.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلْأَهِلَّةِ﴾: جمع هلال وهو في أول حالة حين يراه الناس، وسمي هلالاً لرفع الصوت بذكره عند رؤيته ثم يصبح قمراً ثم بدراً.

﴿مَوَٰقِيتُ﴾: جمع ميقات وهو الوقت وقيل إن الميقات منتهى الوقت والتوقيت تقدير الوقت.

﴿وَٱلْحَجِّ﴾: لغة مطلق القصد ثم نقل إلى المناسك الخاصة التي يؤديها المسلم في أوقات محدودة من السنة عند بيت الله الحرام. . .

﴿ٱلْبِرَّ﴾: التوسّع في فعل الخير وهو اسم جامع لأعمال الخير.

﴿تَأْتُوا۟﴾: البيوت تجيئوها وتدخلوا إليها.

﴿ٱلْأَبْوَٰبَ﴾: جمع باب وهو المدخل والبواب هو الملازم للباب.

﴿تُفْلِحُونَ﴾: من الفلاح وهو الظفر وإدراك البُغية. . .

التفسير

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ﴾.

سبب النزول:

قيل إن سبب نزول هذه الآية أن معاذ بن جبل وثعلبة بن غنمة قالا: ما بال الهلال يبدو دقيقاً كالخيط ثم يزيد حتى يستوي ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا!؟...

والسائلون لم يُعيّنوا في الآية ولم تُعرف هويتهم لعدم الفائدة من ذلك أو الثمرة فيه والمهم السؤال، هو عن ﴿ٱلۡأَهِلَّةِۖ﴾ كيف تتغيّر وتتحول من هيئة إلى أخرى ومن شكل إلى آخر وما الفائدة والغاية من هذا كله؟..

فأمر الله نبيه أن يجيبهم بما ينفعهم ويفيدهم ﴿قل﴾ يا محمد لهم.

﴿هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ المواقيت تنفع في ضبط الأوقات وتحديدها، تنفع الناس في دينهم من جهة وتعين أوقات رمضان ليصوموه، وأوقات الحج ليؤدّوا هذه الفريضة، وكذلك عِدّة النساء المطلقات أو المتوفى عنهن أزواجهن كما تنفعهم في دنياهم من جهة الديون وتحديد أوقاتها والمواعيد وغير ذلك.

إنها أوقات يعرفها كل الناس المتعلم منهم والأمّي، وتمرّ على الجميع وتقع تحت أنظارهم فلا تحتاج إلى حسابات دقيقة وتعلّم وتعليم ودراسة...

﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

إنها آية واضحة تحدد مفهوم البر الذي هو الخير المتجسد في كل فعل مفيد، نافع، طيب.

وقد نفى الله البر إذا كان عن غير طريقه الصحيح والمشروع ـ ليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ـ.

من أراد البر فليفحص الطريق السليم إليه... كما أن من أراد دخول البيوت

لا يدخل من قفاها بل يتحرى أبوابها والطرق الموصلة إليها. يجب أن يتوجه نحو الأبواب ويدخل منها، من أراد الدخول إلى البيوت ليدخلها بشكل مشروع وإلا تحول إلى سارق أو معتدٍ أو جان وعلى أقل تقدير إلى جاهل وغبي وبكل ذلك ينتفي البر ويرتفع...

والبر الصحيح أن يتوخى المسلم ما هو مشروع ومراد الله فيأتي به...

وقد قالوا في سبب هذه الآية أنهم كانوا إذا أحرم أحدهم فإن كان من أهل المدن ثقب في ظهر بيته وصار يدخل ويخرج منه أو يتخذ سُلّماً يصعد منه سطح داره وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء..

نفى الله أن يكون هذا العمل من البرّ أو أن يدخل تحت مفهومه أو يكون من مصاديقه، وقال إن البرّ هو ما حدّده الله وبيّنه من محرمات الإحرام وموانعه وشرائطه وموجباته وليس ما اتخذته الجاهلية وعملت به...

وقيل في تفسير الآية معنى آخر وهو أن أولئك القوم - يهوداً كانوا أم مسلمين - حينما سألوا النبي عن ﴿الْأَهِلَّةِ﴾ سألوه عن حقيقتها وكأنهم متعنتون أو متفلسفون يسألون عن أمرٍ لا ينفعهم ولا يفيدهم فأجابهم الله بما ينفعهم ويفيدهم، وكأنه سبحانه يقول لهم إن أسئلتكم غير صحيحة كالداخل إلى البيت من قفاه وحقه أن يدخل من بابه وأنتم من حقكم أن تسألوا عما ينفعكم ويفيدكم وليس عن غيره مما لا ينفع أو يفيد...

ولكن هذا المعنى بعيد عن إدراك عامة الناس ولا يُهتدى إليه في الغالب، والقرآن نزل ليخاطب الإنسان كي يفهمه ويعمل به ولم يخرج في خطابه عما تعارف الناس عليه من حجية ظهور الألفاظ وما تدل عليه من المعاني وليس هو كتاب أحاجي وألغاز، نعم المفهوم العام يمكن أن يطبق على موارد خاصة كما ورد في ذلك أن أهل البيت هم الأبواب التي يجب على الناس أن يدخلوا منها إلى طاعة الله، وأن من تعدّاهم إلى غيرهم واتخذ سواهم فهو ممن يصدق عليه أنه يأتي البيوت من غير أبوابها ويطلب الأمور من غير أهلها

فلن ينفعه ذلك تقرّباً من الله أو زلفى لديه لضلاله عن الطريق وبعده عن شواطىء السلامة...

في تفسير العياشي عن سعد عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن هذه الآية: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾.

فقال: هم آل محمد أبواب الله وسبله والدعاة إلى الجنة والقادة إليها والأدلاء عليها إلى يوم القيامة...

والحديث المشهور والمتواتر عن النبي صلى الله عليه وآله قوله في علي: أنا مدينة العلم وعلي بابها ولا تؤتى المدينة إلا من بابها...

ثم أمرهم في النهاية بأن يتقوا الله، فلا يغيّروا أحكامه لكي يظفروا بالفلاح والنجاح ويدركوا الجنة وما فيها...

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝١٩٠﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلسَّبِيلِ﴾: الطريق، وسبيل الله هنا يراد به الجهاد.

﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾: الاعتداء تجاوز الحق والإخلال بالعدالة لجهة المعاملة.

التفسير

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ هذا جهاد الدفاع وقد أمر الله به أن يحوّله المسلم إلى جهاد في سبيل الله فيخرج عن حدود ذاته ومشخصاته، فالذين يقاتلونكم إنما يقاتلونكم لعقيدتكم وما تحملونه من فكر وتصوّر، فإذا أردتم جهادهم فليكن قتالكم لهم وردكم عليهم من هذا المنطلق، من منطلق الإيمان الذي تحملون. . .

إنه سبحانه يجعل الدفاع عن هذه النفس المؤمنة التي يحاربها الأعداء قتالاً في سبيل الله يجب أن يمارسه الإنسان بأقصى ما يمكن وأدقّ ما يكون بحيث لا يخرج عن المرسوم له إلى الاعتداء على غير المقاتلين.

﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ لا تتجاوزوا المقاتلين إلى النساء والصبيان ومن كفّ يده عنكم، أو لا تبدؤوهم بقتال بل رُدّوا الاعتداء فحسب وهذا ينسجم مع الرأي القائل إنها أول الآيات التي أوجبت الدفاع عن النفس بقوة السلاح وردّ الاعتداء بقتال من يقاتل المسلمين...

وبعد أن نهاهم عن الاعتداء أراد سبحانه أن ينفّرهم ويبعّدهم عنه، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي لا يحب الخير للمعتدين ولا يصلهم منه سبحانه نفع أو فائدة، بل من لا يحبه الله يخسر أعظم الأرباح حيث يقع في المفاسد والمضرات ويناله العقاب...

فائدة

كلما ذكر القتال أو الجهاد في القرآن قُرِن بقوله ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهذا يدل على أن الجهاد غايته وهدفه الله، وليس المكاسب والمغانم أو السيطرة والاستعمار.

قال تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤)﴾.

اللغة

﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾: من ثَقِف الشيء إذا ظفر به ووجده على جهة الأخذ والغلبة، ورجل ثقف سريع الأخذ لأقرانه.

﴿أَخْرِجُوهُم﴾: من خرج خروجاً إذا برز من مقرّه أو حاله والإخراج أكثر ما يقال في الأعيان.

﴿الْفِتْنَةِ﴾: أصلها الاختبار وتصرف إلى معان متعددة ويراد بها هنا الكفر والشرك.

﴿أَشَدُّ﴾: قال الراغب: الشدّ العقد القوي يقال شددت الشيء قوّيت عقده، والشدة تستعمل في العقد وفي البدن وفي قوى النفس وفي العذاب...

﴿الْقَتْلِ﴾: أصل القتل إزالة الروح عن الجسد كالموت، لكن إذا اعتبر بفعل المتولي لذلك يقال قتل وإذا اعتبر بفوت الحياة يقال موت.

﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾: الحرام الممنوع منه والمسجد الحرام في مكة، سمّي بذلك لتحريم الله فيه كثيراً مما ليس بمحرّم في غيره من المواضع...

﴿ٱلْجَزَآءَ﴾: ما فيه الكفاية من المقابلة إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿ٱنتَهَوْا﴾: من الانتهاء وهو الانزجار والكف عما نهي عنه.

﴿عُدْوَٰنَ﴾: وهو مجاوزة الحق والإخلال بالعدالة لجهة المعاملة، وقد يطلق على ردّه بمثله إنه عدوان.

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ﴾: سُمّي الشهر الحرام لحرمة القتال فيه، والأشهر الحرم أربعة وهي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب.

﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ﴾: جمع حرمة والحرمة ما منع من انتهاكها ووجب حفظها.

﴿ٱلْقِصَاصُ﴾: من قصّ أثره إذا أتبعه وهو أن يأخذ للمظلوم من الظالم مثل ما أخذ الظالم..

﴿ٱعْتَدَىٰ﴾: الاعتداء هو التجاوز عن الحدود المرسومة والعدوان منه.

التفسير

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ هذا أمر واضح بقتل الكفار متى قدر المسلمون على قهرهم واستطاعوا أن يأخذوهم، سواء كان ذلك في حلٍّ أو حرمٍ.

﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ فكما ضيّقوا عليكم في مكة ومارسوا شتّى أنواع الاضطهاد حتى اضطررتم إلى تركها وترك ما لكم من دور وعقار، كذلك لكم أنتم الآن أن تخرجوهم من ديارهم وتمارسوا عليهم كل ضروب القوة لإخراجهم حتى يذوقوا عذاب التهجير ويدركوا مدى المعاناة التي لحقت بكم جرّاء إخراجهم لكم.

﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ الكفر الذي يعيشه أهل مكة ـ بل كل كافر يكون

كفره ـ أشدُّ وأقوى من القتل، لأن الكفر يخلد صاحبه في العذاب الدائم بينما القتل عذابه مؤقت قليل، أو يراد بالفتنة ما امتحن به المؤمنون من إخراجهم من وطنهم وهو أصعب من القتل لأن عذابه مستمر وتعبه دائم على النفس وقد قيل الخروج من الوطن أشد ألماً من خروج الروح من البدن ـ لما يلاقيه المهجّر من ألم وعذاب وهمّ وغمّ...

﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

هذا استثناء من قوله: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ فقد حرّم الله قتال الكفار عند المسجد الحرام ـ في مكة ـ ابتداءاً لحرمة هذا المكان الشريف ولئلا يتدنس بما يحصل فيه، ولكن إذا نهى الله المسلمين عن ابتداء الكفار بالقتال في ذلك المكان الشريف فقد أباح لهم أن يردوا الاعتداء ويقاتلوا الكفار إن ابتدأوهم به... إذا قام الكفار بعدم مراعاة قدسية المسجد الحرام وأسقطوا حرمته بقتال المسلمين فيه فما على المسلمين إلا أن يواجهوهم بقتال يستأصلون به شأفتهم ويسكتون نأوتهم.

ثم عقب سبحانه بأن ذلك القتال للكفار وقتلهم هو جزاء كفرهم وانحرافهم وعدم إذعانهم للحق ودخولهم عالم الإيمان، فالقتال لكفرهم وليس انتقاماً منهم أو تشفياً بهم فإن الإسلام لا يعيش أجواء الانتقام والتشفي...

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ فإن رجعوا عن كفرهم وثابوا فإن الله يغفر لهم ذنوبهم ويكفر عنهم سيئاتهم ويرحمهم بإدخالهم الجنة وما فيها من نعيم...

سبحانك يا رب كم هي رحمتك واسعة حيث تستقبل كل العصاة وتحتضنهم وتوسع لهم العطاء إن هم صدقوا في توبتهم وكفّوا عن تمردهم!... إنها الرحمة التي لا ترفض عائداً إلى رحاب الله ولا تحاسبه لما مضى منه أو سلف... بل إن الله يعفو ويصفح ويتجاوز حتى كأن لا ذنب لهذا العبد ولا جرم له..

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾.

هذه الآية تبيّن هدف القتال وغايته.. فالأمر بالقتال ـ قاتلوهم ـ لم يكن من أجل السيطرة والاستعلاء ولا من أجل الاستغلال والاستبداد وليس من أجل سرقة خيرات البلاد واستعباد العباد، بل القتال لرفع الفتنة من الأرض ـ أي رفع الشرك ـ وأن يصبح الناس عبيداً لله وليس عبيداً لبعضهم أو لبعض المعتقدات الباطلة السخيفة... قاتلوهم حتى يرتفع الشرك ويخمد صوته ولا يعود له أثر أو خبر وترتفع راية الله ودينه وما جاء به أنبياؤه ورسله...

ثم أعاد إليهم الأمل ومنّاهم ورغّبهم في طريقه العظيم فقال سبحانه: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾... إن عادوا عن شركهم إلى الإيمان وتابوا مما هم عليه من الانحراف فهؤلاء تُحقن دماؤهم ويأخذون حكم المسلمين ولا يعود لأحد عليهم حجّة أو سبيل وتبقى الحجّة على الظالمين الذين يستمرون على شركهم ويبقون على كفرهم فتبقى صرخة ﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾ تلاحقهم ويبقى المجاهدون وراءهم يطاردونهم فيأسرون فريقاً ويقتلون فريقاً جزاء انحرافهم وضلالهم وكفرهم بالله...

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ هذه المقابلة يقتضيها قانون العدل والحق والإنصاف، فمن حاربك في شهر لا يجوز له قتالك فيه إذا قابلته بالقتال لا تكن ظالماً له بل واحدة بواحدة والبادي أظلم، ويقول أرباب التفسير أن سبب نزول هذه الآية أن المشركين قاتلوا المسلمين يوم الحديبية السنة السادسة من الهجرة قتالاً خفيفاً بالسهام والحجارة ثم اتفقوا على أن يرجع المسلمون عامهم على أن يعودوا في عام قابل في ذي القعدة، فخافوا أن يواجههم المشركون وكرهوا القتال فيه فنزل قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾.

﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ كل من انتهك أمراً محرّماً إذا جازيته بمثله فلا إثم عليك وهؤلاء هتكوا حرمات متعددة، حرمة الشهر وحرمة البلد وحرمة الإحرام فإذا قابلتهم بفعلهم فلست ظالماً أو معتدياً أو متجاوزاً للحق.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

وهذه قاعدة عامة وكبرى كلية تسري في كل الأمور - إلا ما شذّ وندر - إنها قاعدة المقابلة بالمثل فمن قاتلك في الشهر الحرام قاتله فيه، ومن قاتلك في البلد الحرام قاتله فيه، ومن ضربك ظلماً اضربه كما ضربك بدون زيادة، ومن أخذ مالك ظلماً حق لك أن تأخذ بقدره من ماله، ومن هدم دارك حق لك أن تهدم داره وهكذا دواليك...

كل اعتداء ظالم يجب أن يقابل بمثله ولا يجوز أن يسكت الإنسان أو يستكين وينام على الجراح وعلى احتلال الأرض ثم لا يقوم بالدفاع ورد الاعتداء... إنها قاعدة تضمن كرامة الإنسان المسلم وعزته كما تحفظ أصل وجوده وكل موجوده.

نعم يجب أن يكون رد الاعتداء بمثل الاعتداء فلا يتجاوز عنه عدداً أو شدة كماً وكيفاً فمن ضربك بيده ضرباً خفيفاً لا يجوز لك أن تنتقم منه بقتله وإزهاق روحه، وهكذا يجب المحافظة على المماثلة بحيث لا يتعدى الحق أو يتجاوزه...

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي لا تتجاوزوا هذه القاعدة فتنحرفوا بل اتقوا الله بلزومها وعدم الخروج عنها إلى غيرها من الاعتداء الذي لا يجوز.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ترغيب للمسلمين في التقوى وأن لا يزيدوا عن الاعتداء باعتداء مثله والله سبحانه معهم ينصرهم على أعدائهم طالما أنهم لم يخرجوا عن طاعته إلى معصيته.. إنه سبحانه مع المتقين ويا حبذا هذه المعية وأكرم بها متى أدركها المرء فاز وظفر ولم يفشل أو يخسر...

فائدتان

١ - يمكن أن يراد من قوله ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ يعني محاولة الكفّار أن يحرفوا المؤمنين عن دينهم ويردوهم إلى الكفر، هذا العمل أشد من القتل الذي يمارسه المؤمنون على الكافرين.

٢ ـ لا يخفى أن قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾ سُمِّي جزاء العدوان عدواناً وهو في الحقيقة ليس عدواناً وإنما هو رد للاعتداء سمي بذلك من باب المشاكلة، والمشاكلة تعني: الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى.

قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

اللغة

﴿أَنفِقُوا﴾: من الإنفاق وهو إخراج المال وصرفه في وجوه المصالح.

﴿السَّبِيلِ﴾: الطريق وسبيل الله كل ما يؤدي إلى دين الله وتقويته.

﴿تُلْقُوا﴾: الإلقاء طرح الشيء.

﴿التَّهْلُكَةِ﴾: الهلاك وأصل الهلاك الضياع وعدم معرفة الشيء أين هو.

﴿وَأَحْسِنُوا﴾: من الإحسان وهو أعم من الإنعام كما أن الإحسان فوق العدل وذاك أن العدل هو أن يأخذ ما له ويعطي ما عليه، وأما الإحسان بأن يعطي أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له...

التفسير

أمر الله المكلفين أن يبذلوا أموالهم في سبيل الله... وسبيل الله هو كل أمر يقرّب منه ويحقق رضاه سواء كان حجاً أم عمرة أو إعانة مسكين أو سد جوعة جائع وهكذا. وبقرينة السياق حيث الآية واردة في آيات الجهاد ومعها فإن

الإنفاق في طريق الجهاد هو إنفاق في سبيل الله من حيث أن تهيئة العتاد من سلاح وما تحتاجه المعركة من معدات وما يتوقف عليه النصر من مقدمات كله في طريق الجهاد.

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ أي لا تمتنعوا عن الإنفاق فتكونوا كمن يرمي نفسه باختياره في الهلاك ـ الموت ـ لأن من يمتنع عن بذل المال في سبيل الجهاد ومقدماته وتحصيل ما يحتاجه الجند المقاتلون من سلاح يؤدي ذلك ـ عدم الإنفاق ـ إلى هزيمة الجيش وسقوطه بيد الأعداء، وبذلك يتسلط العدو علينا ويروح يقتل ويسجن ويشرّد ويتحول غير المنفق للأموال إلى واحد ممن تجري عليهم أحكام العدو المنتصر ويكون بذلك قد ألقى نفسه بالتهلكة كما ألقى غيره فيها.

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ تفسيرها على ما تقدم أن على الغني القادر أن لا يبخل بماله في سبيل الجهاد ولا يورد نفسه مورد الهلاك بعدم الإنفاق، ولكنها قاعدة عامة تجري في كل الموارد وأن على الإنسان أن يحفظ نفسه من الهلاك ولا يقدمها رخيصة لأنها أمانة الله عنده، لا يبذلها إلا في طاعة الله وتحقيق رضاه فالتهور في معركة غير متكافئة إلقاء للنفس بالتهلكة إن لم يكن فيها نكاية بالعدو وكسر لشوكته والوقوف في وجه السلطان الظالم مع عدم الثمرة والفائدة وإلقاء النفس بالتهلكة بل بذل كل المال ـ وإن كان في طريق الإحسان والصدقة ـ تعريض للنفس إلى الهلاك إن أدّى ذلك إلى الفقر والحاجة وذُلّ النفس إلى الناس، هكذا وغيرها من الموارد التي يدركها الإنسان بحسه ووجدانه ويوازن بين الإقدام ونتائجه والإحجام ونتائجه ثم يختار ما فيه رضى الله وما فيه منفعة نفسه وخيرها في الدنيا والآخرة فيأخذ به. . .

وبهذا المعنى وردت بعض الأخبار والآثار، ففي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لو أن رجلاً أنفق ما في يديه في سبيل الله ما كان أحسن ولا وفق أليس يقول الله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني المقتصدين. . .

﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تفضّلوا على الناس بالبذل والعطاء، وعلى الجهاد بالإنفاق بل أحسنوا في مواقفكم فاجعلوها شريفة وكريمة وفي حديثكم فاجعلوه صدقة إن الله يجزي المحسنين بما عنده من الإكرام والإنعام والخير العميم ويثيبكم بعطاياه الكثيرة ومننه الوفيرة.

قال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿أَتِمُّوا﴾: أكملوا.

﴿الْحَجَّ﴾: في اللغة لمطلق القصد ولكنه نقل إلى الأفعال المخصوصة في مكة في زمن معين..

﴿وَالْعُمْرَةَ﴾: هي عبارة عن زيارة بيت الله الحرام وأداء مناسك معينة فيه.

﴿أُحْصِرْتُمْ﴾: من الإحصار، ومعناه المنع والحبس.

﴿اسْتَيْسَرَ﴾: أي تيسر من اليُسر وهو السهولة.

﴿الْهَدْيِ﴾: هو المهدي، أي ما يُهدى إلى بيت الله فيذبح عنده من الإبل أو البقر أو الشياة.

﴿تَحْلِقُوا﴾: من حلق، والحلق هو جزّ الشعر وقطعه.

﴿يَبۡلُغَ﴾: من بلغ، والبلوغ والبلاغ: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى مكاناً كان أو زماناً أو أمراً من الأمور المقدرة.

﴿مَحِلَّهُۥ﴾: المحل: هو الموضع الذي يحلّ به نحر الهدي وهو الحرم أو مكان الإحصار.

﴿أَذٗى﴾: ضرر.

﴿فَفِدۡيَةٞ﴾: ما يقي الإنسان به نفسه من مال يبذله في عبادة قصّر فيها.

﴿صَدَقَةٍ﴾: الصدقة: ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة كالزكاة، لكن الصدقة في الأصل تقال للمتطوع به، والزكاة للواجب.

﴿نُسُكٖ﴾: أصلها العبادة، والناسك: هو العابد، والنسيكة مختصة بالذبيحة وهي المرادة هنا.

﴿أَمِنتُمۡ﴾: أصل الأمن: طمأنينة النفس وزوال الخوف.

﴿تَمَتَّعَ﴾: أصل التمتع، الانتفاع بالشيء والتلذذ به، ومتعة الحج: ضم العمرة إليه.. سمي كذلك لجواز الانتفاع بالنساء بينهما...

﴿حَاضِرِي﴾: من الحضر: وهي القرى والأرياف والمنازل المسكونة فهي خلاف البدو والبداوة والبادية، والحضارة: هي السكن في الحضر ثم جعل ذلك اسماً لشهادة مكان أو إنسان أو غيره.

التفسير

وجوب الحج والعمرة:

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ هذا يدل على مشروعية هذه العبادة بل قد يستفاد من الأمر بالإتمام وجوبهما وإنّ على الحاج والمعتمر أن يأتي بهما بجميع أجزائهما وشرائطهما ولا يخل بشيء منهما وهذا يكشف عن ترابط كل عبادة منهما مع أجزائها بحيث لو أخلّ بجزء أثر سلباً على صحتها..

يجب بمقتضى نص هذه الآية أن تكون عبادتنا الحج والعمرة لله أي كل منهما خالصة لوجهه الكريم خالية من الرياء والسمعة والجاه وغير ذلك من الدواعي التي تتنافى والقربة لله. . .

الحج والعمرة من المجملات التي لم تتول الآيات القرآنية الكريمة إيضاحهما وتفصيل جزئياتهما. وإن ذكرت بعض المناسك والمعالم ولكنها لم تستوفِ ذلك فاحتاج الأمر إلى بيان من الرسول الأعظم لكشف كل الجزئيات والشروط وما يجب أن يكون فيهما كما بيّن ﷺ مبطلاتهما وموانعهما وما يفسد صحتهما ونحن نذكر أعمال العمرة بشكل موجز جداً لا يخرج عن تعداد أجزائها كما نذكر أفعال الحج بنفس الطريقة. . .

أفعال العمرة

١ ـ الإحرام من أحد المواقيت المرسومة والمعروفة وقد بيّنها الفقهاء بشكل واضح.

٢ ـ عند وصوله إلى مكة يجب الطواف حول البيت الحرام سبعة أشواط.

٣ ـ صلاة الطواف.

٤ ـ السعي بين الصفا والمروة.

٥ ـ التقصير، وهو أخذ شيء من شعر الرأس أو الأظافر.

أفعال الحج للمتمتع

أفعال الحج ثلاثة عشر، وهي:

١ ـ الإحرام من مكة.

٢ ـ الوقوف بعرفات من زوال اليوم التاسع من ذي الحجة إلى المساء.

٣ ـ الوقوف في المزدلفة من فجر الليلة العاشرة إلى طلوع الشمس.

٤ ـ رمي جمرة العقبة ـ الشيطان الكبير ـ يوم العاشر من ذي الحجة.

٥ ـ النحر أو الذبح في منى.

٦ ـ الحلق لشعر الرأس أو قص شيء من الشعر أو تقليم شيء من الأظافر.

٧ ـ طواف الزيارة بعد الرجوع إلى مكة.

٨ ـ صلاة الطواف.

٩ ـ السعي بين الصفا والمروة.

١٠ ـ طواف النساء.

١١ ـ صلاة طواف النساء.

١٢ ـ المبيت بمنى ليلة الحادي عشر والثاني عشر وفي بعض الصور ليلة الثالث عشر.

١٣ ـ رمي الجمار الثلاث في اليوم الحادي عشر والثاني عشر.

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾.

كان الحديث في صدر الآية لمن قدر على القيام بالحج والعمرة وأن عليه أن يتمهما لله وهنا يطرأ على هذا الذي تلبّس بهما مانع قاهر يمنعه من إكمالهما، وهذا المانع تارة يكون ﴿أُحْصِرْتُمْ﴾ الذي يعني المرض المانع من إكمال الحج أو العدو الصادّ لهذا الحاج وفيهما معاً شيء مشترك هو عدم إكمال ما ابتدأ الحاج به من إكمال الحج وهنا يختلف الحكم في كل منهما، فالمحصور بالمرض المانع له عن إكمال الحج يجب عليه الهدي الميسّر له بدنة أو بقرة أو شاة يرسلها مع الحجيج ويواعدهم حتى يذبحونها ثم يتحلّل حسب التوقيت.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾ فتحللوا من الإحرام ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ التي تواعدتم مع من أرسلتموه معه...

وأما المصدود من قبل عدو ولم يقدر على إكمال الحج فهذا يذبح في مكانه ويتحلل به بعد أن يقصر أو يحلق.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾.

القاعدة الأولية حرمة حلق الشعر أو إزالته بأي مزيل على المحرم. ولكن قد يصل الأمر إلى درجة يمرض الإنسان بالصداع أو غيره من جرّاء بقاء الشعر فإذا أزاله والحالة كذلك لهذه الضرورة المرضية أو اضطر إلى إزالته للأذى الذي يلحق بالمحرم وإن لم يبلغ درجة المرض كما لو تكاثرت الحشرات (القمل مثلا) فيه فآذت صاحبه أو أصابه جرح استدعى إزالة الشعر، ففي الحالتين جاز ـ للمرض والأذى ـ أن يحلق المحرم شعر رأسه وفي هذه الصورة يجب أن يجبر ما أقدم عليه من المحرّم بأحد أمور ثلاثة:

١ ـ فدية من صيام قدّرتها السنة المعصومة بثلاثة أيام وعبّرت عنها الآية الكريمة: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾.

٢ ـ أو إطعام ستة مساكين لكل واحد مدّان من الطعام وعبّرت الآية عنها: أو ﴿صَدَقَةٍ﴾.

٣ ـ أو ذبح شاة توزع على الفقراء وقد عبّرت الآية عنها أو ﴿نُسُكٍ﴾.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾.

إذا كنتم في أمان من العدو أو المرض أو زال ذلك بعد حصوله فأكملتم ما تلبستم به من عمرة التمتع الموصلة إلى الحج فعليكم أن تضحّوا بما تيسّر لكم بدنة أو بقرة أو شاة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ هذا هو المعروف بحج التمتع ولا خلاف فيه هنا فالنص القرآني واضح في هذا المعنى وهو فرض مَنْ نأى عن مكة أكثر من ستة عشر فرسخاً وهو مؤلف من عمرة بحيث يحرم ثم يدخل مكة فيطوف ويصلي ركعتي الطواف ثم يسعى بين الصفا والمروة ثم يقصّر أي يأخذ

شيئاً من شعره أو أظافره وبهذا يحل ويحق له أن يتمتع بالنساء وبجميع ما كان محرّماً عليه قبل التلبّس بالإحرام.

ثم ينتظر إلى اليوم التاسع فيحرم من مكة أعزها الله ثم يصعد إلى عرفات فيبقى فيها من الظهر إلى المغرب ثم يفيض بعد المغرب منها إلى المزدلفة فيبقى - من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس - ثم عندما تطلع الشمس ينفر إلى منى وهناك يرمي جمرة العقبة ثم ينحر أو يذبح ثم يحلق أو يقصر وبعدها يهبط إلى مكة فيطوف ويصلي ويسعى ثم يطوف طواف النساء فصلاته وبذلك تنتهي أعمال الحج بعد أن يكون قد قضى ليلتين بعد العيد في منى...

هذا هو حج التمتع وسمي بذلك لأن الفترة الفاصلة بين جزئه الأول - العمرة - وجزئه الثاني - الحج - يجوز فيها للمحرم التمتع بالنساء وبكل ما كان محرّماً على المحرم أثناء الإحرام...

وهذا الواجب - حج التمتع - فيه هدي يجب أن يذبحه الحاج فإن وجده وذبحه فلا إشكال وإنما الإشكال فيما إذا لم يجده أصلاً أو وجده ولكن لم يجد ثمنه فهو عاجز عن الهدي وفي مثل ذلك أوجب الله على المتمتع بالحج بديلاً عنه عبّر عنه.. بقوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ ثمن الهدي ليشتريه ويضحي به ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ يجب على المتمتع الذي لم يقدر على الأضحية صيام ثلاثة أيام في الحج - وهو مسافر - وقد حدّدها الفقهاء تبعاً لما ورد في السنة الشريفة أنها يوم السابع والثامن والتاسع من ذي الحجة على أن تكون متتالية وإذا رجع إلى وطنه صام سبعة أيام متتالية أيضاً.

﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ يجب صيام عشرة أيام لمن عجز عن الأضحية - الهدي -.

فإن قلت: لمَ قال سبحانه ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ﴾مع أننا نعلم أن ثلاثة مع سبعة تساوي عشرة.

قالوا في جواب ذلك: لما كانت الواو قد تستعمل بمعنى أو التخيرية كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ فلإزالة هذا الاحتمال جاء سبحانه بكلمة عشرة...

أو أنه سبحانه أكّد «بالعشرة» ما فضّل متقدّماً وهذا وجه من وجوه البلاغة المطلوبة. . .

وإن قلت أيضاً لِمَ قال ﴿كَامِلَةٌ﴾.

قيل في الجواب: هذا تدليل على أنها كاملة من جهة بدليتها عن الهدي إجزاءاً أو ثواباً.

ثم بيّن سبحانه أن حج التمتع هو وظيفة مَنْ كان بعيداً عن مكة فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ حج التمتع.

﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ذلك حج التمتع هو فرض من نأى عن ـ المسجد الحرام ـ ولم يُعدّ من أهل ذلك البلد وقد حددت السُّنة الشريفة حدود حاضرة المسجد الحرام بستة عشر فرسخاً من كل ناحية محيطة به.

ففي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال[1]: ليس لأهل مكة ولا لأهل سرف متعة وذلك لقول الله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

وعن أبي جعفر قال عليه السلام: «قول الله[2] عز وجل في كتابه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قال: يعني أهل مكة ليس عليهم متعة كل من كان أهله دون ثمانية وأربعين ميلاً ذات عرق وعسفان كما يدور حول مكة فهو ممن دخل في هذه الآية وكل من كان أهله وراء ذلك فعليهم المتعة. . .

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ كونوا عند أمره فعلاً وسلوكاً فيما أمركم به وكونوا عند نهيه فيما نهاكم عنه فتوقفوا عنه ولا تقتربوا منه.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تخويف لهم وترهيب وأنّ عليهم أن يأخذوا العلم والخبر أنه سبحانه شديد العقاب، إن خالفوا أمره في الحج أو خالفوا ما وجب عليهم فيه، بل إنه سبحانه شديد العقاب على مَن عصاه وتمرد على إرادته وخرج عن سلطانه وحكمه. . .

(١) و(٢) وسائل الشيعة، كتاب الحج، باب ٦ من أبواب أقسام الحج، حديث ١ ـ ٢.

قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿أَشْهُرٌ﴾: جمع شهر، قال الراغب في مفرداته: الشهر مدة مشهورة بإهلال الهلال أو باعتبار جزءٍ من اثني عشر جزءاً من دوران الشمس من نقطة إلى تلك النقطة.

﴿مَّعْلُومَٰتٌ﴾: معروفات: والعلم إدراك الشيء بحقيقته وأشهر الحج هي شوال، ذو القعدة، وذو الحجة...

﴿فَرَضَ﴾: ألزم وأوجب، وأصل الفرض: هو قطع الشيء الصلب والتأثير فيه كفرض الحديد.

﴿ٱلرَّفَثُ﴾: في أصله كلام الفحش المتضمن لما يستقبح ذكره من ذكر الجماع ودواعيه وهنا يراد به الجماع.

﴿ٱلْفُسُوقُ﴾: الخروج عن طاعة الله وهنا يراد به الكذب والسباب.

﴿جِدَالَ﴾: الخصام والمماراة ويراد بها هنا قولك في الحلف: لا والله بلى والله.

﴿وَتَزَوَّدُوا﴾: أمر بأخذ الزاد: والزاد هو المدّخر الزائد على ما يُحتاج إليه في الوقت، ويطلق الزاد على ما يتخذه المسافر من الطعام.

﴿الْأَلْبَابِ﴾: العقول.

التفسير

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ زمان الحج ووقته أشهر معيّنة وهذا نص في تعيُّنها واستغناؤه عن ذكرها لمعرفتها عندهم.

وهذا التعيين ينفي وقوع الحج في غيرها وقد وردت السنّة ببيان هذه الأشهر وهي ثلاث شوال، ذو القعدة، ذو الحجة وهو مقتضى الجمع في ﴿أَشْهُرٌ﴾ الذي لا يكون في أقل من ثلاثة...

وأما تعيُّنها من السنة فقد ورد ما نصه:

ـ عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام[1] في قول الله عز وجل: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾... ولا يفرض الحج إلا في هذه الشهور التي قال الله عز وجل: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ وهي شوال، ذو القعدة، ذو الحجة.

ـ عن أبي عبد الله عليه السلام قال[2]: «من أحرم بالحج في غير أشهر الحج فلا حج له ومن أحرم دون الميقات فلا إحرام له».

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ من أوجبه على نفسه وألزمها به فيهن ـ في هذه الأشهر ـ ويصبح الإنسان ملزماً بالحج وفرضاً عليه إذا أحرم ولبّى ولبس ثوبي الإحرام فيجب عليه إتمامه وهذا في حج التمتع أما في القران والأفراد، فالإشعار أو التقليد للهدي أو التلبية.

---

(١) و(٢) وسائل الشيعة، كتاب الحج، باب ١١ من أبواب أقسام الحج، حديث ٣ ـ ٤.

وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل[١]: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾.

والفرض: التلبية والإشعار والتقليد فأي ذلك فعل فقد فرض الحج...».

وعلى كل حال.. من أوجب على نفسه الحج في هذه الأشهر فيجب أن يكون عمله بالإضافة إلى الحالات الإيجابية من الأعمال يجب أن لا يكون حجاً مقروناً بالسلبيات التي تُعطّل مفعوله أو تلغي أثره.

ولذا قال تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ وهذه أول آفة تسمم الحج وتبطل أثره المرجو منه.

﴿رَفَثَ﴾: وإن كان الفحش في الكلام ولكن المراد به هنا الجماع واللقاء الجنسي بين الرجل وزوجته، فالجماع مبطل للحج ومفسد له...

﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ وهو في الأصل الخروج عن طاعة الله إلى معصيته ولكن المراد به هنا كما بيّنته الأحاديث هو الكذب والسباب.

﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ أي لا حلف بالله وقد فسرته الأحاديث بقولك لا والله أو بلى والله في مقام الحلف ـ وقد ورد التفسير لهذه المعاني الثلاثة عن أهل البيت عليهم السلام.

في الحديث عن معاوية بن عمار قال[٢]: قال أبو عبد الله عليه السلام إذا أحرمت فعليك بتقوى الله وذكر الله وقلة الكلام إلا بخير فإن تمام الحج والعمرة أن يحفظ المرء لسانه إلا من خير كما قال الله (عز وجل) فإن الله يقول:

﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾

فالرفث: الجماع، والفسوق: الكذب، والسباب والجدال: قول الرجل لا والله أو بلى والله.

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب الحج، باب ١١ من أبواب أقسام الحج، حديث ٢.
(٢) وسائل الشيعة، كتاب الحج، باب ٣٢ من أبواب ترك الإحرام، حديث ١ ـ ٤.

ـ وعن علي بن جعفر قال: سألت أخي موسى[١] عليه السلام عن الرفث والفسوق والجدال ما هو؟ وما على من فعله؟

فقال: الرَفَثَ: جماع النساء والفسوق الكذب والمفاخرة والجدال قول الرجل: لا والله وبلى والله...

وهناك أحاديث أخرى توضّح هذا المعنى من هذه الكلمات وتحدّد مصطلحاتها التي بيّناها وعلى كل حال ـ فهذه الأمور وإن كانت محرّمة مطلقاً ولكن السالك في طريق الله ـ في الحج ـ والسائر إليه القاصد أشرف بقاعه وأطهر أمكنته يتغلظ عليه التحريم ويشتد ويصبح أكثر منكراً وأقبح فعلاً...

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ والله سبحانه وإن كان يعلم كل ما تفعله من خير أو شر ولكنه أراد سبحانه أن يرغّبنا بعمل الطاعات عن طريق تعريفنا بأنه يعلم بها فيجازي عليها ولا تُنسى عنده فكان من الحضّ على فعل الخير عقيب النهي عن الشر.

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ وهذا أمر بالعمل الصالح وكل ما يقرب من الله أو يرفع الدرجات، فالتقوى التي تعني ـ بعد ترك المحرمات القيام بالواجبات ـ تعني أيضاً أن يكدّ الإنسان ويسعى في كل عمل يرفع منزلته في الآخرة.

ومن المعلوم أن زاد الدنيا في السفر من أجل رفع الضرر وهو مؤقت ويمكن تداركه بما تيسر من السبل ولو بالاستجداء، أما زاد الآخرة فهو لرفع الضرر الدائم والعذاب المستمر ولا يمكن توفيره إلا في دار الدنيا وبالعمل الصالح المتجسد بالعبادات من صلاة وصوم وحج وزكاة وغيرها وبالمعاملات الصحيحة التي تقع على وجهها المرسوم لها شرعاً فلا يأكل الربا أو يغش الناس أو يسرق أموال الناس وهكذا... كما لا يتأتى ذلك أيضاً إلا بالأخلاق الطيبة والعشرة

(١) وسائل الشيعة، كتاب الحج، باب من أبواب تروك الإحرام، حديث/ ١ ـ ٤.

الحسنة والبُعد عن الفحش والسباب والشتائم وكل ما يؤذي الآخرين وهكذا دواليك إلى آخر الأعمال الواجبة فيقوم بها والأعمال المحرمة فيتركها. . .

وعليٌّ في نهج البلاغة خير من تكلم عن التقوى بعد كتاب الله وقد جاءت كلماته (صلوات الله عليه) تحكي هذه المعاني العظيمة بالعبارة الرقيقة منها ما قاله في خطبته ١٩١..

«فإن التقوى في اليوم الحرز والجُنّة، وفي غدٍ الطريق إلى الجنة مسلكها واضح وسالكها رابح ومستودعها حافظ لم تبرح عارضة نفسها على الأمم الماضين منكم والغابرين لحاجتهم إليها غداً إذا أعاد الله ما أبدى وأخذ ما أعطى وسأل عما أسدى. .».

﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ تأكيد للأمر السابق وأن أصحاب العقول الواعية التي تعرف الأمور النافعة في الآخرة والباقية أجراً وثواباً يبادرون إلى تقوى الله فيتركون كل محرّم ويقومون بكل واجب ويعملون بكل ما يقرّبهم من الله ومن طاعته. . .

فائدة

قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾ صيغة نفي والحقيقة نهي أي فلا يرفث ولا يفسق ولا يجادل، والإتيان بصيغة الخبر وإرادة النهي من الأساليب البلاغية العالية، فكأن الأمر مما لا ينبغي أن يقع.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾.

اللغة

﴿جُنَاحٌ﴾: من جنح، إذا مال: وسمي الإثم المائل بالإنسان عن الحق جناحاً ثم سمي كل إثم جناحاً، وقوله: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ لا إثم عليكم.

﴿تَبْتَغُوا﴾: تطلبوا.

﴿فَضْلًا﴾: المقصود بالفضل هنا عطاء الله ورزقه الحاصل من التجارة والبيع والشراء.

﴿أَفَضْتُم﴾: فاض الماء: إذا سال منصباً، وأفاض إناءه: إذا ملأه حتى أساله، وأفضتم من عرفات: أي دفعتم منها بكثرة تشبيهاً بفيض الماء.

﴿عَرَفَٰتٖ﴾: اسم لبقعة معروفة ومخصوصة يقف الإنسان الحاج فيها عند ظهر يوم التاسع من ذي الحجة وهي قرب مكة المكرمة...

﴿ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾: اسم لبقعة مخصوصة ومعروفة يقف فيها الحاج من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس واسمها أيضاً المزدلفة وجُمع، ومشاعر الحج: معالمه التي يتعبد بها.

﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾: الاستغفار: طلب المغفرة، والمغفرة: التغطية للذنب بإيجاب المثوبة، والمغفرة من الله: هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب.

﴿قَضَيۡتُم﴾: من قضى، والقضاء: فصل الأمر قولاً كان ذلك أو فعلاً وقضيتم مناسككم فرغتم منها وانتهيتم...

﴿مَّنَٰسِكَكُمۡ﴾: من النُسك: وهي العبادة، والناسك: هو العابد واختص بأعمال الحج، والمناسك: مواقف النسك وأعمالها.

﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾: كل ما يمجّد الله ويعظّمه من تهليل وتسبيح وتحميد ودعاء...

﴿ءَاتِنَا﴾: أعطنا.

﴿خَلَٰقٖ﴾: نصيب.

﴿حَسَنَةٗ﴾: الحسنة: يعبّر بها عن كل ما يُسرّ من نعمة تنال الإنسان في نفسه وبدنه وأحواله.

﴿وَقِنَا﴾: من وقى، والوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره.

﴿نَصِيبٞ﴾: النصيب: هو الحظ المنصوب أي المعيّن.

﴿كَسَبُواْۚ﴾: كسب الشيء: جمعه، وكسب المال: طلبه وربحه وكذلك اكتسبه.

﴿سَرِيعُ﴾: السرعة: ضد البطء.

التفسير

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لا حرج عليكم ولا إثم ينالكم في أن تطلبوا رزقاً من ربكم بالتجارة والصناعة والكراية وهذا الرفع للإثم لتخيل أن الحج عبادة يفسدها العمل بالتجارة وما أشبه ذلك وقد تأثم بعضهم أن يتعاطى مثلها ظناً منه ـ أو منهم ـ أن هذه المعاملات يقع فيها المنازعة والجدال وتؤدي إلى ما نهي عنه سابقاً من ترك الجدال ـ فلرفع هذا التوهم أو الظن جاءت الآية الكريمة لتبيح للمسلم الحاج أن يمارس التجارة وما يكتسب به... نعم إذا كانت هذه المعاملة لا تضر في حفظ الإخلاص لله في هذه العبادة وعدم وقوع شيء من المحرمات التي تفسدها أو تضرّ بها وقد اعتاد أرباب الحملات الذين يتولون إدارتها وترتيب شؤون أفرادها أن يمارسوا الحج عن أنفسهم أو عن الآخرين نيابة دون أن يستنكر عليهم أحد من أهل العلم فعلهم أو يزجرهم عنه وهذا نوع من أنواع المعاملات.

﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ فإذا خرجتم من عرفات مندفعين فاذكروا الله بالتهليل والتكبير والتسبيح وما جرى على ألسنتكم من الأدعية التي تتزودون بها الأجر والثواب وقضاء الحاجات.

﴿ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ وهي المزدلفة التي يجب الوقوف فيها بمقتضى وجوب ذكر الله فيها...

وفي هذه الآية تصريح واضح أنه يجب أن يكون الحاج في عرفة حتى يفيض منها وقد حدّدت السنة الشريفة وجوب البقاء في تلك البقعة الشريفة من ظهر يوم التاسع من شهر ذي الحجة عند الزوال إلى غروب الشمس.

كما أن في هذه الآية أيضاً بيان بوجوب الكون في المشعر الحرام ـ المزدلفة ـ جَمْع ـ حتى يقوم الإنسان بما أُمِر به من الذكر وهذا أيضاً من الأركان التي

يجب أن يكون فيها الحاج من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ليلة العاشر من ذي الحجة. . .

﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ اذكروه ذكراً حسناً يتناسب مع هدايته لكم هداية حسنة، فالله هدانا إلى دينه وشرائعه وإلى كل خير وهذا وغيره يناسبه الذكر الحسن الجميل اللائق بهذه الهداية بجميع أفرادها. . .

أو أن هدايته لكم توجب عليكم أن تذكروه بما يليق به وما هو من شأنه وجدير بمقامه العظيم. . .

﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ تذكير لهذا الإنسان بنعم الله ـ وأهم نعمه هدايته إلى دينه ـ فقد كنتم قبل هدايته إلى الدين وأحكامه من الضالين المنحرفين الجاهلين الذين لا معرفة لهم في عقيدة صحيحة ولا في شريعة كريمة ولكنه سبحانه منّ عليكم ببعثة النبي ﷺ وأرسل معه الكتاب وكلّفه بنقل السنة وما فيه هداكم وسعادتكم في الدنيا والآخرة. . .

﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩﴾ هذا تصحيح لسلوك خاطىء كان يمارسه بعض الناس في زمن النبي(ص) وقد وردت الرواية أن قريشاً وحلفاءها من الحُمس ـ وهم المتشددون في دينهم ـ لا يقفون مع الناس بعرفات ولا يفيضون منها ويقولون نحن أهل حرم الله تعالى فلا نخرج من الحرم فيقفون بالمشعر ـ المزدلفة ـ ويفيضون منه فأمرهم الله تعالى أن يقفوا بعرفات ويفيضوا منها. . .

وهذه شرعة من شرائع الله يتحوّل الناس أمامها إلى وحدة متساوية لا يتفاوت أفرادها فيها كما لا يتفاوتون أو يختلفون في غيرها من التكاليف. .

ثم أكّد سبحانه على الاستغفار في ذلك المشعر المعظّم. والاستغفار: طلب المغفرة عن كل زلة أو عثرة مما يغضب الله ثم أطمعهم أخيراً في قبوله لاستغفارهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فهو يغفر الذنوب مهما كانت كبيرة أو كثيرة إذا صدق المستغفر في نيته وعمله وحقّق مضمون هذا الاستغفار في عمق

نفسه وما أروع كلام الإمام علي عليه السلام في الاستغفار حينما قال قائل بحضرته: استغفر الله: فقال له[1]: ثكلتك أمك أتدري ما الاستغفار؟

الاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معانٍ.

أولها: الندم على ما مضى.

الثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً.

الثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة.

الرابع: أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها.

الخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد.

السادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول: «استغفر الله».

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ إذا انتهيتم من أعمال الحج وأفعاله فاذكروا الله كما تذكرون آباءكم وكما تتفاخرون بهم وبمآثرهم..

وقد قالوا: إن عادة العرب إذا قضوا مناسكهم يقفون عند الجمرة بمنى فيتفاخرون بالآباء ويذكرون أيام أسلافهم من بسالة وكرم حتى أن الواحد منهم ليقول: اللهم إن أبي كان عظيم القبة عظيم الجفنة كثير المال فاعطني مثل ما أعطيته فلا يذكر غير أبيه، فنزلت الآية.

وقد يراد معنى آخر إذا لم نأخذ بأسباب النزول وهو أن الأبناء لا ينسون آباءهم طيلة حياتهم حتى لو أصبحوا رجالاً وتمتعوا بكل ما في الدنيا فإن صورة الأب

(١) نهج البلاغة: الكلمة ٤١٧.

وحركاته والرحمات التي تلاحقه من جانب الابن كلها تجعله حياً في ذاكرته وفي وجوده فيكون الأمر بذكر الله أن يكون الحاج بعد انتهاء مراسم حجّه وأعماله أن يبقى على ذكر الله مستمراً عنده لا ينقطع كما لا ينقطع ذكر أبيه عنه أبداً.

﴿أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾ أو اجعلوا ذكر الله أشد وأكثر من ذكر آبائكم، إما لأن آباءكم أصحاب صفات محدودة معدودة وصفات الله لا تحدّ ولا تعدّ فذكره يجب أن يكون أكثر أو كما قيل: إن النفوس تتفاوت في مراتب القبول فإن منهم من لا يخلو عن الذكر طرفة عين ومنهم من لم يخطر بباله ذكر ربه إلا أن ينبهه غيره وبينهما مراتب كثيرة، ولذا ردّد في خطابهم فقنع من قوم بذكرٍ كذكر آبائهم كالعوام، ومن قوم أشد من ذلك كالخواص..

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ قسّم سبحانه الذاكرين إلى قسمين ونبّه على الخطر اللاحق بالقسم الأول والنعيم والخير اللاحق بالقسم الآخر.

وفي هذا تعليم لنا وتدريب كيف يكون الطلب وما هو المطلوب لنا...

بعض الناس يريد الدنيا ويدعو الله أن يعطيه منها فحسب.. إنه يريد الحشم والخدم والمال والجاه والسلطان.. يريد الدنيا للدنيا ولم يمتد بصره لأكثر منها بحيث يشمل الآخرة ولهذا لم يبيّن الله أنه يعطيه ما يريده أو يحقق له مطلوبه فقد يعطيه بعضها وقد يمنعه عن بعضها الآخر كما أنه سبحانه لم يذكر متعلق الدعاء والقول تصغيراً لشأنه وتحقيراً له لأنه للدنيا ويبقى فيها لا ينتقل منها إلى الآخرة.

ورتّب الله لهذا الداعي والطالب للدنيا أمراً رهيباً أنه سبحانه حرمه من الآخرة ولا نصيب له فيها، لا لأن الله يريد ذلك بل لأن هذا الإنسان اقتصر على دنياه ولم يمتد بصره إلى الآخرة ليعمل لها ويطلب ما فيها فكان هذا الحرمان العظيم لنعيم الآخرة وما فيها من خيرات...

ثم إنه سبحانه ذكر لنا الصنف الثاني إنه الصنف الأبعد نظراً والأعمق غوراً والأدق فكراً الذي يرى الأمور على حقيقتها، فهو يعيش الآن في الدنيا وغداً في الآخرة فهو يفكر أن يعيش في دنياه عزيزاً وفي آخرته كريماً سعيداً ومن هنا لا يقتصر نظره على الدنيا ولا يحبس نفسه عليها بل هو الكبير الذي يسع الدنيا والآخرة ويريدهما معاً فلذا يتوجه إلى الله بالدعاء بقوله:

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ والحسنة بمفهومها العام تشمل ملذات ومسرات النفس والروح والجسد بكل مصاديقها وأفرادها سواء كانت زوجة أو مالاً أو ولداً أو علماً أو فكراً أو راحة بال أو أمن واطمئنان وسلامة.. إن كل خير هو حسنة وكذلك ينفذ بصر هذا الإنسان من حدود الدنيا وقيودها ليمتد إلى الآخرة فيروح في دعائه قائلاً:

﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ كذلك يطلب نعيم الآخرة وما فيها من حور عين وولدان مخلدين وما فيها من ذهب وحرير وفاكهة وقرة عين ثم يطلب من الله الحماية والوقاية من عذاب النار وآلامها.. إنه يطلب النعيم ويدفع ما فيه العذاب الأليم...

﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴿٢٠٢﴾﴾ «أولئك» إما يرجع إلى الأقرب وهم القائلون ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

وإما يشمله والأول يكون للداعي نصيب مما شمله دعاؤه، من دعا للدنيا فحسب نال منها ومن دعا للآخرة نال منها فكل وما دعاه فإنه يحصل منه بحسب المصلحة...

وقد وردت الأحاديث عن أهل البيت في هذا المعنى ففي الحديث عن أبي جعفر عليه السلام قال[1]: ما يقف على تلك الجبال (المناسك في الحج) بر ولا فاجر

(١) وسائل الشيعة، كتاب الحج، باب ١٧ من أبواب إحرام الحج، حديث ٤.

إلا استجاب الله له فأما البر فيستجاب له في آخرته ودنياه وأما الفاجر فيستجاب له في دنياه.

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ كل شيء حاضر عنده يحاسب عليه ويجازي به، والسرعة في الحساب لئلا يفوت الانتفاع لصاحب الأجر ولئلا يتأخر عذاب من يستحق العذاب.

فوائد

١ - التجارة في الحج مباحة وليست بحرام وهذا نص صريح في هذا المعنى ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ فإن ما احتمله بعضهم من الحرمة يُنفى بهذا النص ومن هنا يرتفع ما في أذهان العوام من الناس من حرمة مثل ذلك..

٢ - سميت عرفات بعرفات قيل: لأن إبراهيم عليه السلام عرفها بعد وصفها له.

وقيل: لأن آدم وحواء اجتمعا فيها وتعارفا. وقيل: سميت عرفات لاعتراف الناس بذنوبهم فيها. وقيل: لعلوها وارتفاعها ومنه عرف الديك لارتفاعه.

٣ - ﴿ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ سمي مشعراً - مفعلاً - من الشعارة وهي العلامة: لأنه معلم للعبادة ويقال له: «المزدلفة» لازدلاف الناس: أي دنوهم من بعضهم، ويقال له: «جُمع» إما لاجتماع آدم وحواء فيه أو للجمع بين الصلاتين فيه.

٤ - سمي يوم عرفة بأسماء منها: اليوم المشهود، الشاهد، يوم الحج الأكبر.

٥ - يستحب الدعاء يوم عرفة بل يستحب الجدّ فيه والاشتغال بالعبادة وأن يكون الدعاء لنفسه وأهله وإخوانه. وقد ورد في الحديث الصحيح عن علي بن إبراهيم[1] عن أبيه قال: رأيت عبد الله بن جندب بالموقف فلم أر موقفاً كان

(١) وسائل الشيعة، كتاب الحج، باب ١٧ من أبواب الوقوف بعرفة، حديث ١.

أحسن من موقفه ما زال ماداً يده إلى السماء ودموعه تسيل على خديه حتى تبلغ الأرض فلما انصرف الناس قلت: يا أبا محمد ما رأيت موقفاً قط أحسن من موقفك!

قال: والله ما دعوت إلا لإخواني وذلك لأن أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام أخبرني أنه من دعا لأخيه بظهر الغيب نودي من العرش ولك مائة ألف ضعف مثله فكرهت أن أدع مائة ألف ضعف مضمونة لواحدة لا أدري تستجاب أم لا . . .

كما يكره أن يسأل الناس بل يضع نصب عينيه دعاؤه لله وفي الحديث عن محمد بن علي بن الحسين عليه السلام قال: سمع علي بن الحسين عليه السلام يوم عرفة سائلاً يسأل الناس فقال له: ويحك أغير الله تسأل في هذا اليوم؟ إنه ليرجى لما في بطون الحبالى ـ الجبال ـ في هذا اليوم أن يكون سعيداً. . .

٦ ـ عرفات والمزدلفة ركنان في الحج من لم يدركهما ولم يدرك موقفهما الاضطراري بطل حجُّه وعليه قضاؤه من قابل بعد إتمامه الآن. . .

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿مَعْدُودَاتٍ﴾: معيّنات بالعدّ أو قليلات لأن القليل يسهل عدّه.

﴿تَعَجَّلَ﴾: واستعجل بمعنى عجل يجيئان مطاوعين، فيقال: تعجل في الأمر واستعجل ومتعدين، يقال: تعجل الذهاب واستعجله (الكشاف).

وعلى كل حال.. العجلة طلب الشيء وتحريه قبل أوانه (كما ذكره الراغب).

﴿الْإِثْمِ﴾: جمعه الآثام: وهو الذنب الذي يستحق صاحبه عليه الملامة.

﴿اتَّقَى﴾: من وقي، والوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، والتقوى: جعل النفس في وقاية مما يخاف.

﴿تُحْشَرُونَ﴾: من الحشر: وهو إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها وسمي يوم القيامة يوم الحشر كما سمي يوم البعث ويوم النشر فتُحشرون: أي تُجمعون...

التفسير

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ وردت الأحاديث في تعيين هذه الأيام المعدودات وهي أيام التشريق يوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحجة أي الأيام الثلاثة بعد يوم النحر ـ بعد يوم العيد ـ.

ـ في الحديث عن حمّاد بن عيسى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: قال علي عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ قال: أيام العشر، وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ قال: أيام التشريق.

والمراد بذكر الله هنا هي التكبيرات بعد الصلوات وقد وردت الرواية في ذلك.

ـ عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله[1] عن قول الله عزّ وجل ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾.

قال: التكبير في أيام التشريق، صلاة الظهر من يوم النحر إلى صلاة الفجر من اليوم الثالث. وفي الأمصار عشر صلوات فإذا نفر الناس النفر الأول أمسك أهل الأمصار. ومن أقام بمنى فصلى بها الظهر والعصر فليكبر. . .

وأما التسبيحات فقد وردت بها الأحاديث وصورتها: «الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أولانا والله أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام».

وهذه التسبيحات عندنا مستحبة وما ورد من الأمر بها هنا يحمل على الاستحباب.

﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ هـــذا

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب الحج، باب ٨ من أبواب العود إلى منى، حديث ٥.

حكم فيه توسعة على الناس إذا كانت الأمور طبيعية وتجري كما هو مرسوم لها بدون مخالفات شرعية، كما سنذكر ذلك..

والحكم هنا التخيير وتساوي الأمرين فمن تعجّل في يومين فلا إثم عليه - أي نفر من منى بعد يومين من يوم النحر - من يوم العيد - إذا كان قد رمى الجمار وزالت الشمس يوم الثاني عشر فهذا هو النفر الأول يتساوى مع - من تأخر عنه إلى يوم الثالث عشر - بأن بات ليلة الثالث عشر فيجب عليه أن يرمي الجمار يوم الثالث عشر ثم يرحل...

وقد اشترطت الآية لنفاذ هذا الحكم وتساوي فرديه بالتخير بينهما أن يكون قد اتقى إحرامه ولم يرتكب - الصيد والنساء - كما حددتهما السنة الشريفة، فإذا ارتكب الحاج أحد الأمرين تعيّن عليه أن يبيت ليلة الثالث عشر ويرمي الجمار صبيحة تلك الليلة وينتفي التخيير المذكور.

وبهذا جاءت السنة الشريفة:

- في الحديث عن معاوية بن عمار عن أبي[1] عبد الله عليه السلام قال: إذا أردت أن تنفر في يومين فليس لك أن تنفر حتى تزول الشمس وإن تأخرت إلى آخر أيام التشريق وهو يوم النفر الأخير فلا شيء عليك أي ساعة نفرت قبل الزوال أو بعده.

هذا إذا كان قد أتقى وأما إذا لم يكن قد اتقى فعليه البقاء إلى يوم الثالث عشر أي إلى النفر الثاني، والإتقاء يجب أن يكون من النساء والصيد وقد وردت الرواية بذلك.

في الحديث عن أبي عبد الله[2]: قال: مَنْ أتى النساء في إحرامه لم يكن له أن ينفر في النفر الأول.

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب الحج، باب ٨ من أبواب العود إلى منى، حديث ٤.
(٢) وسائل الشيعة، كتاب الحج، باب ٩ من أبواب العود إلى منى، حديث ١.

وفي الحديث الآخر عن أبي عبد الله عليه السلام[١] في قول الله عزّ وجل ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ لمن اتقى الصيد يعني في إحرامه فإن أصابه لم يكن له أن ينفر في النفر الأول...

ثم إن الآية حدّدت النفر الأول بأن يكون في اليوم الثاني فلو تأخر ولم ينفر حتى أدركه المغرب وجب عليه أن يبيت في منى ثم يرجم الجمرات الثلاث، وفي ذلك وردت الرواية.

ففي صحيحة الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال:[٢] من تعجّل في يومين فلا ينفر حتى تزول الشمس فإن أدركه المساء بات ولم ينفر.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ اتقوا الله في اجتناب سخطه ومعاصيه واعلموا أنكم إليه تحشرون وتحاسبون فإما إلى الجنة أو إلى النار ومن عرف ذلك ووقف عليه أتقى الله وأصلح عمله وسار في طريق السداد...

فائدتان

١ ـ قيل: إن قوله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ جاء لأن قوماً في الجاهلية كانوا يتأثمون بالتعجيل وآخرون يتأثمون بالتأخير فجاء القرآن ليرفع الإثم عنهما معاً.

٢ ـ سميت «منى» بمنى لما يمنى فيها من الدماء أي يصبّ ويراق حيث يذبح الحاج هديه فيها...

(١) وسائل الشيعة، كتاب الحج، باب ١١ من أبواب العود إلى منى، حديث ١ ـ ٢.
(٢) المصدر نفسه.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾.

اللغة

﴿يُعْجِبُكَ﴾: من الإعجاب: وهو السرور بالشيء استحساناً له.

﴿قَوْلُهُۥ﴾: كلامه الذي يتحدثه.

﴿يُشْهِدُ﴾: يقر، من الإشهاد: وهو الإقرار بالشيء ليشهد به المقر عنده.

﴿أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾: اللدد: شدة الخصومة، الألد: الشديد الخصومة والخصام: هي المخاصمة ويجوز أن يكون جمع خصم.

﴿تَوَلَّىٰ﴾: أدبر وانصرف.

﴿سَعَىٰ﴾: السعي: المشي السريع وهو دون العدو، ويستعمل للجدّ في الأمر خيراً أو شراً.

﴿لِيُفْسِدَ﴾: من الفساد: وهو خروج الشيء عن الاعتدال قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً، ويضاده الصلاح ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة.

﴿يُهْلِكَ﴾: من الهلاك: وهو على ثلاثة أوجه:

١ ـ افتقاد الشيء عنك وهو عند غيرك.

٢ ـ استحالة الشيء وفساده.

٣ ـ الموت.

﴿الْحَرْثَ﴾: الزرع.

﴿وَالنَّسْلَ﴾: الذرية والولد وأصله الخروج بسرعة، وسُمّي نسلاً لأنه ينسل: أي يسقط من بطن أمه بسرعة.

﴿أَخَذَتْهُ﴾: من الأخذ: وهو حوز الشيء وتحصيله، وذلك تارة بالتناول وتارة بالقهر ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ يعني حملته ودفعته.

﴿الْعِزَّةُ﴾: الإنفة والحمية وأصلها حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب.

﴿الْإِثْمِ﴾: جمعه آثام: وهو الذنب الذي يستحق عليه صاحبه الملامة.

﴿حَسْبُهُ﴾: حسب: اسم فعل بمعنى يكفيه.

﴿الْمِهَادُ﴾: الفراش الممهد للنوم.

التفسير

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ﴾ بعد بيان القسمين الماضيين وهما الكفار والمؤمنون ـ وكيف يتطلع أحدهما إلى الدنيا ويقصر نظره عليها وكيف يتطلع الآخر إلى الآخرة ويجعل الدنيا مزرعة لها.

بعد ذلك يذكر سبحانه هنا حال المنافقين.. والمنافق يلبس شخصية المؤمن ظاهراً وقلب الكافر وفعله واقعاً، ومن هنا يُحمل النص القرآني على كل إنسان كانت فيه هذه المواصفات، كما يجتاز النص حدود الشخص الذي نزل فيه ليشمل كل من اجتمعت فيه هذه الصفات..

إنها صورة واضحة المعالم نرى الكثير منها في واقعنا بل تمر علينا ونعيشها حية في كثير من الرموز والشخصيات التي تحتل أعلى المراتب في الدنيا...

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾ تأنس نفسك بما يقول ويروقك كلامه وترتاح لكل كلمة يتكلم بها... إنه يمتلك ناصية الكلام بأسلوبه العذب الطري السلس الناعم.. تستطيع أن تشرب مع كلامه كل عذاب وكدر لأنه يحوّل ذلك أمامك إلى ماء عذب صافي نظيف... إنه يمتلك قوة بيانية رهيبة إذا تحدث في أمور الدنيا وما في الدنيا. وفي أمور الدين وما في الدين... وكم من شاهد صدقٍ نعيشه في حياتنا يحكي هذه الصورة القرآنية... إذا تحدث في أمور الدنيا فهو الطبيب الحاذق وإذا تحدث في أمور الدين فهو العالم الخبير المحنّك وفوق ذلك وزيادة عليه يحاول لإثبات صدق ما يقول أن يُشهد الله على ما في قلبه وإنّ ما نطق به لسانه وتحركت به شفتاه يتطابقان مع ما في قلبه وأنه لا ينطق بلسانه إلا بما في قلبه.. إنه يقول: أشهد الله أن ما أقوله هو ما في قلبي... إنه يريد أن يقرن دعواه اللسانية بما يصدّقها ولا يجد إلا الله يُشهده على صدق دعواه وعلى ما قاله ونطق به...

ولكن هذا الرمز المتحقق في أفراد كثيرين في المجتمع لا يعيش الحقيقة وواقع ما يتكلم به ويُشهد الله عليه، بل يعيش ظاهراً هكذا ولكنه في الواقع هو أشد الخصام أشد الناس عداء وخصومة للنبي والمسلمين ومَنْ تابعهم إلى يوم الدين... إنه عدوّ لدود، شديد في عداوته عنيف في جداله ومخاصمته وعدائه.

وإذا تولّى عنك وانصرف عن مشاهدتك وغاب عن عينك كانت هناك الطامة الكبرى... إنه يكشف عن خبيثته ويُظهر حقيقته... إنه إذا انصرف عنك سعى في الأرض، وتحرك فيها ليفسد فيها ويمارس كل خراب ودمار سواء كان على مستوى العقيدة فيروح ينشر الشك والبلبلة والاضطراب أم على مستوى الشريعة فيأمر بالمنكر بدل المعروف... إنه يفسد في الأرض، والفساد تخريب للدين وللدنيا ومن مصاديقه تخريب الدنيا الذي يحمل معه أيضاً تخريب الدين لكونه معصية لا يرضاها الله.

﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ﴾ الزرع وما أنبتت الأرض يحرقه ويتلفه بدون حق وكذلك ﴿وَٱلنَّسْلَ﴾ يقتل من يقع تحت يده من أولاد أو من ناس رجالاً كانوا أم نساء لأنهم كلهم أولاد آدم ونسله. . . ولزيادة المقت لهذا الرجل وفعله.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ لا يرضى به ولا يقبل بوقوعه وسيعاقب عليه.

ثم يحكي الله حركة هذا الإنسان وفعله وما يتصرف به إذا أُمِر بتقوى الله. . . إنها صورة مشوّهة لهذا الإنسان تحكي انحرافه بأبلغ بيان. . . صورة هذا الانحراف الذي يمارسه ويتحرك فيه وفي مواجهة هذا الانحراف كان من الطبيعي أن يتحرك الطيبون وأصحاب الإيمان بدافع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. . من منطلق الواجب الملقى عليهم في ردع المنحرف وردّ الضال ويتوجهون إليه بقولهم له: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ اجعل لنفسك من عذاب الله وقاية ولا تُغضب الرب عليك فيعاقبك. . . إنها مقولة طيبة من أجل صالحه وما ينفعه. . وحقه أن يتقبّلها ويشكر من حملها إليه ثم يفكر فيها ويرتدع عما هو عليه. . من حق الكلمة الطيبة أن تُثني هذا الإنسان عما هو عليه من ضلال إن بقي عنده بقايا من خير.

ولكنّ هذا الإنسان الذي تعرّى من كل خير ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ إن شدة الإثم والانحراف دفعنه إلى أن يعتز بنفسه ويرفض النصيحة ويصرّ على مواقفه العاصية المتمردة. . . إنه أكبر وأعظم من أن يؤمر بتقوى الله فلذا يشتد في مواقفه السابقة ويصرّ عليها ويزداد إمعاناً في ضلاله وانحرافه. . .

وإن هذه العزّة بالإثم تأخذ الكثيرين ممن تولّوا أمور الأمة وتقلدوا المناصب الرفيعة فيها. إن المناصب فوق الأمر بتقوى الله. . . إن كراسي الحكم لا تقبل كلمة ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ومن فعل ذلك معهم وواجههم بها واجهوه بزيادة العلوّ والعتوّ والتمرد وأكثروا مما كانوا فيه واشتدوا في باطلهم واستمروا في الضلال. . .

ولكن هؤلاء الذين لا يقبلون ولا يتقبلون الأمر بتقوى الله وتأخذهم العزّة

بالإثم لن يتركوا في الآخرة إذا أمهلهم الله وأخّر أخذهم في الدنيا... إن الله سيلاحقهم بعذابه.

﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ إن جهنم هي الكافية له والشافية لمرضه... تكفيه جهنم وبئس الفراش هي والمقام... إنها جهنم تنتظره سيلقى فيها وهي تكفيه وتكفّه عن كل شر وتمرد وانحراف...

فوائد

١ - إن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قيل: إنها نزلت في الأخنس بن شريق أتى النبي ﷺ فأظهر له الإسلام وحلف أنه يحبه وكان منافقاً حسن العلانية خبيث الباطن، ولما خرج من عند النبي(ص) مرّ بزرع لقوم مسلمين وحمر فأحرق الزرع وعقر الحمر فأنزل الله فيه الآيات...

٢ - نستفيد من الآيات أنه ليس كل من أعطى بلسانه شيئاً جميلاً معجباً يكشف ذلك عن قلبه، فلربما خالف الظاهر الواقع والسر العلن...

٣ - إن من رأى منكراً فعليه أن يأمر بتقوى الله بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فلا بد له من آمر بالتقوى.

٤ - على المأمور بتقوى الله أن يتقبّل ذلك ويرضاه ولا يتعصب لرأيه ويُصرُّ على مواقفه الآثمة.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧)﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿يَشْرِي﴾: يبيع، والشراء والبيع يتلازمان فالمشتري دافع الثمن وآخذ المثمن والبائع بالعكس، هذا إذا كانت المبايعة والمشاراة بناض وسلعة وأما إذا كانت بيع سلعة بسلعة صحّ أن يكون كلاً منهما بائعاً وشارياً وصار لفظ البيع والشراء يستعمل كل منهما موضع الآخر.

﴿مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾: رضاه، يقال: رضي يرضى رضاً ومرضاة.

﴿رَءُوفٌ﴾: الرأفة: هي الرحمة، وهي عند الله تعني الثواب والعطاء.

التفسير

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ نزلت هذه الآية في الإمام علي عليه السلام عندما أمره النبي صلى الله عليه وآله أن ينام مكانه ليلة الهجرة - إلى المدينة - وهي منقبة عظيمة تحكي قصة هذا الرجل الكبير. . . إنها تنضح بالحقيقة الناصعة التي يتمتع بها ابن أبي طالب وتكشف عمق الإخلاص والمحبة لله. . .

- ومن الناس - طبعاً وليس كلهم.. إنه علي ومَنْ على طريقته في الإخلاص والتوجه إلى الله.

﴿مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ أي يبيعها لطلب الرضا من الله... إنه يبذل نفسه من أجل أن يحصل على رضا الله.. إن غايته من وراء بيع نفسه أن يدرك رضا الله...

وهذه الآية وإن نزلت في الإمام علي ﷺ وكان مصداقها المجلّي وصاحب الرقم القياسي في الإخلاص لله ولكنها تجري في كل مجاهد يقدّم نفسه في سبيل الله وتحقيق رضاه كما تجري في كل آمر بالمعروف وناهٍ عن المنكر يواجه المنحرفين ويبذل نفسه في سبيل تغيير المنكر وتثبيت جذور المعروف...

ثم كان تعقيبها بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ إنه يعطف عليهم ويحفظهم من أعدائهم كما فعل بالإمام علي ﷺ، حيث حفظه من أعدائه ليلة المبيت.

وسأقتصر على ما رواه الثعلبي في تفسيره وأنقل نص ما كتبه هناك وأجعل من أراد التفصيل على جملة ممن ذكر ذلك وهم كُثُر أذكر منهم الحافظ أبو نعيم الغزالي في باب الإيثار من كتابه الأحياء، والإمام أحمد في مسنده بطريق صحيح والحاكم في مستدركه وصحّحه مسلم والنسائي، ومن أراد الاستيعاب بشكل كامل فعليه بكتاب الغدير للعلامة الأميني، فإنه قد أتى بكل جميل وبما يروي الظمآن ويغيث اللهفان...

وأما الثعلبي فروايته هي: لما أراد النبي ﷺ الهجرة خلّف علياً ﷺ لقضاء ديونه وردّ الودائع التي كانت عنده وأمره ليلة خروجه إلى الغار - وقد أحاط المشركون بالدار - أن ينام على فراشه وقال له: يا علي اتّشح ببُردي الحضرمي ثم نم على فراشي فإنه لا يخلص إليك منهم مكروه إن شاء الله.

ففعل ما أمره به، فأوحى الله عز وجل إلى جبرائيل وميكائيل: إني قد آخيت بينكما وجعلت عُمْرَ أحدكما أطول من الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة؟

فاختار كل منهما الحياة فأوحى الله عز وجل إليهما، ألا كنتما مثل علي بن أبي طالب آخيت بينه وبين محمد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدُوه، فنزلا فكان جبرائيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجبرائيل يقول: بخ بخٍ من مثلك يا علي بن أبي طالب يباهي الله بك ملائكته. فأنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ وهو متوجه إلى المدينة في شأن علي بن أبي طالب عليه السلام ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩)﴾.

اللغة

﴿السِّلْمِ﴾: والسلامة: التعرّي من الآفات الظاهرة والباطنة، والسّلام والسّلْم والسِّلْم: الصلح، وأصل السلم: الانقياد...

﴿كَافَّةً﴾: جميعاً، من الكف: وهو المنع، وتسمى الجماعة كافة لامتناعهم عن التفرق...

﴿تَتَّبِعُوا﴾: من تبعه: إذا قفا أثره.

﴿خُطُوَاتِ﴾: جمع خطوة: وهي المسافة بين القدمين عند المشي وتستعمل مجازاً في تتبع الآثار.

﴿زَلَلْتُم﴾: من زل والزلّة في الأصل استرسال الرجل من غير قصد والزلة: المكان الزلق، وقيل: للذنب من غير قصد زلة تشبيهاً بزلة القدم.

﴿الْبَيِّنَاتُ﴾: جمع بيّنة، من بان الشيء يبين: إذا وضح وظهر، والمقصود بالبينات هنا هي الحجج والدلائل.

﴿عَزِيزٌ﴾: العزيز: هو الذي يَقهر ولا يُقهَر.

﴿حَكِيمٌ﴾: فاعل الحكمة: وهو واضع الأمور في مواضعها.

التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ خطاب إلى الذين آمنوا زمن النبي(ص) ثم بوحدة التكليف بين الماضين والحاضرين، ومن سيحضر يعمّ الخطاب الجميع ويشملهم النداء ليستجيبوا لصوت الله...

﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ ادخلوا في طاعة الله واعملوا بأمره... ادخلوا عملاً وسلوكاً وحركة فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واجتنبوا الخيانة وأدّوا الأمانة وأعينوا الناس وانصروا المظلوم وادفعوا الظالم، وهكذا في كل أمر فأقيموه وفي كل نهي فانتهوا عنه، يعني ادخلوا في كل السلم وفيه كله لا أن تؤمنوا ببعض وتتركوا البعض الآخر، هذا بناء على أن ﴿كَآفَّةٗ﴾ راجعة إلى ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾ كونوا مجتمعين جميعاً موحدين تحت راية الإسلام معتصمين بحبله ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾[1] فهو أمر للمؤمنين أن يكونوا عصبة واحدة، كلهم على قلب واحد فلا يتنازعوا أو تدخل الشحناء إلى قلوبهم فتفرّقهم وتمزق جمعهم، وهذا المعنى يؤيده ذكر ما تقدم من تقسيم الناس إلى مؤمنين ومنافقين، وأيضاً يؤيده ما يأتي بعد هذه الآيات من أن الناس كانوا أمة واحدة ثم دبّ الخلاف بينهم ـ وهذا بناء على أن ﴿كَآفَّةٗ﴾ ترجع إلى المأمورين وهم الذين آمنوا أي ادخلوا كافة ـ أي جميعاً.

وهذا المعنى هو الظاهر من هذه الآية ـ والله أعلم بمراده ـ وقد شرّق بعضهم أو غرّب في تفسير الآية حتى بلغت الوجوه التي ذكرها لتفسيره ضمن الاحتمالات التي احتملها بين ﴿كَآفَّةٗ﴾ وقراءة السلم ومشتقاتها وما تتضمنه من معانٍ بلغت

(١) سورة الأنفال/ ٤٦.

أربع وعشرون احتمالاً وبعضها لا يليق بكلام رب العالمين ويأباه أدب الخطاب وتنكره سليقة العربي الذي نزل بلسانه ومن أجل أن يفهمه ويستوعب مدلوله ومعناه. . .

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ نهي عن مخالفة الله المؤدي إلى اتباع خطوات الشيطان واقتفاء أثره والسير وراءه. . .

لا تقتفوا أثر الشيطان في معصية الله والتمرد على أوامره. . فهذه قرينة على أن المراد ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ﴾ يراد به الدخول في طاعة الله فيكون النهي تأكيداً للدخول ولكن بصيغة النهي عن ضده. . .

ثم زيادة في التنفير من اتباع خطوات الشيطان ذكر التعليل لهذا النهي وهو ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ عدو ظاهر لكم منكشف على حقيقته مظهر لعداوته. . إنه لكم عدو ومقتضى العداوة إنها تستنبطن الشر للآخرين وتتحيّن الفرص من أجل إيقاعهم فيما يضرهم ويفسد عليهم طاعتهم والتزامهم. . .

﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ إن سقطتم في الخطيئة وخالفتم أوامر الله وطاعته من بعد الحجج والآيات الصادعة بقوانين الشريعة وأحكامها.

﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فاعرفوا الحقيقة وقفوا عليها. . إن الله عزيز ممتنع بقوته وسلطانه لا يطاله شيء ويأخذ من يعصيه ويتمرد على حكمه، ولكن بحدود الاستحقاق دون زيادة أو ظلم. . .

وهذا ﴿فَإِن زَلَلْتُم. . .﴾ تخويف وترهيب من معصية الله ومخالفة أمره وما جاء به. . .

وطريقة الترهيب والترغيب هي الطريقة التي تتلاءم ونفسية هذا الإنسان وما يعيشه في الحياة فكثيرون من الناس يتخلّون عن الطيبات ولا تغريهم المباهج والملذات ولكن الخوف والفزع والعذاب والألم لا يتحملونه، فلذا ينفع معهم الترهيب والتخويف، وبعض الناس الآخرين يغريهم النعيم والحور العين فهؤلاء يجب أن يرغّبوا فيما يرغبون. . .

فوائد

١ ـ ورد عن أهل البيت في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ أي ادخلوا في ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وفي بعضها الآخر «هو ولايتنا».

أقول: لا شك أن ولاية علي عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام من صلب الدين، وهي شريعة من شرائع الله وقد، ورد عن النبي صلى الله عليه وآله الشيء الكثير في الحض عليها والتمسك بأهلها ومتابعتهم والسير خلفهم والاقتفاء لأثرهم فإن أهل البيت هم الطريق إلى الجنة وبهم النجاة من النار فلا غرابة أن يكونوا أظهر المصاديق لهذه الآية فيؤمر الناس بمتابعتهم. . .

٢ ـ هذه الآية تدعو بصراحة إلى السلم ـ أي إلى الصلح وعدم الحرب والمنازعة ـ تدعو المؤمنين جميعاً أن يدخلوا في السلم الذي يعني فيما يعنيه أن يسلم المؤمن من لسان أخيه ومن يده ومن كل إيذاء ويتحوّل المجتمع الإسلامي إلى مجتمع آمن مطمئن ينقاد الجميع فيه إلى حكم الله وإرادته وإلى ما يحب ويرغب. .

ولا يخفى أن المنساق من الآية بقطع النظر على السياق يوحي أنها دعوة إلى السلام بين المسلمين وغيرهم وأنها دعوة إلى المسلمين كي يدخلوا في السلم ـ عدم الحرب والقتال بل إلى الصلح والانقياد ـ وهذا المعنى لا بأس به بشكل عام إذا كان يحفظ الإسلام والمسلمين ويحفظ وحدة بلادهم ولا يسلبهم حقهم وحريتهم وكرامتهم وعزتهم. . .

٣ ـ لا يخفى أن كلمة ـ ﴿كَافَّةً﴾ إما أن ترجع إلى الأقرب وهو ﴿السِّلْمِ﴾ أي ادخلوا في السلم كله وجميعه وإما ترجع إلى المأمورين في قوله: ﴿ادْخُلُوا﴾ وهم المؤمنون ـ ادخلوا أيها المؤمنون جميعاً ـ وعلى الاختلاف في مرجعيتها يختلف المعنى كما تقدم في التفسير. . .

قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾.

اللغة

﴿يَنظُرُونَ﴾: ينتظرون.

﴿يَأْتِيَهُمُ﴾: من الإتيان: وهو المجيء والإقبال.

﴿ظُلَلٍ﴾: جمع ظُلّة: وهي سحابة تُظلّل ما تحتها.

﴿ٱلْغَمَامِ﴾: السحاب الأبيض الرقيق، من الغَمّ: وهو ستر الشيء.

﴿قُضِىَ﴾: الأمر، أي تم وفُرغ منه أي تم إهلاكهم وفُرغ منه.

﴿سَلْ﴾: فعل أمر من السؤال، والسؤال: استدعاء معرفة أو ما يؤدي إلى المعرفة، واستدعاء مال ما يؤدي إلى المال.

﴿ءَاتَيْنَٰهُم﴾: أعطيناهم.

﴿ءَايَةٍ﴾: علامة ودلالة.

﴿بَيِّنَةٍ﴾: واضحة ظاهرة.

﴿يُبَدِّلْ﴾: الإبدال والتبديل والاستبدال: جعل شيء مكان آخر، والتبديل: قد يقال للتغيير مطلقاً وإن لم يأت ببدله.

﴿نِعْمَةَ﴾: النعمة للجنس تقال للقليل والكثير وهي الحالة الحسنة وحدّها بعضهم بقوله: «المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير».

﴿شَدِيدُ﴾: قويّ.

﴿الْعِقَابِ﴾: العذاب يعقب الذنب.

التفسير

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ هذا تهديد ووعيد للذين خالفوا أمر الله ووقعوا في الزلل والخطأ وأنهم لا ينتظرون حتى يرتدعوا ويكفّوا عن المعصية والتمرد إلا أن يجيئهم أمر الله وقضاؤه من العذاب والهوان في السحاب الأبيض الكثيف الذي هو مظنة النفع وتجيء معه الملائكة ولكن إذا جاء أمر الله مع الملائكة وحملته الرسل إلى البشر عندها... ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ تمّ ونفذ ووقع عليهم العذاب ولا يمكن إنقاذ أنفسهم أو خلاصها وبعبارة أخرى موجزة لا ينتظر هؤلاء المجرمون إلى أن يأتي أمر الله يأخذهم، وإذا جاء أمره يأتي من حيث مظنة النفع حيث تظهر السحب فتصبّ العذاب عليهم وينتهي أمر الله بأخذهم...

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ كل ما يقع ويحدث يعود أمره إلى الله فهو الذي يفصل فيه، فمن عمل صالحاً فمصيره إلى الجنة ومن عمل سوءاً فمصيره إلى النار... الأمور بيد الله هو الذي يحكم فيها ويفصل فيما بينها وأيضاً هذا يحمل نوعاً من الوعيد والتهديد...

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ أمر موجّه إلى النبي ﷺ أن يسأل بني إسرائيل عن الآيات الواضحات الكثيرات التي جاءتهم من الله عن طريق

موسى.. سلهم عن عصا موسى ويده البيضاء وانفجار الماء من الحجر الأصم وهكذا مما يدل على نبوته وصدق ما جاء به...

والسؤال يراد به توبيخهم وإسقاطهم وليس الاستفهام على حقيقته فإن الرسول يعلم بكل تلك الآيات وعنده المعرفة الكاملة بها، ولكن سؤاله لهم من أجل أن يقرّر في أذهانهم هذه الآيات وكيف أنكروها وخالفوها ولم يذعنوا بها أو يعملوا بمقتضى أمر الله من خلال الإيمان بها... إنها آيات واضحات جاءت لتثبت نبوة موسى ومن خلالها تلزمهم بامتثال أحكام الشريعة ولكنهم لظلمهم وتمردهم قابلوا هذه النعمة بالكفر والشك والتردد والعصيان.

﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ هذه نتيجة مترتبة على ذلك التمرد والعصيان.. حق النعمة إذا جاءت أن تقابل بالإيمان والشكر والعمل بمتطلباتها ومقتضياتها، ولكن هؤلاء بدّلوا نعم الله وعطاياه وما تستحقه من الشكر إلى إنكارها والكفر بها والعصيان والتمرد لمن جاء بها وحملها إليهم...

إنهم على طريق التمرد وتبديل نعم الله، ففي حين تأتي هذه الآيات لتحملهم على الإيمان إذ بهم يُحرّفونها ويؤوّلونها وتتحول عندهم إلى وسائل إضلال وانحراف ينالون على أثر ذلك جزاءهم المعدّ لهم ألا وهو أشد العقاب وأقواه، فإن الله إذا وقع عقابه بأحد كان عقاباً شديداً بما يتناسب والمعصية التي أقدم عليها ذلك المتمرد العاصي...

فائدتان

١ ـ لا يخفى أن قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ينتظرون، ومنه قوله تعالى: في قصّة ملكة سبأ عندما أرسلت بهديّتها إلى نبي الله سليمان فقالت: ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥].

٢ ـ باعتبار أن الله منزّه عن الجسميّة وعن الذهاب والمجيء، فقد فُسّر قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما يناسب المقام ومن المناسب إلا أن يأتيهم أمر الله بالعذاب وهكذا...

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢)﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿زُيِّنَ﴾: من زان الشيء: إذا حسّنه وزخرفه، وزانه: ضد شانه.

﴿وَيَسْخَرُونَ﴾: يستهزؤون.

﴿فَوْقَهُمْ﴾: باعتبار المكان العلوّ ويقابله تحت.

﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: يوم البعث والحساب حيث يقوم الناس لذلك.

التفسير

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ هذا تعليل لإقبال الكفار على الدنيا وخروجهم عن طاعة الله والالتزام بأمره، وفيه تنفير وتبعيد عن الدنيا التي تغر الناس وتحرّفهم عن حدود الله.

إنها حالة يعيشها الكفار ويتحركون فيها... فهم لا يعيشون الحياة الآخرة كرؤية عقيدية يستتبعها النظر إلى الدنيا على أنها حياة زائلة فانية لا تستحق أن

يخلق هذا الإنسان من أجلها أو يتكالب عليها أو يقطع من أجلها الأرحام ويستعبد الناس ويشن الحروب ويدمّر الحضارات. . .

إن الذين كفروا أخلدوا إلى الدنيا قَصَروا نظرهم عليها وتمنّعوا عن رؤية سواها فهي أمنيتهم وغايتهم وبيت القصيد عندهم. . . لقد فتحوا أعينهم عليها فأغشت تلك العيون وسلبت تلك القلوب وأَسَرَتْ كل حس فيهم فراحوا يطلبونها بشوق ويلهثون خلفها وخلف من هي بأيديهم. . إن الدنيا عند الكفار هي مطمح نظرهم وغاية بصرهم. . أحبوها فطلبوها، نعم إنهم طلبوها من أي جهة كانت وعن أي طريق تحققت.

إننا نعيش تهافت الكفار على الدنيا، ونرى كيف تحولت عندهم إلى غاية يتحركون وراءها بدون أي ضوابط تحكمها أو اعتبارات معنوية تهذّبها وتحولها لسعادة الناس جميعاً. . . حقيقة واقعة وصادقة تجد تحقيقها كيف ضربت بنظرك نحو هذه الجماعات الكافرة، ومتى وقعت يدك على واحد منهم تجد صدق هذه الآية وواقعيتها.

﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إن لهؤلاء الكفار سيرة سيئة. . إنهم يستهزءون من الذين آمنوا. . يغمزون من عقيدتهم ويسفّهون ما هم عليه من ورع وزهد وخوف من الله. . .

إنهم يطعنون في سيرتهم من حيث عدم حرصهم على الدنيا والبحث عنها بجشع ونهم. . .

إن هؤلاء الكفار يضحكون من سيرة المؤمنين حيث يتوقفون عند الحرام فيرمونهم بالجهل وقلّة العقل، وهنا يرد الله عليهم بقوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ﴾ عدل عن «الذين آمنوا» إلى «الذين اتقوا» إشعاراً بسبب الفوقية وعلّتها وأن التقوى هي التي رفعت مكانة الذين اتقوا على الذين كفروا يوم القيامة. . .

وهذه الفوقية إما باعتبار أن الجنة منزلتها أعلى والنار أسفل، أو لأن الذين اتقوا في العز والكرامة والذين كفروا في نهاية الذل والمهانة...

﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ والله سبحانه هو الذي يوزّع رزقه وعطاياه كما يشاء حسب المصلحة وما فيه خير هذا الإنسان بدون عدّ أو حصر، بل عطاياه لا تعدّ ولا تحصى كما أنها لا تنفذ أو تتوقف تشمل البر والفاجر والصالح والطالح.

قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

اللغة

﴿أُمَّةً﴾: الأمة كل جماعة يجمعهم أمر ما، أما دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أو اختياراً.

﴿بَعَثَ﴾: أصل البعث: إثارة الشيء وتوجيهه ويختلف البعث باختلاف ما عُلّق به وهنا يراد به أرسل...

﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: مفرده نبي: والأصل فيه الارتفاع والعلو المرسل من عند الله يحمل رسالته ـ سمي بذلك لعلو منزلته ومقامه.

﴿مُبَشِّرِينَ﴾: من البشارة، والبشرى: هي الأخبار السارة لأنها تبسط بشرة الوجه.

﴿مُنذِرِينَ﴾: من الإنذار: وهو أخبار فيه تخويف.

﴿ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾: تنازعوا وتجادلوا، والأصل في المخالفة أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو قوله.

﴿أُوتُوهُ﴾: أعطوه.

﴿الْبَيِّنَاتُ﴾: جمع بيّنة: وهي الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة.

﴿بَغْيًا﴾: البغي: تجاوز الحق إلى الباطل أو تجاوزه إلى الشبه، الطغيان.

﴿صِرَاطٍ﴾: الصراط: الطريق المستقيم.

﴿مُسْتَقِيمٍ﴾: المستقيم: هو الخط المستوي وبه شُبّه طريق المحق.

التفسير

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ الفهم العرفي يقضي أن الناس كانوا على رأي واحد يجمعهم فكر واحد أو دين واحد أو توجّه واحد. وفي بعض الروايات أنهم كانوا على الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي التوحيد ومعرفة الأصول الأولية التي أودعها الله في نفس هذا الإنسان فاختلفوا بعد الوحدة وتفرقوا بعد الاجتماع فتداركتهم الرحمة الإلهية بما بيّنه سبحانه في قوله تعالى:

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ إنها الرحمة الإلهية تداركت هذه البشرية فأنقذتها من هذا الاختلاف والضلال فكانت بعثة النبيين الذين تلقّوا الوحي عن الله وحملوه إلى الناس، وقد ذكر سبحانه ثلاث خصوصيات لهؤلاء السفراء العظماء.

١ - إنهم مبشرون... يزفّون إلى الناس البشرى بما أعدّه الله للمطيعين العاملين من جنّات وحور عين وولدان مخلدين..

والبشارة تدفع الإنسان ليعيش لذّة وحلماً وينتظر تحقيق تلك البشرى بعمله وسلوكه وحركته في الحياة.

٢ - ومنذرون: إنهم يخوّفون الناس من عذاب الله وما أعدّه للعصاة والمتمردين.. وهذه طريقة العقلاء في كيفية التبليغ وحمل الناس على القيام

بالواجبات. فأولاً يُرغِّب المأمور بالمنافع والفوائد وما يثمر عمله من الخيرات والبركات ثم إذا لم ينفع هذا الأسلوب وهذه الطريقة مع بعض الناس يعدل عنه إلى أسلوب الترهيب والتخويف بالقصاص والعقاب والأذى... إنه أسلوب الترغيب والترهيب الذي يشكّل أقوى الحوافز لحمل الإنسان على المراد والمطلوب.

٣ ـ مهمّة الأنبياء حمل الكتاب الذي يتضمن كلام الله الذي يفصل من خلاله الأنبياء كل اختلاف يحدث بين الناس... فدور الكتاب ليس للبركة فحسب.. بل من أجل أن يُعمل بما فيه وتُنفّذ أحكامه بدقة ويكون به الفصل عند الاختلافات التي تقع بين الناس سواء كان الاختلاف عقيدياً أو سلوكياً أو غير ذلك...

﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي لم يختلف اتباع الأنبياء الذين من أجلهم نزل الكتاب (لعلة فيه أو تقصير في المبلّغين) بل للحسد والبغي الذي يعيش في قلوب هؤلاء الأتباع.. إنها الدنيا التي تدفع الناس إلى ابتكار آراء ونظريات تختلف في تفسير كل حكم أو تشريع أو تنظيم مهما كان ظاهراً بيّناً أو واضحاً جليّاً، وكم حوّلت الأحقاد الحق الواحد الظاهر إلى حقوق متعددة تبعاً للسياسة الحاكمة وتبعاً لمنطق الحاكم وطلباً لرضاه...

إن نظرة واحدة للاختلافات التي تحدث بعد مؤسس المذهب الواحد (وخصوصاً إذا دخلت السياسة على الخط) ترى صدق هذا القول حيث يتمزق المذهب إلى مذاهب والمدرسة الواحدة إلى مدارس تبعاً لقوة السلطة الحاكمة والآمرة بتدمير المذهب وإفشال كل طروحاته عن هذا الطريق...

ولكن هذا الاختلاف في الكتاب وأحكامه وما جاء فيه لا يتحول كل الناس من خلال هذا الاختلاف إلى ضلال وانحراف.. كلا بل يبقى هناك فريق يحفظ هذا الحق... فالحُجّة يجب أن تبقى قائمة، وحكم الله يجب أن يستمر، ولا بدّ

له من حَمَلة صادقين توجهت عناية الله نحوهم وحفظت الحق من خلال هدايتهم إليه.

﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ فالله سبحانه له عناية خاصة ببعض النفوس المؤمنة الطيّبة فنجّاها من هذا الاختلاف وهداها إلى الحق الذي اختلف فيه غيرهم، بعلمه كانت هدايتهم وبتوفيقه وتسديده كان وصولهم إلى هذا الحق...

﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الله سبحانه يتولى بيان الدلائل والبينات ويأخذ بيد العبد إذا كان مُهيّئاً لتقبل الفيوضات الربانية إلى الطريق المستقيم الذي هو الطريق الموصل إلى رضوان الله وجنته...

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿حَسِبْتُمْ﴾: من الحسبان: وهو قريب الظن وشبيهه.

﴿مَّثَلُ﴾: المثل: الشبه.

﴿خَلَوْا﴾: مضوا.

﴿مَّسَّتْهُمُ﴾: من المس وهو كاللمس، يقال في كل ما ينال الإنسان من الأذى.

﴿الْبَأْسَاءُ﴾: الفقر.

﴿وَالضَّرَّاءُ﴾: السقم والوجع.

﴿وَزُلْزِلُوا﴾: أصلها زل: ومعناها استرسال الرجل من غير قصد، والتزلزل: الاضطراب وتكرير حروف لفظه تنبيه على تكرير معنى الزلل فيه ـ والمقصود هنا ازعجوا بشدة.

﴿النَّصْرُ﴾: النصر والنُّصرة: هي العون.

التفسير

هذه الآية تسلية للمؤمنين وشدّاً على أيديهم لكي يتحملوا الشدائد والمحن ويتقبلوا ما نزل بهم فالعاقبة السعيدة لهم...

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾ بل ظننتم - والخطاب للمؤمنين - أن تدخلوا الجنة بدون ابتلاء واختبار وبدون أن تعيشوا المحن والبلايا أو لا ينالكم من الأذى والضرر والبؤس شيئاً.

﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾ والحال أنه لم يصبكم ما أصاب الذين من قبلكم ولم تتعرضوا لما تعرضوا إليه ولم تعيشوا الحياة القاسية الصعبة كما عاشوا، ثم بيّن سبحانه ما ابتُلي به الأولون من المؤمنين ومن كان قبلهم من أصحاب الرسالات وحملة الدعوات.

﴿مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾ أصابتهم الشدائد والمحن ومرّت عليهم أحوال الفقر وشدته والحزن وآلامه، لقد أصابتهم الدنيا بفجائعها ومصائبها ونوائبها وما تحمله أيامها من شدائد وقساوة...

﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾ لشدة تلك المحن والبلايا وما مسّهم منها وصلت بهم الأمور إلى الزلزلة الشديدة بما تحمل هذه الكلمة من رعب وخوف واضطراب وقساوة وشدّة، ومَنْ مرّت عليه الزلازل وعاشها عرف كيف تكون شدتها وكم يكون الرعب الحاصل منها. وقد صوّر الله تلك الحالة بشدتها أنها استدعت من الرسول بعظمته وهمّته وما تحمّله ومعه المؤمنين بما يحملون من إيمان وعقيدة وصبر، إنهم جميعاً صرخوا مستنجدين بالله ملتمسين منه الخلاص قائلين: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾ إنه استفهام يحمل معه الضراعة لله والدعاء أن يأتي بنصره لشدة ما وقعوا فيه وقساوة ما يعانون منه...

ويأتيهم الجواب ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ إنّ الله لا يتخلى عن المؤمنين عندما

تقسو عليهم الأحوال وتُظلِم الدنيا في أعينهم... إنه سبحانه يبلسم جراحهم ويمسح عيونهم ويُنزل عليهم رحمته.

إنها بشرى تُزف إلى النفوس الظمأى للعدل والحق فتنقذ ما تبقّى من إيمان وتعيد للحياة كرامتها وينتصر المؤمنون على كل جيوش الكفر، ويعود هذا الإيمان ليحكم ساحة الحياة بعد أن يزهق الباطل ويزيله من الوجود...

﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ عنوان رجاء وبلسم شفاء ودواء لكل داء... وعد إلهي لكل المؤمنين الذين يعانون من الظالمين... وعدهم إن صبروا وتحملوا الأذى وفكروا في الخلاص من هذه المحن أن ينصرهم الله على أعدائهم ويجعلهم الحكام على الخلق قادة وساسة بالعدل والحق...

﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ هذه جرعة يرتشفها الإنسان المعذب فتحلو له الحياة ويرجع إليه الأمل وتشتد قوته وتقوى عزيمته... ما أجمل وقعها في الأذن حيث تسري إلى القلوب فتعيد إليها الحركة والنشاط! إنها شعار ونشيد كما كان للماضين فهو للحاضرين ولمن يأتي في مستقبل الزمن... إن نصر الله قريب ممن نصروه وانتصروا له.

قال تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿يَسْئَلُونَكَ﴾: من السؤال وهو استدعاء معرفة أو ما يؤدي إلى المعرفة، واستدعاء مال أو ما يؤدي إلى المال، والفقير يسمى سائلاً لاستدعائه مالاً.

﴿يُنفِقُونَ﴾: نفق الشيء: نفد وفني، ونفقت الدابة: إذا خرجت روحها، وأنفق ماله على أهله إذا صرفه عليهم بوجه من الوجوه.

﴿ٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾: هما الأب والأم ومفرده الوالد ومؤنثه الوالدة وجمعه الوالدون.

﴿ٱلْأَقْرَبِينَ﴾: من القرب: وهو يقابل البعد، والأقربين: من يمتُّ إليك برحم وصلة قرابة.

﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: مفرده اليتيم ويطلق الجمع على الذكور والإناث، واليتيم من الناس هو الطفل إذا فقد أباه ولم يبلغ، وفي الحيوانات من فقد أمه.

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾: جمع مسكين، قيل: هو الذي لا شيء له وهو أبلغ من الفقير.

﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: السبيل: هو الطريق، وابن السبيل: هو المسافر إلى غير وطنه وقد نفذت نفقته فسُمّي ابن السبيل لملازمته له...

﴿خَيۡرٖ﴾: جمعه خيرات، وهي الأعمال الصالحة، المال.

التفسير

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ﴾ حكاية سؤال يتوجه به بعض الناس إلى رسول الله ﷺ يقولون له ماذا ينفقون؟ أي أيَّ شيء ينفقون: أي يخرجون عن ملكيتهم إلى الآخرين ويساعدون به غيرهم فيأتيهم الجواب يتضمن بيان ما ينفقون بشكل إجمالي ـ ما أنفقتم من خير ـ مع التفصيل ببيان الأصناف التي يكون الإنفاق عليها مستحباً.

﴿قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ هذا بيان لما تنفقون حيث أنّ ما أخرجتم من أموالكم في سبيل الله وأردتم بذله لوجهه الكريم فاجعلوه في هذه الأصناف:

١ ـ ﴿فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾ فالأب والأم وإن علوا كالأجداد والجدات هم أحق الناس بالنفقة لأن في الإنفاق عليهم مرجحات كثيرة:

أولها: أنهم سبب إيجاده وعلّة حياته.

ثانياً: أنهم أقرب الناس إليه بل أرحامه والأقرب يمنع الأبعد.

ثالثاً: أن إكرامهم وإعزازهم إكراماً له وإعزازاً.

٢ ـ ﴿وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ هم الذين يمتُّون إليه برحم أو صلة قرابة وتجمعهم معه وحدة الأسرة، فهؤلاء كذلك يمنعون الأبعدين ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾.

٣ ـ ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾: وهؤلاء يستحقون لفقرهم وحاجتهم أن تُمدَّ إليهم يد المساعدة فيشعرون بالعطف والحنان وأن الحياة لا تخلو من خير، فلا ينقمون على المجتمع أو يحقدون عليه أو يثورون في وجهه.

٤ - ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهذا أيضاً ممن يستحق أن تحفظ كرامته وتُصان حرمته، فابن السبيل الذي يعني المسافر إلى غير بلده وقد نفذت نفقته وافتقر واحتاج، فهذا قد يكون غنياً في بلده، فحفظ ماء وجهه وإكرامه ثم إعطاؤه ما ينفقه حتى يعود إلى وطنه أمر مرغوب فيه شرعاً ومستحب في الدين.

﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ ترغيب في فعل الخير - الإنفاق - وإن الله على علم ومعرفة بكل عمل خير، فيجازي عليه ويثيب فاعله ويؤجره ولا يُضيع منه شيئاً.

فائدتان

١ - وجه اتصال هذه الآية بما تقدم أنه سبحانه لما أمر بالجهاد والصبر أمر هنا بالإنفاق الذي يتضمن كلا الأمرين.

٢ - قالوا إن قوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ﴾ سؤال عن النفقة وأنها من أي شيء تكون؟ وحق الجواب بيان أصنافها من برٍ أو أرز أو بضاعة أو مال... ولكنه سبحانه عدل في الجواب إلى مصاريف هذه النفقة لأنها هي الأهم التي يجب أن يتوجه السؤال إليها فكان من باب التعليم كيف يكون السؤال...

ولكن الحق أنه سبحانه بيّن ما يُنفق بقوله تعالى: «من خير» ثم ذكر الأصناف بالتفصيل، فكما يجب أن تكون النفقة من الخير - يجب أن تقع في موقعها وفي محلها لكي يتقبلها الله ويعطي الثواب والأجر عليها...

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿كُتِبَ﴾: فُرض وثبت.

﴿ٱلْقِتَالُ﴾: من قاتل قتالاً: المحاربة، والمقاتلة: المحاربة وتحرّي القتل.

﴿كُرْهٌ﴾: الكَرْه والكُره واحد، وقيل: الكَرْه المشقة التي تنال الإنسان من الخارج فيما يحمل عليه بإكراه، والكُره: ما يناله من ذاته وهو يعافه.

﴿عَسَىٰ﴾: تستعمل للترجي وللطمع في الشيء.

﴿خَيْرٌ﴾: جمعه خيرات: وهي الأعمال الصالحة.

﴿تُحِبُّوا﴾: من حب، والمحبة: إرادة ما تراه أو تظنه خيراً، وأحبّه إذا ودّه، وحبُّ الشيء: إذا رغب فيه.

﴿شَرٌّ﴾: الشر: هو الذي يرغب عنه الكل وهو السوء.

التفسير

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ دلّت هذه الآية الكريمة على وجوب الجهاد وأن محاربة الأعداء فرض على المسلمين وإن كان مقتضى طبعهم بغض ذلك وكراهته لما يتضمنه من القتل وسفك الدماء وما يحمله من الجراح وبتر الأعضاء وما فيه من تلف الأموال وتخريب البلاد، فهذه الكراهية كراهية طباع ولذا لا تتنافى مع الإيمان ولا تخالف مقتضاه لأن المؤمن مع كراهيته للحرب والقتال ينفّذ ما أمره الله به ويتحوّل عنده إلى محبوب تبعاً لأمر الله، يقوم به كواجب مقدّس على مستوى قداسة الصلاة والصيام ومَنْ كانت ثمرته الجنة وهو الباب إليها اندفع المسلم نحوه بكل نشاط.

ففي الحديث: «حُفّت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشّهوات».

وقال علي عليه السلام «أما بعد.. فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه».

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وهذه حقيقة قد يدركها الكثيرون منّا وقد يكون قد وقع فيها في بعض الحالات، يكره أمراً ثم يكون فيه الخير الكثير وكما يقال: «رُبَّ ضارة نافعة».

قد تكرهون القتال وتتمنون عدم وقوعه لما فيه من تلف الأنفس والأموال، ولكن هذا المكروه عندكم قد يحمل معه الخير الكثير، فحال المتعاطي للقتال كحال المريض إذا شرب الدواء المرّ، فلمرارته يكرهه ولمنافعه يستعمله.. مرارة الدواء تستساغ عندما تُرى ثمراته في إعادة الصحة ورفع الألم والحياة الهادئة المستقرة..

والجهاد مكروه لما فيه من سفك الدماء وتلف الأموال وغير ذلك، ولكنه يجرّ النفع والخير، حيث يدفع الكفار عن البلاد ويحميها ويحمي أهلها... وفيه الخير من حيث تأمن البلاد ويُنتفع بالغنائم ويُقهر الأعداء، وفيه الأجر والثواب

كما فيه إعزاز الدين وتقوية شوكته وبسط سلطانه وحمل الناس على الإيمان وطاعة الرحمٰن. . .

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۚ﴾ وهذا عكس الأول قد يحب الإنسان أمراً ظنّاً منه أو اعتقاداً أن فيه الخير، ولكن في واقعه يكون فيه الشر والفساد وتنتفي كل خيرية فيه ليتحول إلى أمرٍ ضارٍ مؤذٍ كمن يسترخي عن الجهاد ويقعد عنه طلباً للسلامة، فإذا بالعدوّ يستولي عليه وعلى أرضه ويحوّله إلى عبد يستذله ويسخّره لخدمته ولخدمة مصالحه وما فيه نفعه. . .

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ إذا اختلطت عليكم الأمور وقصُر علمكم عن إدراك ما ينفعكم مما يضركم فارجعوا في تشخيص ذلك إلى الله، فهو يعلم عواقب الأمور وما فيه خيركم وصلاحكم وما فيه ضرركم وفسادكم. فما أمر به ففيه الصلاح وإن كانت أنفسكم لا ترغب فيه أو كانت تكرهه، وما نهاكم عنه فامتنعوا عنه وتوقفوا عن الإقدام عليه وإن كانت أنفسكم تحبه وترغب فيه. . .

والجهاد مما يعلم الله خيره ويعلم فوائده ومنافعه، فجاهدوا العدوّ وقاتلوا من أجل الله والدين وإن كان ذلك مما تكرهه نفوسكم ولا ترغب فيه ظناً منها أنه يتلف النفوس والأموال ويأتي على العباد والبلاد. . . وهذا فيه تطمين للمسلمين وإنّ خيرهم فيما أمر الله به، وإذا كان الأمر كذلك فعليهم القيام بكل أوامر الله ومنها الجهاد. . .

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾: سُمّي الشهر الحرام لحرمة القتال فيه، والأشهر الحُرُم أربعة: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب.

﴿وَصَدٌّ﴾: الصد: المنع والصرف.

﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: طريقه الموصل إلى رضاه كالحج والزيارة وكل تكاليفه.

﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾: هو المسجد المحيط بالكعبة الشريفة، ويراد به هنا منعهم عن الحج والاعتمار.

﴿ٱلْفِتْنَةُ﴾: في الأصل الاختبار والامتحان، والفتنة هنا محاولة ردِّ الناس عن الدين وإضلالهم.

﴿ٱلْقَتْلِ﴾: إزهاق الروح وفصلها عن الجسد.

﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾: لا يبرحون.

﴿يَرُدُّوكُمْ﴾: يُرجعوكم.

﴿ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾: الاستطاعة على الشيء: القدرة على القيام به.

﴿يَرْتَدِدْ﴾: يرجع والردّة: الارتداد والردّة الرجوع في الطريق الذي جاء منه، والردّة: الرجوع من الإيمان إلى الكفر.

﴿حَبِطَتْ﴾: بطلت وذهبت، وأحبط عملهم: أبطل ثوابهم، وأصل الحبط: فساد يلحق الماشية لأكل الحباط وهو ضرب من الكلأ مضر.

التفسير

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ الاستفهام إن كان من أهل الشرك كما وردت به الرواية يكون من باب الإنكار على المسلمين وأنه كيف استباحوا القتال في الشهر الحرام؟...

وإن كان الاستفهام من المسلمين؛ فهو استفهام حقيقي من حيث يجهلون حكم هذا الشهر الحرام، فيسألون عن حرمة القتال فيه أو جواز ذلك...

وعلى كلا التقديرين يتوجه الله بخطابه إلى النبي ببيان هذا الأمر وكشف ما هو الصواب فيه.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ القتال في هذا الشهر وزر كبير وجرم عظيم، ولكن هناك ما هو أعظم من القتال فيه وأشدّ جرماً. نعم إذا كان لهذا الشهر حرمة وحصانة فإنما هو لأجل حفظ دماء الناس وكرامتهم، فإذا أهدر المشركون هذه الكرامة وهذه الدماء ولم يراعوا لله حرمة ولم يحفظوا له حقاً فلا تستغربوا القتال في هذا الشهر.

ثم ذكر سبحانه ما هو أعظم من القتال في الشهر الحرام، ذكر مفردات مرّت

على المسلمين ومارسها الكفار في حق الطيبين الذين رفضوا عقائد الوثنية ولوثاتها.

قال تعالى:

﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

١ - ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ المشركون كانوا في ممارستهم منذ ظهور فجر الإسلام يرصدون المسلمين ويقفون في وجوههم لإيمانهم. وكل من كان يحاول أن يدخل في الإسلام يقفون في وجهه، يشككونه في نبوة محمد ورسالته ويحاولون إقناعه أن دينهم خير وأفضل من دين محمد وما عليه أصحابه...

فمنْعُ الناس عن الإيمان بالله ومَنْع المسلمين عن الطريق الموصل إلى عبادته كما فعل المشركون عام الحديبية تدخل تحت قوله تعالى: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾...

٢ - ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ أي الكفر بالله أعظم من القتال في الشهر الحرام لأن الكفر بالله يأتي على كل رسالات الله ورسله وما جاءوا به، وبالتالي ما قيمة الشهر الحرام أمام الكفر بالله.. الكفر بالله يشكّل منتهى الانحراف وأمامه يصغر كل انحراف، وهؤلاء يعيشون الكفر، فهو أعظم من القتال في الشهر الحرام...

٣ - ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ تارة نعطفه على الضمير في «به» فيصبح المعنى: «وكفرٌ» بالمسجد الحرام، وتارة - أخرى وهو الأرجح - أن يكون مجروراً عطفاً على «سبيل الله» فيصبح المعنى وصدّ عن المسجد الحرام من حيث منع المشركون المسلمين من الصلاة والطواف فيه...

٤ - ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ﴾ وهذه واحدة أيضاً من كبائر فعل المشركين، وهي إخراج المسلمين الذين هم بالحقيقة أهل المسجد الحرام وروّاده والذين يعيش بهم المسجد الحرام وينتعش، فإخراجهم من وطنهم بالقهر والقوة وإبعادهم عنه إلى بلاد أخرى مع ما في ذلك الإخراج من الظلم والإخراج هو أعظم من القتال في الشهر الحرام..

﴿أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ﴾ هذا خبر عما تقدم، وأن هذه الأمور أكبر وزراً وأعظم ظلماً من القتال في الشهر الحرام. . .

«وأكبر» أفعل تفضيل وأفرده لاستواء المفرد والمثنى والمجموع فيه. . .

﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ إضلال الناس وردّهم إلى الكفر أكبر من القتل. . لأن القتل إتيان على البدن وإعدام له وهو على مستوى الدنيا ومؤقت، بينما الفتنة قتل للروح والدين وفيه عذاب دائم ومقيم. . .

هذا إذا فسرنا الفتنة بالكفر، أما إذا فسّرنا الفتنة بما كان يعمله المشركون ـ من إخراج المؤمنين وصدّهم عن المسجد الحرام ـ فيكون هذا أعظم من القتل في ميزان الله. . .

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ إخبار عن حال الكفار وطريقتهم في تعاملهم مع المسلمين. . . إنهم سيبقون كما كانوا أعداء لكم يقاتلونكم بكل الوسائل من أجل أن يرجعوكم عن دينكم وعقيدتكم إلى الوثنية والكفر وما كنتم عليه من الضلال والانحراف إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وإنهم لن يستطيعوا أو يقدروا. . .

إنهم لن يتهاونوا وسيبذلوا قصارى جهدهم في العمل من أجل أن يردُّوكم عن دينكم ـ الإسلام ـ إلى الكفر. . .

وقد مارس الكفار القتال ضد المسلمين محاولين استرجاع مواقعهم ومحاولين ردّ الناس إلى الكفر، ولكنهم باؤوا بالفشل ولم يظفروا بما أمّلوا. . .

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لمّا ذكر الارتداد ذكر ما يترتب عليه من العواقب الوخيمة، فمن يخرج من الإسلام ويعود إلى الكفر ويموت على ذلك فهذا يُخزى مع الكافرين في الدنيا ويُحارب مثلهم، وإذا أسر قُتل وتُطلق زوجته ويقسّم ميراثه ويأخذ أحكام المرتد المرسومة لمثله في كتب الفقه.

وأما في الآخرة فإنه يحاسب حساب الكفار ويذهب كل ما عمله هباءً منثوراً.. تبطل أعماله ولا يثاب عليها، وإذا قدم على ربه ولم يكن له إلا الشرك والكفر والذنوب فهذا مأواه جهنم وبئس المصير...

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ من يرتد عن دينه يتحول إلى أن يكون من أصحاب النار.. من أهلها وروادها الملازمين لها في العذاب والألم الشديد...

فائدتان

١ - قيل: إن سبب نزول هذه الآية.. أن رسول الله ﷺ بعث سرية - قطعة من الجيش - أميرها عبد الله بن جحش الأسدي وكان ابن عمته قبل قتال (بدر) بشهرين في جمادي الآخر يرصدون عيراً لقريش عليها تجارة من الطائف، وكان في العير عمرو بن عبد الله الحضرمي وثلاثة معه، فالتقوا بهم أول يوم من رجب وهم يظنونه من جمادى الآخر، فقتلوا عمرو بن عبد الله وأسروا اثنين من أصحابه وساقوا العير. فقالت قريش عندما جاءها الخبر: قد استحلّ محمد الشهر الحرام الذي يأمن فيه الخائف ويذهب فيه الناس إلى معاشهم، وشقّ ذلك على أصحاب السرية، وتقول بعض الأخبار: إن وفداً من قريش ركبوا إلى النبي وقالوا له: أيحل القتال في الشهر الحرام!؟ فنزلت الآية...

٢ - هناك روايات تقول أن قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ الآية نزلت في المسلمين.. حيث سألوا عن القتال في الشهر الحرام أيجوز أم لا يجوز؟ فنزلت الآية وأقول يعضد ذلك قوله في وسط الآية ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ من حيث أن الخطاب موجّه إلى المسلمين قطعاً، وهو معطوف على ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ في صدر الآية...

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

اللغة

﴿هَاجَرُوا۟﴾: من هجر، والهجر والهجران: مفارقة الإنسان غيره إما بالبدن أو باللسان أو القلب، وهاجر عن وطنه: إذا خلاه وتركه ورحل عنه.

﴿جَٰهَدُوا۟﴾: من الجهاد: وهو استفراغ الواسع في مدافعة العدوّ وأصله من الجهد: وهي الطاقة والمشقة.

﴿يَرْجُونَ﴾: الرجاء: ظن يقتضي حصول ما فيه مسرّة.

التفسير

سبب النزول:

قيل: إن سبب نزول هذه الآية.. أن عبد الله بن جحش وأصحابه لما نزلت فيهم الآية المتقدمة ورفعت عنهم الإثم طمعوا في أن يكون لهم أجر وثواب في غزوتهم فأنزل الله الآية الكريمة...

وقد ذُكرت لهم من الأوصاف ثلاث كل واحدة منها منقبة ومفخرة ومكرمة تستحق الأجر والثواب، فكيف إذا اجتمعت كلها في هؤلاء الأبطال؟

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله وكتابه... وهذا الإيمان هو القاعدة الأساسية التي عليها تبنى كل البُنى الفوقية، من أحكام وتشريع وأخلاق وآداب..

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ والهجرة منقبة وعظمة لأن ترك الوطن والديار والأهل والأحباب والمال والعقار في سبيل العقيدة والإيمان! هذا من أعلى درجات التضحية والفداء، وخصوصاً في أوائل البعثة... حيث الخوف والرعب والمطاردة للمؤمنين والخطر المحدق بهم كضريبة يدفعونها لإيمانهم وعقيدتهم، ومن هنا كانت الهجرة ميزة اختص بها الذين هاجروا من مكة إلى المدينة فراراً بدينهم وعقيدتهم من ظلم قريش وطغيانها، وأخذوا هذا الاسم واكتسبوا هذه الصفة وأصبحوا يُميَّزون عن غيرهم بها.

﴿وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قاتلوا الأعداء من أجل إعلاء كلمة الله ونشر رسالته، والجهاد في سبيل الله من أعظم الطرق إلى مرضاة الله...

ففي الحديث عن رسول الله ﷺ قال: فوق كل ذي برٍّ بر حتى يُقتل الرجل في سبيل الله فإذا قتل في سبيل الله فليس فوقه بر.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي يتوقعون ويأملون أن يشملهم الله برحمته فيدخلهم جنته، والتعبير بالرجاء لأن الأمور مرهونة بخواتيمها بأن يبقى الإنسان على هذه الصفات حتى يوافيه الموت فيتحقق هذا الرجاء، وإلا فاحتمال السقوط وارد في كل حين قبل الوفاة...

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقبل توبة عباده ويغفر ذنوبهم ويرحمهم برحمته...

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلْخَمْرِ﴾: أصل الخمر: ستر الشيء، ويقال: لما يُستر به: خمار والخمر: هو الشراب المسكر الذي يفقد الإنسان عقله من جرّاء شربه، وما أسكر كثيره فقليله حرام فضلاً عن كثيره.

﴿وَٱلْمَيْسِرِ﴾: القمار، ويسمى المقامر: ياسراً، والأصل في معناه السهولة، سُمّي به لسهولة كسبه من غير كد أو تعب.

﴿إِثْمٌ﴾: الإثم: الذنب.

﴿مَنَٰفِعُ﴾: من نفع، والنفع: ما يستعان به في الوصول إلى الخيرات وما يتوصل به إلى الخير، فهو خير فالنفع خير وضده الضر.

﴿يُنفِقُونَ﴾: نفق الشيء: نفد وفني، ونفقت الدابة: إذا خرجت روحها، وأنفق ماله على أهله: إذا صرفه عليهم بوجه من الوجوه.

﴿ٱلْعَفْوَ﴾: في الأصل القصد لتناول الشيء، وهنا يراد به ما يسهل إنفاقه ولا يشق على النفس الفضل والزيادة على الحاجة.

﴿يُبَيِّنُ﴾: من بان: إذا ظهر واتضح.

﴿ٱلْآيَٰتِ﴾: يراد بالآيات هنا الأحكام.

﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾: من فكَّر والفكرة: قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكر: تشغيل تلك القوة بحسب نظر العقل وذلك للإنسان دون الحيوان.

﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: مفرده اليتيم ويطلق الجمع على الذكور والإناث، واليتم في الناس هو الطفل: إذا فقد أباه ولم يبلغ، وفي الحيوانات: من فقد أمه.

﴿إِصْلَاحٌ﴾: من الصلح: الذي هو ضد الفساد.

﴿خَيْرٌ﴾: جمعه خيرات: وهي الأعمال الصالحة.

﴿تُخَالِطُوهُمْ﴾: الخلط، هو الجمع بين أجزاء الشيئين فصاعداً، ويقال للصديق والمجاور والشريك، خليط.

﴿إِخْوَٰنُكُمْ﴾: مفرده أخ وأصله أخو وهو المشارك لآخر في الولادة من الطرفين أو من أحدهما أو من الرضاع، ويستعاد في كل مشارك لغيره في القبيلة أو في الدين أو في صنعة أو في معاملة أو في مودة أو غير ذلك من المناسبات.

﴿ٱلْمُفْسِدَ﴾: ضد المصلح، وهو في الأصل خروج الشيء عن الاعتدال قليلاً كان الخروج، أو كثيراً، ويستعمل في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة.

﴿ٱلْمُصْلِحِ﴾: اسم فاعل من صلح، والصلاح: ضد الفساد وقوبل في القرآن تارة بالفساد وأخرى بالسيئة.

﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾: من العنت: وأصله المشقة الشديدة، قال الراغب: المعانتة كالمعاندة لكن المعانتة أبلغ لأنها معاندة فيها خوف وهلاك.

﴿عَزِيزٌ﴾: العزيز: هو الذي يَقهر ولا يُقهَر.

التفسير

﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ كأن هناك حسّاً جماعياً عند المسلمين يدفعهم لمعرفة حكم الخمر والقمار باعتبارهما عادتان شائعتان في ذلك المجتمع.

ولذا يتوجه الخطاب إلى رسول الله بصيغة الجمع ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾.

﴿الْخَمْرِ﴾ شراب متخذ من العنب أو التمر وقد يكون من غيرهما، يُصنع بطريقة خاصة يكون من خواصه الإسكار وتخدير العقل بشكل تُشلُّ عند شاربه حركة الوعي فيصبح فاقداً له مدّة من الزمن قد تقدّر بساعات كثيرة حسب الجرعة التي يتناولها.

وقد حرّم الإسلام الخمر تحريماً قطعياً كتاباً وسنّة وإجماعاً، كما حرّمها العقلاء على أنفسهم بحكم العقل الذي لا يرضى لنفسه الضياع.

وهذه الآية الكريمة واحدة من الآيات التي تُهيّء الأجواء وتكشف المناخ للحكم بتحريم ما كان إثمه وضرره أكثر من نفعه وفائدته يجب تركه وهجره وعدم ممارسته بحكم العقل والعقلاء.

وأما السنّة الشريفة:

عن أبي جعفر عليه السلام قال(١): لعن رسول الله صلى الله عليه وآله في الخمر عشرة:

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٧، باب ٥٣ من أبواب ما يكتسب به، ح٤.

غارسها وحارسها وعاصرها وشاربها وساقيها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها».

أضرار الخمر كثيرة وأهمها وأعظمها: أنها تذهب بالعقل وتترك شاربها كالدابة بل أضل منها سبيلاً.. حيث يتحول إلى أضحوكة بما يُحدث من حركات وما يقوم به من أعمال، وقد يرتكب الجرائم ويسفك الدماء ويعتدي على الأعراض.

ثم ما تُخلّفه على صحّة المتعاطي لها من أضرار بدنية قد تأتي عليه إن أكثر منها؛ وقد بيّن علماء الطب مضارها وقد حاربتها الدول الواعية ومنعت من استعمالها وتداولها...

وهذه الأضرار الكبيرة يقابلها منافع حقيرة وفتنة صغيرة تتمثل بالأرباح التي يجنيها التجار من بيعها وشرائها والمقدمات التي يجب توفيرها للحصول عليها...

كما أن فيها بعض اللذة التي ينتشي من خلالها الإنسان فينسى همومه مؤقتاً ويغيّب شخصه عن حلّها بالهروب منها، وهذا فعل الإنسان اللامسؤول والقاصر عن تحمّل تبعات الحياة وحركتها...

وإذا كانت أضرار الخمر كثيرة ومنافعها قليلة فبحكم العقل والعقلاء يجب تحريمها وعدم التعاطي لها، ويجب الامتناع عنها والكف عن تناولها...

وأما الميسر الذي هو القمار فهي ألعاب يعرفها أهلها ويتعاطاها بعض المتهتكين الذين لا يرتبطون بدين أو عقيدة أو إيمان سليم.

والقمار من المحرمات في الإسلام لأنه يشل الحركة ويعطّل دورة الحياة ويروح المقامر ينظر إلى الربح بدون تعب فيأكل مال الناس بدون حق ـ قد نهى الله عنه.

في الحديث عن أبي جعفر عليه السلام[1] قال: لمّا أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وآله:

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب التجارة، باب ٢٥ من أبواب ما يكتسب به.

﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ قيل: يا رسول الله ما الميسر؟

فقال(ص): كل ما تقومر به حتى الكعاب والجوز.

قيل: فما الأنصاب؟

قال: ما ذبحوا لآلهتهم.

قيل: فما الأزلام؟

قال: قداحهم التي يستقسمون بها.

فالقمار باعتباره أخذ لأموال الناس بهذه الطريقة غير العقلانية، ولأنه يجرّ إلى العداوة بين المتقامرين وتحدث المشاكل والنزاعات كان ضرره كبيراً جداً فحرّمه الإسلام وحرّم الاكتساب به..

إذن فأضرار الخمر والميسر أكثر من منافعهما والعقلاء لا يقدمون على أمرٍ ضرره أكثر من نفعه...

فائدة

١ ـ قيل: إن الله استعمل أسلوب التدرُّج في تحريم الخمر ـ باعتبار أن المجتمع كان معتاداً عليها ـ فلم ينزل تحريمها دفعة واحدة، بل أنزلت هذه الآية المباركة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ وبهذه الآية تهيأ الجو والمناخ.

ثم أنزل سبحانه قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾[1] وباعتبار أن هناك خمس صلوات في أوقات موزعة ضمن اليوم، فهذا تضييق على مَنْ يتناولها لكي يبقى صاحياً واعياً.

(١) النساء/ ٤٣

ثم نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾[1].

ثم أخيراً أنزل تحريمها بشكل قاطع فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾[2].

وبهذه الآية الأخيرة صدر الحكم بتحريمها المؤبّد إلى يوم الدين.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ السؤال هنا عن مقدار الإنفاق - بقرينة الجواب - فكأنهم سألوا عن مقدار ما ينفقون ومقدار ما يُبقون لهم.

فقال تعالى ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ قل لهم يا رسول الله: أنفقوا العفو.

(والعفو) فُسّر تارة بما يفضل عن قوته وقوت عياله حتى لا يقع في حرج وحاجة إذا أنفق ما هو بحاجة إليه وعياله...

وتارة أخرى فُسّر «العفو» بالوسط من الإنفاق بحسب حاله فلا يبسط يده بالعطاء ولا يقبضها بل ما بين بين...

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ كما بيّن الله لكم أحكام الخمر والميسر، كذلك يبيّن لكم كل الآيات الأخرى من أجل أن تحرّكوا أفكاركم وتدرسوا ما فيه سعادة الدنيا والآخرة فتتركوا ما فيه الضرر في الدنيا وتتّبعوا ما فيه النفع في الآخرة...

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾.

السؤال عن قضية اجتماعية يعيشها المجتمع الإسلامي في صدره من حيث الابتلاء بها كثيرٌ كما أنها تحدث في كل مجتمع وفي كل وقت وزمان.. إنها مشكلة اليتم وكيف يتوفر لهذا المجتمع إصلاحه وإعالته والقيام بواجبه...

---

(١) المائدة/ ٩١.
(٢) المائدة/ ٩٠.

اليتيم: هو الصغير الذي فقد أباه قبل بلوغه.. فهو غضّ طري وزهرة مفتّحة في أوائلها يهزها هذا الحدث ـ فقد الأب ـ فيفقد اليتيم العطف والحنان كما يفقد الراعي والكفيل، وفي مثل ذلك لا بدّ له من يد حانية تمتد إليه لتعوّضه بعض ما فاته من عطف الأبوة ورعايتها. وهنا تتحرك القلوب الرحيمة التي تعيش الرّقة والرحمة، ولكن ربما خافت من التعامل مع هذا اليتيم خوفاً على نفسها من الإثم والظلم مع رغبتها في خدمته وإعانته، ومن هنا يتوجه السؤال إلى النبي الأعظم تسأله عن وضعها مع هذه الحالة الاستثنائية المتكررة في المجتمع وخصوصاً كما قيل: إن سبب هذا السؤال كان تحرُّج المسلم في تعامله مع اليتيم بل توقفه عن التعامل بأمواله أو مخالطته! وأكثر من ذلك ربما عزلوا أمواله واعتزلوه خصوصاً بعد نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ﴾..

فلهذا الحرج ودفعاً لما يمكن أن يقعوا فيه من جراء التعامل والتعاطي مع الأيتام كان هذا السؤال وكانت هذه الإجابة عليه...

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ﴾ السؤال لرسول الله كيف يتعاملون مع الأيتام في خصوص أموالهم ومعاشرتهم وتعاملهم معهم؟

ويأتيهم الجواب ﴿قُلۡ﴾ لهم يا رسول الله ﴿إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ﴾ أذن لهم في التعامل معهم ومعاشرتهم ومساكنتهم وغير ذلك إذا كان فيه صلاح الأيتام ومنفعتهم وما فيه خيرهم...

ـ في الحديث عن عبد الله بن يحيى الكاهلي قال: قيل لأبي[1] عبد الله عليه السلام إنا ندخل على أخ لنا في بيت أيتام ومعه خادم لهم فنقعد على بساطهم ونشرب من مائهم ويخدمنا خادمهم وربما طعمنا فيه الطعام من عند صاحبنا وفيه من طعامهم فما ترى في ذلك؟

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب التجارة، باب ٧١ من أبواب ما يكتسب به، حديث/١.

فقال: إن كان في دخولكم عليهم منفعة لهم فلا بأس، وإن كان فيه ضرر فلا، وقال عَلَيْتَلِا ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ فأنتم لا يخفى عليكم. وقد قال الله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾.

﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أجاز سبحانه للأولياء أن يخالطوا الأيتام في الأموال والمآكل والمشارب إذا كان فيه خيرهم وصلاحهم، وبهذا وردت السنة وتعددت الأحاديث.

ـ في الحديث عن أبي عبد الله عَلَيْتَلِا[1] يسأله أبو الصباح الكناني قال: قلت: أرأيت قول الله عز وجل: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾.

قال: تُخرج من أموالهم قدر ما يكفيهم وتُخرج من مالك قدر ما يكفيك ثم تنفقه.

قلت: أرأيت إن كانوا يتامى صغاراً وكباراً وبعضهم أعلى كسوة من بعض وبعضهم آكل من بعض ومالهم جميعاً؟

فقال: أما الكسوة فعلى كل إنسان منهم ثمن كسوته، وأما الطعام.. فاجعلوه جميعاً، فإن الصغير يوشك أن يأكل مثل الكبير.

ثم إنه سبحانه أوكل الأمر إلى نفس هذا الإنسان المخالط للأيتام، فهو يعرف من نفسه وبنفسه إذا كان يتجاوز عليهم في أموالهم فيأخذ منها أكثر مما يستحق أولاً، فإن أخذ الزائد حرم عليه وانطبقت عليه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾[2].

وإذا خالطهم ولم يتجاوز حدوده فهو ممن قام بإصلاحهم وسعى في سبيل سعادتهم وكان له الأجر والثواب، وبالنهاية فالله سبحانه هو العارف بالنوايا والعالِم بمضمرات النفوس يحاسب على كل عمل سيّء ينطلق من نية سيئة تريد

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب التجارة، باب ٧٣ من أبواب ما يكتسب به، حديث/١.

(٢) النساء/ ١٠.

الشر بالأيتام وبمصالحهم وما ينفعهم؛ والغطاء الذي أباحه الله لمخالطتهم لا يعذر المعتدي عليهم والآكل لأموالهم...

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أي لو شاء الله لأتعبكم حيث يمنعكم من مخالطة الأيتام وأوقعكم في ذلك بالمشقة الشديدة والحرج الأكيد، ولكنه سبحانه لم يكلفكم ذلك بل سهّل الأمر عليكم ويسّره.. حيث أباح المخالطة لهم والمؤاكله معهم وغير ذلك شَرْطَ أن يكون لصالحهم وما يعود عليهم بالنفع والفائدة...

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ إنه سبحانه الغالب الذي لا يقف أمام قدرته أحد، والحكيم في تشريعه الذي يضع كل حكم من أجل مصالح الناس ومنافعهم...

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾.

اللغة

﴿وَلَا تَنكِحُوا﴾: من النكاح، وأصله موضوع للعقد، ثم استعير للجماع، ولا تنكحوا: لا تتزوجوا وتعقدوا عقد النكاح.

﴿الْمُشْرِكَاتِ﴾: جمع المشركة مؤنث المشرك، والشرك في الدين ضربان: الشرك العظيم: وهو أن يجعل شريكاً مع الله، والشرك الصغير: وهو مراعاة غير الله مع الله في بعض الأمور وهو الرياء والنفاق ـ وعلى كل حال ـ فلفظة الشرك من الألفاظ المشتركة. . .

﴿يُؤْمِنَّ﴾: من آمن: إذا اعتقد، والمقصود هنا الدخول في الإسلام.

﴿وَلَأَمَةٌ﴾: جمعها إماء: المملوكة من الإناث، وهي العبدة وتقابلها الحرّة.

﴿خَيْرٌ﴾: جمعها خيرات: وهو أفعل تفضيل تارة يقابل به الشر وآخر يقابل به الضرّ.

﴿أَعْجَبَتْكُمْ﴾: راقتكم.

﴿الْعَبْدُ﴾: المملوك من الرجال: وهو العبد ويقابله الحر.

﴿يَدْعُونَ﴾: الدعاء إلى الشيء: الحث على قصده.

﴿الْمَغْفِرَةِ﴾: قال الراغب: الغفران والمغفرة من الله: هو أن يصون العبد من أن يمسّه العذاب.

﴿بِإِذْنِهِ﴾: قال الراغب: الإذن في الشيء: إعلام بإجازته والرخصة فيه.

﴿وَيُبَيِّنُ﴾: يكشف ويظهر ويوضّح.

التفسير

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ هذا نهي يتوجه من الله إلى رجال المسلمين أن لا يتزوجوا بالمشركات طالما هنّ على شركهن، فإذا آمنّ! جاز التزويج منهن وارتفع النهي، وهذا المقدار بشكله المجمل واضح ظاهر يفهمه كل من وقف عليه، ولكن الحديث في تحديد المشركة والمشرك ومَنْ الذي يصدق عليه هذا العنوان؟ هل يشمل كل من انتحل غير الإسلام ديناً أو أنه ينحصر في فئة معينة لها عقيدتها وفكرها وملامحها الخاصة؟

ذهب بعضهم إلى أن المشرك ـ والمشركة ـ هم غير أهل الكتاب من اليهود والنصارى ـ وخصّ المشركين بعبدة الأوثان، ولهذا الفريق أدلته ومنها قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾(٢) وهذا التقسيم دليل المغايرة.

وبعضهم عمّم وقال: إنهم جميعاً مشركون وله أدلته وحجته ومنها قوله

(١) البقرة/١٠٥.
(٢) البيّنة/١.

تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾[1] فإن ذيل الآية ـ سبحانه عما يشركون صريح في شركهم فيدخلون تحت الآية المباركة محل البحث ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[2] بتقريب أن كفر اليهودي والنصراني لو لم يكن شركاً لأمكن أن يغفره الله وهذا مقطوع البطلان فيثبت المطلوب، وهو أنه مشرك فيتبعه النهي الوارد في محل الكلام.

وعلى كل حال.. ثبتت أدلة المثبّتين أم أدلة النافين.. فالأمر موكول إلى الفقه، وقد أشبع فقهاؤنا رضوان الله عليهم تحقيق ذلك وأجادوا به.. بل أبدعوا بما أتوا به في هذا المقام، ومَنْ أراد تحقيق ذلك فليرجع إلى موسوعات الفقه كالجواهر والحدائق وغيرهما من أمهات الكتب الاستدلالية عندنا...

﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ بعد أن نهى سبحانه عن الزواج بالمشركة رغّب من الزواج بالمسلمة ـ ولو كانت مملوكة ـ وأن الأمة المؤمنة خير من المشركة وإن كانت المشركة قد أعجبتكم وراق منظرها في أعينكم ورغبتم فيها لجمالها ومالها وحسبها ونسبها، فإن كل تلك الاعتبارات تتساقط أمام إيمان الأَمَة ويرجح دور العقيدة على كل الأدوار الأخرى التي يمكن أن تتراءى أمام أنظار البسطاء والسطحيّين...

﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ هذا نهي يتوجه إلى المؤمنات أنفسهن أو إلى أوليائهن.. يمنعهم بموجب هذا النهي أن يكون هناك تزويج بين المسلمة

(١) التوبة/ ٣٠ ـ ٣١.
(٢) النساء/ ٤٨.

والمشرك، ويبقى هذا المنع ساري المفعول إلى أن يؤمن المشركون فيباح لهم عندئذ من الزواج بالمسلمات، ومن هنا يحرم زواج المسلمة بالمشرك بجميع أصنافه وأديانه ومذاهبه، وهذا النص ظاهر في ذلك وعلى هذا الحكم إجماع المسلمين واتفاقهم...

﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ وهنا أيضاً تأتي خيرية العبد المؤمن على المشرك وإن كان يعجبك منظره أو ماله أو حسبه أو نسبه أو غير ذلك من الأمور الاعتبارية التي تنعدم أمام عقيدة الإيمان ونقاء الإسلام وطهره...

﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ المشركون والمشركات يحملون عقيدة الشرك في قلوبهم وفي سلوكهم فهم دعاة بالنهاية إلى هذه العقيدة، وهذه العقيدة وأصحابها مصيرهم إلى النار، فالنتيجة أنهم سيدعون المسلمين والمسلمات إلى ما هم عليه، وهذا يُشكّل أعظم خطر على عقيدة المسلم وعلى مستقبله، فلا يجوز أن يتزوج ممّن يدعوه إلى النار.

ثم في المقابل يريد الله من المسلم أن يكون من أهل الجنة والمغفرة، وهذا لا يتأتى إلا عن طريق الإيمان والمحافظة عليه والابتعاد عن الشرك والمشركين، وكل ما يحصّن المسلم من عدوى الشرك مطلوب. ومنه البُعد عن زواج المسلم والمسلمة من المشركين والمشركات...

إن الله يدعو إلى الجنة وطريقها والمغفرة وسبيلها وعلى المؤمنين به أن يستجيبوا لأمره ويُلبُّوا طلبه لأن في ذلك سعادتهم في الدنيا وفوزهم في الآخرة...

﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ إنه سبحانه يكشف آياته ويظهرها للناس.. كل الآيات التي تقربهم منه وتبعدهم عن الشيطان قد وضعها بين أيديهم لعلّهم يتذكرون ما ينفع وما يضر وما فيه الخير وما فيه الشر.

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلْمَحِيضِ﴾: مصدر، حاضت المرأة تحيض ومحاضاً وأصله السيلان، ومنه قيل للحوض حوض لأن الماء يسيل إليه، والحيض شرعاً هو الدم الخارج من الرحم على وصف مخصوص وفي وقت مخصوص ويعبّر عنه بالعادة الشهرية.

﴿أَذًى﴾: الأذى: ما يصل إلى الحيوان من الضرر إما في نفسه أو جسمه أو تبعاته دنيوياً كان أو أخروياً.

﴿فَٱعْتَزِلُوا۟﴾: من عزل، والاعتزال: تجنب الشيء والتنحي عنه، والأعزل: الذي لا رمح له.

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾: من القرب وهو مع البُعد يتقابلان، ويستعمل في المكان والزمان وفي النسبة وفي الحظوة والرعاية والقدرة.

﴿يَطْهُرْنَ﴾: من الطهارة: وهي لغة النظافة.

﴿فَأْتُوهُنَّ﴾: الإتيان: المجيء بسهولة ـ والمراد بإتيانهن هنا كناية عن الدخول بهن ونكاحهن.

﴿ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾: من تاب: إذا رجع وأناب.

﴿ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾: من الطهارة: وهي النظافة، والمتطهرين: فعل اختياري للطهارة.

﴿حَرْثٌ﴾: الحرث: الزرع، والحارث: الزارع، ومعنى حرث لكم: أي مزرع ومنبت للولد على سبيل التشبيه.

﴿مُّلَٰقُوهُ﴾: من اللقاء: وهو مقابلة الشيء ومصادفته معاً، وملاقاة الله: عبارة عن المصير إليه والوقوف بين يديه.

﴿وَبَشِّرِ﴾: البشارة إخبار فيها مسرّة.

التفسير

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ ويسألونك يا محمدا عن إتيان النساء في حالة الحيض حينما يبتلين به.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هُوَ أَذًى﴾ أي هو شيء مستقذر وفيه ضرر فهو علّة سيترتب عليها الحكم وهو.

﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ اتركوا وطأهن في أيام الحيض، وليس المقصود بالاعتزال هو البعد عنهن بإجماع الأمّة...

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ ولا تجامعهن حتى ينقين من الحيض، وهو تأكيد لوجوب الاعتزال وتشديد فيه، هذا إذا كانت ﴿يَطْهُرْنَ﴾ مخفّفة الطاء فيجوز للزوج أن يطأ امرأته بمجرد انقطاع دم الحيض وطهرها منه وإن لم تغتسل...

وأما إذا صحّت رواية «يطّهرن» بالتشديد فيصبح المعنى.. أنه لا بد من الغسل لجواز الوطأ لأن ﴿يَطْهُرْنَ﴾ فعل اختياري يمكن للمرأة القيام به...

والقراءة المعروفة والموجودة في المصاحف هي الأولى وهي تخفيف ﴿يَطْهُرْنَ﴾ وعليها العمل لدى المحققين من المجتهدين تبعاً لأئمة أهل البيت ﷺ . . .

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ هذا تأكيد لما تقدم من كلمة «يطهرن» وأنه إذا تم ذلك فجامعهن من حيث أمركم الله فيه وهو حال الطهر دون الحيض والأمر هنا ليس للوجوب وإنما للإباحة.

وقيل ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ﴾ أي من الجهات التي يحل فيها الوطء دون غيره وهي فيما إذا لم تكن صائمة أو محرمة أو معتكفة. . .

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ أي يثيب من أقلع عن الذنوب ورجع إلى الله والتزم بحدوده. . . ومن تاب تاب الله عليه.

﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ إن الله يحب من يجتنب الأقذار والنجاسات لأن طهارة الخارج هي الوعاء لطهارة الداخل.

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ شبّه سبحانه النساء بالأرض، والرجل بالزارع. والنُطَف: بالبذر فالنساء هن المكان المعدّ لكي يزرع الرجال فيهن بذوراً تخرج أطفالاً فيما بعد ثم شباباً يبنون الحياة وهذا المعنى واضح.

﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ هذه الآية من آيات الأحكام ويتوقف فهم المراد منها على المراد من كلمة «أنى شئتم» ولذا اختلف الحكم باختلاف هذا الفهم.

مَنْ فسّر ﴿أَنَّى شِئْتُمْ﴾ بالمكان، لأن أنّى تستعمل أكثر ما تستعمل في المكان، فتقول: اجلس أنّى شئت أي في أي مكان فهذا قد أباح نكاح المرأة في الدبر، وهذا هو الظاهر من الآية لو اقتصرنا عليها وكنّا وإياها بدون رواسب تحكمنا أو خلفيات نؤمن بها مسبقاً.

وأما مَنْ فسّروا ﴿أَنَّى شِئْتُمْ﴾ بمعنى «متى» و«كيف» فقد حصروا الإتيان للنساء بالقُبل وقرّبوا ذلك بوجوه واستحسانات لا تنهض لتشكّل دليلاً قاطعاً على ما ذكروه وذهبوا إليه فتبقى الآية مجملة المعنى إذا لم يقطع الفقيه والمجتهد بأي

الاحتمالين، وهنا لا بد من الرجوع إلى السُنّة الشريفة لتعيين المراد منها، وقد اختلفت استنباطات الفقهاء تبعاً لصحة السُنّة وعدمها أو ترجيح بعضها على بعض من حيث اختلاف ألسنتها أيضاً في ذلك. . .

أما علماؤنا رضوان الله عليهم فقد وقع الخلاف بينهم، فذهب بعضهم إلى جواز إتيان المرأة في الدبر، وهذا له أدلّته التي حملته على ما ذَهَب إليه وعلى الأقل ظاهر الآية وبعض الروايات.

ومنهم مَنْ قال بحرمة ذلك وله أدلته.

ومنهم من قال بالكراهة المشددة وإن أجاز الوطأ.

أما العامة. . فقد ذهبوا إلى حرمة ذلك بشكل عام ورووا جوازه عن جملة من الصحابة منهم عبد الله بن عمر وأوّلوا كلامه مع أن كلامه صريح في هذا المرام - جواز نكاح النساء في الدبر - وأجازه مالك إمام المذهب المعروف.

﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ اعملوا ما ينفعكم في آخرتكم ويقي أنفسكم النار.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ احذروا معاصيه فلا ترتكبوا شيئاً منها.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ هذا تحذير لهم من المعصية وإن كان بصيغة الخبر، لأن من عرف أنه سيقف أمام الله وسيحاسبه على كل صغيرة وكبيرة سوف لا يجترىء على معصيته أو يتجاوز حدوده المرسومة له، ومن أيقن باللقاء أجاد العمل والاعتقاد. . .

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أمر من الله إلى رسوله ﷺ أن يزفّ البشرى - الأخبار السارة المفرحة - إلى المؤمنين العاملين الملتزمين الذين ساروا على وفق إرادة الله ومشيئته فنفّذوا أوامره واجتنبوا نواهيه ولا بد وأن تكون البشرى بشرى بالجنة ونعيمها وما فيه خيرهم وسعادتهم. . .

وهذه البشارة للمؤمنين على لسان الرسول الأعظم ﷺ تعطي دفعاً وقوة للمؤمنين تجعلهم يجدّون ويجتهدون في تطبيق أوامر الله والبعد عمّا نهى عنه. . .

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

الإيمان وانعقادها:

﴿عُرْضَةً﴾: من العرض الذي هو خلاف الطول ومنه اشتقت العرضة وهي تعني ما يُجعل معرّضاً للشيء كما في الآية الكريمة، وبعير عرضة للسفر: أي يجعل معرضاً له، وتأتي بمعنى المانع والحاجز وكل ما يعترض فيمنع عن الشيء فهو عرضة، ولهذا يقال للسحاب: عارض لأنه يمنع رؤية الشمس.

﴿لِأَيْمَانِكُمْ﴾: الإيمان جمع يمين: وهي في الأصل الجارحة المعروفة واستُعير للحلف والقسم اعتباراً بما يفعله المعاهد والمحالف وغيره.. حيث كان يأخذ بيمين صاحبه ـ ويمين تذكر وتؤنث.

﴿أَن تَبَرُّوا﴾: من البر: وهو التوسع في فعل الخير ويستعمل البر في الصدق لكونه بعض الخير...

﴿تُصْلِحُوا﴾: الصلح: إزالة النفار والخصام بين الناس، يقال: منه اصطلحوا وتصالحوا وأصلح من الصلاح الذي هو ضد الفساد.

التفسير

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ إذا كانت ﴿عُرْضَةً﴾ بمعنى الحاجز والمانع فمعناه لا تجعلوا القسم بالله والحلف به مانع عن أنواع الخير المذكورة، فيكون قد أطلق الإيمان وأراد المحلوف عليه لعلاقة الملابسة ويصبح المراد ـ والله أعلم ـ لا تجعلوا هذا اليمين مانعاً عن البر والتقوى والإصلاح بين الناس، وبهذا المعنى وردت بعض الأخبار عن النبي ﷺ والأئمة الأطهار.

عن سعيد الأعرج قال: سألت أبا عبد الله[1] ﷺ عن الرجل يحلف على اليمين فيرى أن تركها أفضل وإن لم يتركها خشي أن يأثم أيتركها؟

قال: أما سمعت قول رسول الله ﷺ: إذا رأيت خيراً من يمينك فدعها...

وفي الحديث عن إسحاق بن عمار عن أبي[2] عبد الله ﷺ في قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ قال: إذا دعيت لصلح بين اثنين فلا تقل عليَّ يمين أن لا أفعل.

وأما إذا كانت ﴿عُرْضَةً﴾ بمعنى المبذول له فيصبح المعنى «لا تجعلوا الله معرضاً لأيمانكم» فهو نهي عن الحلف وعن الإكثار منه حتى يشمل المحقرات ويصبح قوله ﴿أَن تَبَرُّوا﴾ علة للنهي عن ذلك: أي فلكي تكونوا من أهل البر والتقوى والإصلاح بين الناس فلا تحلفوا لأن الحلاّف في معرض الكذب والسقوط فتنتفي التقوى وينتفي البر كما يسقط من أعين الناس فلا يؤثر كلامه في الإصلاح...

وبهذا المعنى أيضاً وردت الأخبار.

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب الأيمان، باب ١٨، حديث ١.

(٢) وسائل الشيعة، كتاب الصلح، باب ١، حديث ٥.

١ ـ في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال[1]: لا تحلفوا بالله صادقين ولا كاذبين فإنه عز وجل يقول: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا تحلفوا بالله صادقين ولا كاذبين فإن الله عز وجل قد نهى عن ذلك فقال عز وجل: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ ومن هنا استُحب تنزيه الله عن الحلف به حتى لو كان الحالف صادقاً إجلالاً لاسمه واحتراماً له...

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الله سميع لأقوالكم وما تنطقون به، عليم بنيّاتكم وما يختلج في نفوسكم، فإذا كان يسمع الكلام ويعلم المرام يجب على المؤمن أن يحوّل أعماله إلى أعمال صالحة ونياته إلى نيات طاهرة.

(١) وسائل الشيعة، كتاب الأيمان، باب ١، حديث ٥.

قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾.

اللغة

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ﴾: المؤاخذة: المجازاة.

﴿اللَّغْوِ﴾: من الكلام: ما لا يُعتّد به، الساقط من كل شيء الذي لا يعتّدّ به، ولغو الطائر: تصويته.

﴿كَسَبَتْ﴾: كسب الشيء: جمعه، وكسب المال: طلبه وربحه، وكسب القلوب: ما نوته وانعقدت عليه.

﴿غَفُورٌ﴾: كثير الغفران ـ وصف لله ـ ومعناه لا يمسُّ عبده بالعذاب ويصونه منه.

﴿حَلِيمٌ﴾: من الحلم: وهو ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب وجمعه أحلام، ووصف الله بالحلم باعتبار عدم أخذه للعصاة فوراً بل يؤخرهم لعلهم يتوبون ويرجعون...

التفسير

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ لا يحاسبكم الله ولا يعاقبكم على الأيمان التي تأتي لاغية بدون قصد إلى مضمونها.. أي تسقط كلمات الحلف واليمين ولا يكون لها أثر إذا خلت من مضمونها الذي لا يقصده الحالف.

واللغو في اليمين أن يعتاد الإنسان عليها فيذكرها ناسياً لمضمونها غافلاً عنها نتيجة عادة اعتادها أو ساعة من ساعات الغضب الشديد الذي يفقد الإنسان معه القصد إلى الكلمات فتتردد كلمات بلى والله، ولا والله! بدون قصد وقد ورد هذا التفسير عن الأئمة الأطهار...

عن مسعدة بن صدقة عن أبي[1] عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول في قول الله عز وجل: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ قال: اللغو قول الرجل: لا والله وبلى والله ولا يعقد على شيء.

﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ولكن المؤاخذة والاقتصاص والمحاسبة على ما قصدتم من الإيمان وما وافق عليه القلب واللسان، فالحالف إذا كان مع الكلام يعقد قلبه على مضمونه أُخذ به وحوسب عليه وترتبت الأحكام من كونه إذا حنث وجبت عليه الكفارة وغير ذلك.

وهذا يدلّ على أن الساهي والناسي والسكران وغيرهم ممن لا قصد لهم لمضمون الكلام لا شيء عليهم ولا ينعقد أيمانهم...

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ والله غفور: واسع المغفرة، إن تبتم لا يعجل في أخذكم وعقوبتكم.. حليم يمهل العباد حتى يتوبوا ويعودوا إلى رحابه...

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب الأيمان، باب ١٧، حديث ١.

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿يُؤْلُونَ﴾: الإيلاء: لغة الحلف، وفي الشرع اليمين على ترك وطء الزوجة الدائمة أكثر من أربعة أشهر للإضرار بها.

﴿تَرَبُّصُ﴾: التربّص: الانتظار بالشيء سلعة، كان يقصد بها غلاء أو رخصاً أو أمراً ينتظر زواله أو حصوله.

﴿فَآءُو﴾: الفيء: والفيئة: الرجوع إلى حالة محمودة.

﴿عَزَمُوا۟﴾: العزم والعزيمة: عقد القلب على إمضاء الأمر، يقال: عزمت الأمر وعزمت عليه واعتزمت.

﴿ٱلطَّلَٰقَ﴾: أصل الطلاق: التخلية عن الوثاق، يقال: أطلقت البعير من عقاله وطلّقته وهو طالق وطلق بلا قيد، واستعير لطلاق المرأة وهو فك عقد النكاح الذي بينه وبينها.

التفسير

الإيلاء:

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾ للذين يحلفون على عدم وطء نسائهن أربعة أشهر لهم حق البقاء كذلك وانتظار هذه المدّة فإن رجعوا عن يمينهم التي حلفوها وعادوا إلى عِشرة نسائهم ووطؤهن فحنثوا في اليمين ودفعوا الكفارة فإن الله يغفر لهم هذا اليمين وما أشبهه، وهو رحيم بهم من حيث يريد إعادة اللحمة بينهم وبين نسائهن. . .

﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ إن صمّموا على الطلاق ولم يرجعوا عن إيلائهم - بالحنث والكفارة - فهنا يجري الطلاق بعد الأربعة أشهر إن قرر الزوج ذلك وتجري الأمور بشكلها المرسوم لها، وإلا فعليها أن ترفع أمرها إلى الحاكم الشرعي فيلزمه بأحد الأمرين الفيء بالرجوع إليها ووطئها وإلا فالطلاق فإن أبى ألزمه الحاكم به. . .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لما يقولون وعليم بنياتهم وأغراضهم.

فوائد

١ - الإيلاء: ضرب من اليمين فلا ينعقد إلا بما ينعقد به اليمين.

- عن الحلبي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام[1] عن الرجل يهجر امرأته من غير طلاق ولا يمين سَنَة فلا يأتي فراشه؟! قال: ليأت أهله.

وقال عليه السلام: أيما رجل آلى من امرأته، والإيلاء أن يقول: والله لا أجامعك كذا وكذا والله لأغيظنك ثم يغاضبها فإنه يتربص به أربعة أشهر.

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب الإيلاء والكفارات، باب١ من أبواب الإيلاء، ح١.

٢ ـ لا بد من مرور أربعة أشهر حتى يحق لها أن تُحل مشكلتها إما بعودة الزوج عن يمينه والوطأ أو بالطلاق ولها الحق أن ترضى بواقعها وبما هي عليه دون شيء من الأمرين السابقين.

٣ ـ إذا وطأ المؤلي ضمن الأربعة أشهر أو بعدها حنث في يمينه ووجبت عليه الكفارة وهي كفارة يمين. . .

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾: جمع مطلقة: وهي من جرى عليها الطلاق بأن حل عقد النكاح بأسبابه المعروفة.

﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾: التربص: الانتظار بالشيء سلعة أو أمراً.

﴿قُرُوٓءٍ﴾: جمع قرء: يطلق على الطهر وعلى الحيض.

﴿لَا يَحِلُّ﴾: الحل: ضد الحرام، ولا يحل: يعني لا يجوز.

﴿يَكْتُمْنَ﴾: من كتم الشيء: إذا ستره وأخفاه.

﴿خَلَقَ﴾: الخلق: أصله التقدير المستقيم ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء.

﴿أَرْحَامِهِنَّ﴾: جمع رحم: وهو موضع تكوّن الجنين في بطن الأم.

﴿يُؤْمِنَّ﴾: يعتقدن ويصدّقن.

﴿ٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾: يقابل به اليوم الأول وهو الدنيا، واليوم الآخر يوم البعث والحساب.

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾: جمع بعل: وهو الزوج.

﴿أَحَقُّ﴾: الأحق: يستعمل لمعنى الاختصاص من غير مشاركة نحو زيد أحقّ بماله وكما في الآية الكريمة هنا ـ ويستعمل كأفعل تفضيل فيشتركان في الحق ولكن هذا أولى.

﴿بِرَدِّهِنَّ﴾: من ردّ الشيء: إذا أرجعه، وردّه إلى البيت: أرجعه إليه.

﴿إِصْلَٰحًا﴾: من الصلاح؛ وهو ضد الفساد وقوبل في القرآن تارة بالفساد وأخرى بالسيئة، والصلح يختص بإزالة النفار والمخاصمة بين الناس.

﴿مِثْلُ﴾: المثل: الشبه والنظير.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: المعروف: اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو الشرع حسنه، ويطلق على العدل.

﴿دَرَجَةٌ﴾: الدرجة: المنزلة الرفيعة.

التفسير

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ بعد أن ذكر سبحانه الإيلاء وأنّ أمره قد يؤول إلى الطلاق ذكر سبحانه هنا حكم الطلاق... من جرى عليهنّ الطلاق وجب عليهن أن ينتظرن ثلاثة أطهار من يوم طلاقهن.

والتعبير «يتربصن بأنفسهن» أي يجب أن يمسكن أنفسهن عما تطمح إليه من الزواج ومقدماته هذه المدّة وهي ثلاثة أطهار...

والقرؤ وإن كان يطلق على الحيض وعلى الطهر ولكنه قد تعيّن كونه الطهر من خلال أحاديث أهل البيت عليهم السلام حيث ذهبوا إلى ذلك ووافقهم عليه كثير من الصحابة وأهل التحقيق من بعدهم.

ففي الحديث الصحيح عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام[1] قال: القرء ما بين الحيضتين ومثله أخبار كثيرة.

طبعاً هذا حكم المطلقات إذا كُنّ مدخولاً بهن ومن ذوات الإقراء ولم يكنّ يائسات وإلا فلهنّ أحكام غير ذلك تأتي في ذكر آيات أخرى أو يعلم حكمها من الأخبار الواردة في هذا الباب...

وتعبير «يتربصن» وإن كان صورته صورة الخبر ولكن يراد به الأمر أخرج مخرج الخبر لأنه أبلغ في الطلب والأمر من حيث كأنه قد وقع وأخبر عنه...

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ لا يباح للنساء المطلقات أن يسترن حملهن إن كنّ حاملات إن كنّ من أهل الإيمان بالله واليوم الآخر... وهذا تهديد لهن بنفي الإيمان عنهن - بالله واليوم الآخر - إن أخفين حملهن عن أزواجهن لأن في ذلك تضييع للولد حتى يلتحق بأبيه.

في هذه الآية دليل على أن المرأة تُصدّق في قولها إن قالت أنها حامل أو ليست بحامل كما تصدق في دعواها أنها في أيام حيضها وخصوصاً إذا شملت الآية ﴿أَرْحَامِهِنَّ﴾ الحيض...

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَـٰحًا﴾ أزواج المطلقات أحق بهن خلال مدّة التربص على كل الرجال الآخرين الذين يريدون الزواج منهن فلهم ردّهن إلى أحضان الزوجية إن أرادوا إصلاح الأمر فيما بينهم وليس الإضرار أو الإفساد...

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهكذا.. فالحقوق متبادلة بالمعروف بين الرجل والمرأة، فلهن - للنساء - حقوقهن على الرجال بالمعروف، وحقها المهر والنفقة والإسكان والكسوة والعشرة الطيبة، كما أن حقه عليها أن تطيعه وتسمع أمره ولا تمنعه نفسها وتحفظه في ماله ونفسها وهكذا...

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب الطلاق، باب ١٤.

إن هذه الآية المباركة تكشف عظمة الإسلام وعظمة ما يشرّعه من أحكام.. حيث يجعل للمرأة من الحقوق مثل ما عليها من الواجبات وكل ذلك في دائرة المعروف الذي يعني ما فيه الخير والصلاح...

إن الآية الكريمة تجعل المرأة في مرتبة الرجل - إلا ما خرج - مما هو مختص بالرجال ويكون من مهامهم باعتبار بُنيتهم ووضعهم البدني وتركيب قوامهم مما يحمله الرجل من خصائص ومميزات تجعله صنفاً يكمّل المرأة ويتمم وجودها...

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ للرجال ميزة على النساء، إنها درجة من حيث كون الرجال بأيديهم حل عقدة النكاح وإبطال العقد...

وقيل: إن الدرجة التي أعطيت للرجال هي قيمومة الرجل ورئاسته لهذه المؤسسة الصغيرة كما في قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[1].

فهذه الدرجة درجة تكليف ومسؤولية يتحملها الرجال حيث يجب عليهم رعاية المرأة وحمايتها والنفقة عليها وإدارة شؤون البيت، إذ لا بدَّ لهذه المملكة الصغيرة من أمير يدير شؤونها ويهتم بها ويحفظ لها وحدتها ويكون المرجع الأخير في تنظيمها وحلّ مشاكلها وهكذا...

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ عزيز ينتقم ممن يعتدي على أحكامه وحكيم في تشريعه حيث يضع الأمور مواضعها ويشرّعها لمصلحة عباده وما فيه نفعهم...

---

(١) النساء/ ٣٤.

قال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾.

اللغة

﴿مَرَّتَانِۖ﴾: مثنى المرة، قال الراغب: وقولهم مرة ومرتين كفعلة وفعلتين وذلك لجزء من الزمان، ومرتان يقصد بهما هنا دفعتان.

﴿فَإِمۡسَاكُۢ﴾: إمساك الشيء: التعلق به وحفظه، والإمساك بالمعروف هنا أن يراجعها لا بقصد المضارة.

﴿ٱلۡمَعۡرُوفِ﴾: اسم لكل فعل يُعرف بالعقل أو الشرع: حُسنه.

﴿تَسۡرِيحُۢ﴾: إرسال الشيء، وسرّح الماشية: أرسلها، ومنه تسريح الشعر، والتسريح في الطلاق من تسريح الإبل كالطلاق مستعار من إطلاق الإبل.

﴿بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾: الإحسان: فوق العدل لأن العدل: هو أن يأخذ ما له ويعطي ما عليه، والإحسان: أن يعطي الأكثر مما عليه ويأخذ الأقل، فتحري العدل واجب وتحري الإحسان مستحب.

﴿تَأۡخُذُواْ﴾: الأخذ: حوز الشيء وتحصيله.

﴿ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾: من آتاه الشيء: إذا أعطاه إياه.

﴿يُقِيمَا﴾: من القيام للشيء: وهو المراعاة له والحفظ...

﴿حُدُودُ﴾: الحد: هو الحاجز بين الشيئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر، وحد الدار: ما تتميز به عن غيره.

﴿فَلَا جُنَاحَ﴾: فلا إثم.

﴿ٱفۡتَدَتۡ﴾: الفدية: هنا ما تبذله المرأة للرجل من المال لكي يطلّقها.

﴿تَعۡتَدُوهَاۚ﴾: الاعتداء: هو تجاوز الحق في قول أو فعل.

التفسير

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ الطلاق الذي تتربص به المرأة كما مرّ والذي يجوز للزوج الرجوع فيه ـ هو الطلاق الرجعي ـ فالطلاق هذا مرتان بأن يطلقها أولاً ثم يرجع ثم يطلقها ثانياً.

﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ﴾ أي يرجع إليها ويعود عن طلاقه إلى بيت الزوجية بالمعاملة الطيبة والعشرة الحسنة فإن الزوجة مخلوق بشري مثله مثل الرجل يجب احترامها وتقديرها وإكرامها ولا يجوز إهانتها وسبّها والاعتداء عليها والإساءة إلى شخصيتها...

﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ أي يطلقها الثالثة وعندها تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره... والتسريح بإحسان أن لا يظلمها من حقها شيئاً ولا يذكرها بسوء ولا ينفّر منها من أرادها للزواج.

الخلاصة: إن الطلاق المأمور به هو.. أن يجري الطلاق بشروطه من كونها غير حائض ـ أي في طهر ـ وأن لا يكون قد واقعها في ذلك الطهر وأن يكون

بحضور الشهود وهكذا؛ فإذا جرى الطلاق فإن له أن يرجع إليها في العدة كما أن له أن يعود إليها كأحد الخطّاب إذا خرجت منها، ثم إذا عاد إليها وعاد إلى طلاقها مرة ثانية فهذه تطليقتان، ثم إذا عاد إليها فإذا أراد أن يمسكها وتكون زوجته فعليه أن يحسن عشرتها، وإذا طلّقها وهو المعبّر عنه في الآية ﴿تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍۗ﴾ أي طلاق بإحسان فهنا تحرم عليه بعد الطلاق الثالث حتى تنكح زوجاً غيره كما سيأتي.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ﴾ خطاب للأزواج، أنه لا يجوز لهم أن يأخذوا شيئاً من المهر الذي دفعوه إلى الزوجات فهذا المهر يملك بعضه بالعقد ويملك كله بالدخول ـ في الزوجة ـ فإذا أراد أن يطلقها لا يجوز له أن يأخذ منه شيئاً لأنه ملك غيره، نعم هناك صورة استثنائية يجوز له أخذ بعضه أو أخذه كله أو زيادة عليه، وهي صورة النزاع الشديد الذي يخشى من خلاله عدم إقامة حدود الله والتي هي ظلم كل منهما للآخر بعدم القيام بحقوقه...

وهذه الحالة عبّر عنها الفقهاء بصيغة «الخُلع» الطلاق الخلعي الذي تبذل المرأة فيه ما ترضي الزوج فيجري طلاقها.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ﴾ قيل: الخطاب للحكام الذين يتولون الفصل بين الزوجين المختلفين وعلى كل حال.. إذا حصل الخوف من عدم قيام كل منهما بواجبه فالزوج يتعدى حدود الله فيها، وهي في المقابل تتعدى حدود الله فيه بأن يمتنع عن الإنفاق عليها ولا يحسن عشرتها وقد يهينها أو يُضر بها...

وهي بدورها تواجهه بما يكره فلا تسمع منه ولا تطيعه بل تؤذيه في كلامها وتخرج من بيته بغير إذنه أو تُدخل إلى بيته مَنْ لا يحب وهكذا حتى يصل بها الأمر أن تجاهره بكراهتها وبغضها له وإذا وصلت الأمور إلى هذه الحدود فلا إثم عليهما فيما افتدت به بأن تدفع ما تفدي به نفسها ليطلقها سواء كان بقدر المهر

أو أقل أو أكثر باعتبار أن العقد «عقدة النكاح» بيده وهي كارهة له، فإذا أرادت أن تحل هذه العقدة وتخرج من عصمته فما عليها إلا أن ترضيه وتفدي نفسها بحيث يطلقها. . .

هذا الطلاق يسمى «طلاق الخلع» أو الطلاق الخلعي وأهمّ ما فيه أن تكون الكراهة من الزوجة فتبذل للزوج ما ترضيه حتى يطلقها.

ثم بعد الطلاق لا يحق للزوج الرجوع ولا يصح منه ذلك، نعم إذا هي رجعت في البذل يحق للزوج الرجوع إليها. . . وأحكام هذا الباب في الفقه وموسوعاته. . .

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ إشارة إلى ما تقدم من أحكام وتشريعات. وأنها الحدود التي يجب أن يتوقف عندها الإنسان ولا يتجاوزها بالمخالفة لها أو عصيان أمر الله فيها. . .

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ هذا وعيد ومبالغة في التهديد وأن من يتجاوز المرسوم له من الحدود والأحكام إلى غيرها مما لا يجوز له ولا يحق فأولئك من الظالمين لأنفسهم ولغيرهم. وقد تعرضوا بهذا التعدي لغضب الله وسخطه والله قادر على أخذهم واستئصال شأفتهم. . .

فوائد

١ ـ ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾: خبر يراد به الإذن والأمر. . أي ليكن الطلاق مرتين مثله في قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ أي يجب أن تؤمّنوه. . . وهذا أسلوب من أساليب البلاغة فكأن الأمر قد تحقق ووقع فيؤتى به بهذه الصيغة الخبرية. . .

٢ ـ وردت الأحاديث عن المعصومين عليهم السلام تقول: إن قوله تعالى: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ يقصد به الطلاق الثالث.

ففي التهذيب عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍۗ﴾ التطليقة الثالثة التسريح بإحسان...

وقد وافقنا عليه بعض المذاهب الإسلامية.

٣ ـ لا يخفى أن الطلاق الشرعي أن يطلّق الرجل ثم يرجع ثم يطلق ثم يرجع ثم يطلق عندها تحرم عليه الزوجة حتى تنكح زوجاً غيره ولا يكفي عندنا الجمع بين التطليقتين كأن يقول في وقت واحد: أنت طالق، أنت طالق فبهذه لا تقع تطليقتين.

كما أنه لو قال: أنت طالق ثلاثاً لا تقع إلا طلقة واحدة على رأي، وتقع باطلة على رأي آخر، وبهذا وردت الأخبار عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وذهب إلى ذلك بعض المذاهب مستندين إلى ما رواه طاووس عن أبيه عن ابن عباس قال: كان الطلاق على عهد رسول الله[1] وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر بن الخطاب طلاق الثلاث واحدة فقال عمر: إن الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم فأمضاه عليهم...

---

(١) جامع الأحكام للقرطبي في مقام شرح الآية المباركة.

قال تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾.

اللغة

﴿فَلَا جُنَاحَ﴾: من جنح: إذا مال، ويسمى الإثم المائل بالإنسان عن الحق: جناحاً، ثم سمي كل إثم جناحاً، وقوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ لا إثم.

﴿يَتَرَاجَعَآ﴾: من رجع، والرجوع: العود إلى ما كان منه البدء أو تقدير البدء مكاناً كان أو فعلاً أو قولاً.

التفسير

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ متعلق بقوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ وهو تفسير لقوله: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ والمعنى: فإن طلقها الثالثة بعد الاثنتين.

﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ فلا تحل له ولا يجوز له مراجعتها بعد هذا الطلاق الثالث حتى تتزوج غيره.

فالرجل إذا طلق زوجته ثلاثاً حرّمت عليه ولا يصح مراجعتها وإذا أراد ذلك فلا يكون إلا بعد أن يتزوجها غيره، فإذا طلقها هذا الأخير جاز للأول ـ المطلق

ثلاثاً - مراجعتها بعقد جديد بل يصبح واحداً من خطّابها حالته حالة الآخرين الذين يريدون الزواج منها. . .

وهذا الحكم كما ترى نصَّ عليه القرآن صراحة كما هو الحال في الآية الكريمة ووردت به السنة الشريفة أيضاً وأجمع عليه رأي المسلمين على اختلاف مذاهبهم وتعدد مشاربهم. . .

- عن أبي عبد الله عليه السلام[1] في رجل طلّق امرأته ثم تركها حتى انقضت عدتها ثم تزوجها ثم طلقها من غير أن يدخل بها حتى فعل ذلك ثلاثاً.

قال: لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره.

- وعن أبي بصير يعني المرادي قال: قلت[2] لأبي عبد الله عليه السلام المرأة التي لا تحل لزوجها حتى تنكح زوجاً غيره؟ قال: هي التي تطلق ثم تراجع ثم تطلق ثم تراجع ثم تطلّق الثالثة فهي التي لا تحلّ له حتى تنكح زوجاً غيره ويذوق عسيلتها.

ثم إنه يُطلق على الزوج الثاني في الاصطلاح «المحلل» لأن بزواجه منها تحلّ لزوجها الأول لو طلقها هذا الزوج الثاني.

ويشترط أن يكون رجلاً بالغاً وأن يدخل بها عن زواج دائم فيذوق عسيلتها وتذوق عسيلته ولذا لا يكفي أن يتزوجها الثاني - متعة - لعدم الطلاق في هذا النكاح.

- عن الحسن الصيقل عن أبي عبد الله عليه السلام[3]: قال: قلت: رجل طلّق امرأته طلاقاً لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره فتزوجها رجل متعة أتحل للأول؟

قال: لا، لأن الله يقول: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا﴾ والمتعة ليس فيها طلاق.

(١) وسائل الشيعة، كتاب الطلاق، باب ٣ من أبواب العدد، حديث/ ٤.
(٢) وسائل الشيعة، كتاب الطلاق، باب ٤ من أبواب العدد، حديث/ ١.
(٣) وسائل الشيعة، كتاب الطلاق، باب ٩ من أبواب العدد، الحديث ٤.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الثاني - باختياره ورغبته وكانت شروط الطلاق كلها تامة كاملة وخرجت من عدتها إن كان لها عدة فعندها. . .

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ فلا حرج ولا إثم أن ترجع هذه المرأة بعد طلاقها من الزوج - الثاني - إلى الزوج الأول إن كان عندهما النية على الإخلاص لبعضهما وعدم التنازع والشقاق، وأن يتأدب كل منهما ويكون هذا الحدث - الزواج الثاني بعد الطلاق وزواجها من غيره، ثم طلاقها منه وعودتها إلى الأول - محاولة تأديبية تشعر هي وزوجها الأول بانكسار حدتهما ويحسنا التعامل فيما بينهما ويتأدبا بالأدب المطلوب من مثلهما. . .

إذن فيعود الزوج الأول إلى مطلّقته التي تزوجت من غيره ثم طُلقت منه - يعود إليها بعقد جديد ومهر جديد.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ما تقدم من أحكام وتشريعات هي حدود الله التي تميّزت عن غيرها، بيّنها الله وأوضح معالمها ومضامينها وخص الذين يعلمون لأنهم أهل الوعي والفهم الذين يستفيدون منها ويقيمونها على أصولها. . .

قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿فَبَلَغْنَ﴾: البلوغ والبلاغ: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى مكاناً أو زماناً أو أمراً وربما يعبّر به عن المشارفة عليه وإن لم ينته إليه كما هو الحال في هذه الآية. . .

﴿أَجَلَهُنَّ﴾: الأجل: المدة المضروبة للشيء.

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾: من الإمساك بالشيء: وهو التعلق به وحفظه.

﴿سَرِّحُوهُنَّ﴾: التسريح: إرسال الشيء، وسرح الماشية: أرسلها.

﴿بِمَعْرُوفٍ﴾: اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو الشرع: حسنه.

﴿ضِرَارًا﴾: الضرار والمضرة هو إلحاق المكروه بالآخر.

﴿لِتَعْتَدُوا﴾: من الاعتداء: وهو تجاوز الحق.

﴿هُزُوًا﴾: استهزاء وسخرية.

التفسير

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

الخطاب للرجال.. وأنهم إذا طلقوا نساءهنّ وأشرفت النساء على انقضاء العدة فإن شاء الرجال أن يراجعوا أزواجهن ويعودوا إلى حمى الزوجية بما ينفع ويفيد فهو وإلا فليمضوا الأمور ويتركوها على حالها حتى تخرج النساء من عدتهن بدون ضرر أو أذى...

وهذه الآية توحي بقاعدة كريمة عظيمة تحكم تصرّف المسلم في تعامله مع الزوجة التي طلقها وأخرجها عن عهدته بنوع من الإخراج المتزلزل، لأن المرأة إذا طلقها الرجل ـ كما هو نظر الآية ـ يجب عليها العدة، فإذا أوشكت العدة أن تنتهي فالله سبحانه يأمره بأمرين كلاهما يتضمن المعروف، وهو ما فيه الخير والإحسان والعدل إن شاء رجع إليها ضمن هذه المدة وإن شاء تركها حتى تخرج من عهدته..

ثم إنه سبحانه ينهى الأزواج عن طريقة يمكن أن تكون قد جرت مع بعضهم ومارسها عملاً كما يمكن أن تكون عادة يمارسها بعض الجاهلين الذين لم يعيشوا الإسلام وروحية الشريعة السمحاء، فلذا يتوجه الخطاب إلى إبطال هذه العادة أو هذا التصرف الشاذ.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ أي لا ترجعوا عن الطلاق إلى حالة الزواج عندما تُشرف المطلّقة على الخروج من عدتها لتقصدوا بذلك الإيذاء بها من حيث تطويل المدة التي تتوقف فيها المرأة عن الزواج أو الإيذاء لها حيث تضطر أن تفتدي نفسها وكلا الأمرين فيه ضرر عليها سبّبه الزوج بتصرفه اللاأخلاقي الشائن.

ـ في كتاب من لا يحضره الفقيه عن الحلبي عن أبي[1] عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ قال: الرجل يطلّق

(١) من لا يحضره الفقيه، باب ١٥٥ من أبواب طلاق العدة، الحديث/ ١.

حتى إذا كادت أن يخلو أجلها راجعها ثم طلقها يفعل ذلك ثلاث مرات فنهى الله عز وجل عن ذلك.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ بعد أن توجه الله بالنهي عن ممارسة هذا الفعل الشائن حذّر من عاقبته السيئة، وأن من يفعله ويقوم به يكون قد ظلم نفسه من خلاله لأن الفعل السيء يؤدي إلى المخالفة الشرعية التي مصير مرتكبها إلى النار وعذاب الملك الجبار.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ نهى سبحانه عن الاستهزاء بآيات الله وأحكامه وما شرّعه لنا ولا شك أن ترك العمل بهذه الأحكام ومخالفتها من الاستهزاء الواضح الذي لا يجوز لعاقل أن يقدم عليه.

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ اذكروا نعم الله عليكم في أصل وجودكم وفي كل موجود عندكم... وذكر العبد لنعم الله هو أن يعرف هذه النعم ويقرّبها ثم يؤدي شكرها، ثم خصّ سبحانه بالذكر نعمتين عظيمتين الكتاب والحكمة، فأنزل علينا القرآن بواسطة النبي الذي نقله إلينا وبلّغنا إياه والحكمة. التي هي سنة النبي أو التعاليم الدقيقة التي فيها صلاح ديننا ودنيانا.

﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ أي يذكّركم بما أنزل عليكم ويحملكم من خلاله إلى العودة إليه.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ لا تخالفوا أوامره واجتنبوا معاصيه لئلا تدخلوا النار.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ وليدخل في روعكم ولتحصل لكم حالة العلم بأن الله يعلم بكل شيء ومنها أقوالكم وأفعالكم بل ونياتكم وما تنطوي عليه قلوبكم، ومن علم أن الله يعلم كل ذلك أجاد عمله وحسّن سلوكه ولم يعص الله في شيء...

قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿فَبَلَغْنَ﴾: البلوغ والبلاغ: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى مكاناً أو زماناً أو أمراً وربما يعبّر به عن المشارفة عليه ـ وهو المراد هنا يعني شارفت المرأة على الخروج من عدتها دون أن تخرج منها.

﴿أَجَلَهُنَّ﴾: الأجل: المدة المضروبة للشيء.

﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾: من عضل، والعضلة: كل لحم صلب في عصب، ويستعمل مجازاً في كل منع شديد.

﴿تَرَاضَوْا﴾: قَبِلَ كل منهما بالآخر ورضي بما اتفق معه عليه.

﴿يُوعَظُ بِهِ﴾: الوعظ: زجر مقترن بتخويف، وقال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرقُّ له القلب، والعظة والموعظة: الاسم.

﴿أَزْكَىٰ﴾: أنمى وأنفع.

﴿أَطْهَرُ﴾: من الطهارة: التنزه عن الدنس والمعاصي.

التفسير

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ الخطاب لأولياء النساء أو من لهم سلطة عليهن بهذا المستوى، وأنه إذا جرى طلاقهن وانتهى وقت عدتهن فلا تمنعوا أيها الأولياء هؤلاء النساء من العودة إلى أزواجهن القدامى إذا تراضوا فيما بينهما أن يكملا مسيرتهما الزوجية وندما على ما مضى من الفراق والعذاب وقررا بالتراضي بينهما أن يكونا عند رضى الله والتزام أحكامه.

﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ما قدمته إليكم من النهي عن الإضرار بالنساء والعضل لهن ـ بالمنع عن الرجوع إلى أزواجهن ـ إنما يوعظ به: أي يتعظ ويعتبر وينتفع به من كان منكم أيها المؤمنون يؤمن بالله واليوم الآخر، فإن الإيمان بالله واليوم الآخر يستدعي من الإنسان أن ينفّذ أوامر الله ووصاياه وما جاء على ألسِنة أنبيائه ورسله.. لأنه يؤمن بالثواب والعقاب والجنة والنار فيخاف النار وعذابها ويحب الجنة وثوابها. وأما من لا يؤمن بالله واليوم الآخر فهذا إنسان لا يرتبط بشيء ولا ينضبط بضوابط معينة، فلذا لا ينتفع من الموعظة ولا يعتبر بها فيقوم بالمعصية ويعضل النساء عن الرجوع إلى أزواجهن...

﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أشد بركة وأكثر نماءاً لأن أواصر العرى تلتحم وتلتقي وبالتالي تقوى بعودة المياه إلى مجاريها بدون أثر سيء وجرحٍ دامٍ يتركه هذا المنع الموجب للفرقة والشقاق المستتبع لتأثر كل من له علاقة بالجانبين نفسياً وعملياً وذلك خلاف الطهارة والزكاة المدعو لهما المسلم دائماً وإننا نلمح بعض أسرار التشريع في روح هذا البيان الإلهي الجميل.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ والله يعلم ما يصلحكم وينفعكم فيأمركم به ويشرّعه لكم كما يعلم ما يفسدكم ويضركم فينهاكم عنه ويمنعكم عن ممارسته،

فهو لعلمه يأمر وينهى ويشرّع ويقنّن وأنتم لا تعلمون أسرار التشريع وأبعاده، فلذا يجب أن يرجع الجاهل إلى العالم. فكيف إذا كان عالماً بكل شيء ويعلم ما ينفع مما يضر فاقبلوا قوله وائتمروا بأمره وقفوا عند نهيه فإن ذلك من أجلكم ومن أجل مصالحكم، إن الإيمان بأن الله يعلم بكل شيء كعقيدة إيمانية تجعل المؤمن حذراً باستمرار فلا يخرج عن دائرة الأمر أو النهي لأنه بعين الله يراه ويعلم ما يقوم به وبعد هذا العلم سيأتي الحساب والجزاء...

قال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ﴾: جمع مؤنث الوالدة: وهي الأم: والوالدات: الأمهات.

﴿يُرْضِعْنَ﴾: من رضع: وهو امتصاص الثدي أو الضرع، والرضاع من صفات الأنثى.

﴿حَوْلَيْنِ﴾: مثنى حول: وهو السنة والعام.

﴿كَامِلَيْنِ﴾: من كمل، وكمال الشيء: حصول ما فيه الغرض منه، وكاملين تامين يحصل بهما إصلاح الولد.

﴿أَرَادَ﴾: من راد يرود: إذا سعى في طلب الشيء، والإرادة في الأصل: قوة مركبة من شهوة وحاجة وأمل.

﴿يُتِمَّ﴾: تمام الشيء: انتهاؤه إلى حد لا يحتاج إلى شيء خارج عنه، ويقال ذلك: للمعدود والممسوح.

﴿رِزْقُهُنَّ﴾: الرزق يقال: للعطاء الجاري وللنصيب ولما يصل إلى الجوف ويُتغذى به.

﴿وَكِسْوَتُهُنَّ﴾: الكساء والكسوة: اللباس.

﴿ٱلْمَعْرُوفِ﴾: هنا يراد به الاقتصاد والإحسان.

﴿لَا تُكَلَّفُ﴾: الكلف: الإيلاع بالشيء، والكلف في الوجه ـ النمش ـ سمي به لتصور كلفة به، وتكلف الشيء: ما يفعله الإنسان مع مشقة.

﴿وُسْعَهَآ﴾: الوُسْع من القدرة ما يفضل عن قدْر المكلف، والوسع: ما يكلف به العبد بحيث يكون أقل من قدرته.

﴿لَا تُضَآرَّ﴾: المضارة مفاعلة من الضرر: وهو الإيذاء بدنياً أو نفسياً.

﴿ٱلْوَارِثِ﴾: اسم فاعل من ورث، والإرث: ما تركه الميت بعد وفاته إلى ورثته..

﴿فِصَالًا﴾: الفصال: الفطام لأن الولد ينفصل عن لبن أمه إلى غيره من الأقوات.

﴿تَرَاضٍ﴾: هو الاتفاق على أمر كان مختلف فيه.

﴿وَتَشَاوُرٍ﴾: التشاور: استخراج الرأي ومثله المشاورة والمشورة مأخوذ من الشور: وهو استخراج العسل.

﴿فَلَا جُنَاحَ﴾: فلا إثم.

﴿سَلَّمْتُم﴾: أخرجتم ودفعتم...

﴿ءَاتَيْتُم﴾: أعطيتم.

التفسير

أحكام الأولاد ـ الرضاع ـ:

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ خبر يراد به الأمر وقد حملوه على الرجحان وهو المستحب وقد يشمل الوجوب هنا في بعض الصور كما لو لم يأخذ الطفل غير ثدي أمه أو لم يكن غيرها مرضع له أو غير ذلك من الأسباب.

وهذا حق أعطاه الله للأمهات، فإن شئن أن يرضعن أولادهن فلهن الحق في ذلك عامين كاملين غير ناقصين ولو قليلاً ليتم كمالهما المنصوص عليه في الآية الكريمة.

وهذا الحق للأمهات مطلقاً سواء كنّ محصنات تحت أزواجهن أو مطلقات منهم إلا في بعض الاستثناءات في المطلقات كما لو تزوجن فيسقط حق الرضاعة لهن... أو غيرها من الصور النادرة...

وإرضاع الأم لولدها أوفق بصحة الولد وأكثر بركة ونفعاً والأم أحنّ عليه وأشد شفقة، فهو جزء منها تربى في رحمها وتغذى من حشاشة قلبها، فلذا كان الابتداء بها في الآية وبلفظة الوالدات.

﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ إذا أرادوا أن يأتي الرضاع كاملاً تاماً دون نقيصة وهذا هو الحق الأولي للأم فلها أن ترضعه حولين كاملين.

وجيء بكلمة ـ حولين كاملين ـ إشارة إلى أن الحول وبعض الحول ليس حولين أو تأكيداً...

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾﴿ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ هم الآباء وعليهم النفقة من مأكل ومشرب كما أن عليهم الكسوة الثياب.. بما يليق بحالهم وبالمتعارف دون إسراف ولا تقتير بل حداً وسطاً يحفظ للمرأة كرامتها وقيامها على وليدها كما يرعى شؤون الآباء فلا يكلفهم نفقة باهظة يجعلهم يتذمرون من هذا الرضاع، إذاً

تدفع الأجرة للوالدات بما تعارف عليه أهل الدين والشرع بحيث يناسب هذه الأم ويكفيها . . .

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ نفي للتكليف الزائد عن قدرة الإنسان ومنها عدم تكليف الآباء بأزيد مما يتحملون من النفقة والكسوة، بل يتحمل الآباء قدر استطاعتهم وحسب قدراتهم دون الأكثر من ذلك قال سبحانه في سورة الطلاق: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[1].

﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ نهى سبحانه أن يضار أحد الأبوين للآخر بسبب الولد فلا تضار ـ تضر ـ الوالدة وهي ـ الزوجة ـ الزوج بسبب الولد بأن تمتنع عن الإرضاع للولد نكاية بأبيه أو تطلب أجراً باهظاً مضراً أو تمنعه عن جماعها بحجة أنها ترضع، وهكذا فتسبب الضرر لزوجها أو لأب الولد بسبب الولد. . .

وكذلك المولود له ـ وهو الأب ـ نُهي أن يضار بها ـ يضرها بسبب الولد، وذلك بأن يمتنع عن جماعها بحجة أن هذا الفعل يضر بالولد أو يمتنع عن النفقة حتى يؤذيها بأخذه منها وهكذا. . .

فالنهي يتوجه إليهما معاً ـ الأب والأم ـ أن يمتنع كل منهما عن الإضرار بالآخر، وهذا أمر منطقي في الإسلام ينسجم مع احترام الإنسان لأخيه الإنسان وأن يحفظ كل طرف من الزوجين بقايا قيم يمكن أن يتمتع بها أو يجب أن يتمتع بها كل إنسان فضلاً عن الزوجين. . .

﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ فإذا مات والد الطفل فعلى وارثه أن يقوم مقامه في النفقة والكسوة على الأم دون أن يلحق الضرر بها بالمضايقة.

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ إذا أراد الأبوان ـ الأب

---

(١) الطلاق/ ٧.

والأم - بعد التشاور فيما بينهما والتراضي أن يفطما الطفل قبل الحولين وكان في فطامه مصلحة له فلا إثم عليهما.

والعبرة بمصلحة الطفل.. فإذا اجتمعت الأم والأب وتشاورا وتوصلا إلى أن الفطام فيه مصلحة الطفل فلا إثم في فطامه...

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهـذا إعطاء حق للآباء أن يطلبوا من يُرضع أبناءهم إذا كانت في الأم علة أو كانت تمتنع عن أجرة المثل فلا تقبل بها أو لسبب ما ترفض إرضاعه أو أن الأب هو يريد أن يختار المرضعة الجيدة لابنه، فإن له الحق ولا إثم في اختياره إذ سلم لها - للأم - ما استحقته من أجرة مقابل إرضاعها بما اتفقا عليه.

أو يعود ﴿إِذَا سَلَّمْتُم﴾ إلى المرضعة غير الأم بحيث يعطيها ما تستحقه ويكرمها لتحفظ الولد وتهتم به فإن - الظئر - مستأجرة ومتى أكرمتها زيادة عمّا تستحق اهتمت بالولد وحافظت عليه وبذلت وسعها في الاعتناء به...

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه وخصوصاً في الأطفال، فاختاروا لهم ما يصلحهم من المرضعات الجيدات.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ حث وتهديد من أجل أنه سبحانه يعلم كل حركاتهم وكل أفعالهم فيجب أن تقع على الوجه المطلوب والمرغوب...

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿يُتَوَفَّوْنَ﴾: يموتون، وأصل التوفي: أخذ الشيء وافياً. أي كاملاً، توفية الشيء: بذله وافياً، واستيفاؤه: تناوله وافياً لأن الميت استوفيَ عمره.

﴿وَيَذَرُونَ﴾: يتركون.

﴿أَزْوَاجًا﴾: الزوج، يقال: لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة ولكل قرينين فيها وفي غيرها ولكل ما يقترن بآخر مماثلاً أو مضاداً والمقصود هنا في الآية الأول وهن النساء...

﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾: التربص: الانتظار.

﴿بَلَغْنَ﴾: البلوغ والبلاغ: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى مكاناً أو زماناً أو أمراً وربما يعبّر به عن المشارفة عليه.

﴿أَجَلَهُنَّ﴾: الأجل: المدة المضروبة للشيء ـ والمراد ببلوغ أجلهن هنا معناه انقضاء عدتهن.

﴿لَا جُنَاحَ﴾: لا إثم.

التفسير

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ هـذا حكم المتوفى عنها زوجها، فإذا مات الأزواج وتركوا وراءهم نساءهم فعلى النساء أن ـ يتربّصن ـ يعتددن عدة الوفاة ومقدارها أربعة أشهر وعشرة أيام...

وهذه العدة تسمى عدة الوفاة وهي واجبة على امرأة المتوفى ـ الميت ـ ويجب عليها الحداد خلالها ـ وهي ترك الزينة في نفسها أو في ثيابها.

كما أن هذه الآية عامة في كل امرأة صدق عليها عنوان زوجة المتوفى فيشمل الحكم المدخول بها وغير المدخول بها والصغيرة والكبيرة والحايل والحامل ـ ولكن الحامل يكون عدتها أبعد الأجلين ـ وضع الحمل أو الأربعة أشهر وعشراً ـ وتشمل الدائمة والمتمتع بها.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

فإذا انتهت مدة العدّة المضروبة لهن ـ بالأربعة أشهر وعشراً فلا إثم عليكم أيها المكلفون والأولياء ولا حرج فيما تقوم به النساء في حق أنفسهن من الزينة وطلب الزواج وغير ذلك مما هو مشروع ومرخص فيه بحكم الشرع مما يحفظ العفة ويصون الكرامة...

وبعبارة أخرى بعد انتهاء عدة المتوفى عنها زوجها فهي أملك لنفسها فيحق لها أن تتحرك وتتصرف بكل أمر لا يخالف الشرع ولا يضر بالمصلحة...

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ والله عليم بكل ما تعملون وسيجازيكم عليه ثواباً أو عقاباً...

فوائد

١ ـ إن قيل: لماذا أنث «عشراً» مع أن العدة تحسب بالأيام وهي مذكرة،

قيل: إنها أُنثت باعتبار الليالي لأنها سابقة على الأيام لابتداء الأشهر بها واحتساب اليوم من دخولها فغلبت لذلك. . .

٢ ـ هذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ نص صريح في وجوب الأربعة أشهر وعشراً ولكنها إذا كانت حاملاً ولم تضع حملها إلا بعد هذه المدة فعدتها وضع حملها، وبعبارة أخرى: أن مذهب أهل البيت عليهم السلام أن عدة المتوفى عنها زوجها أبعد الأجلين ـ وضع حملها إن كان بعد الأربعة أشهر وعشراً أو انقضاء هذه المدة إن كان وضع الحمل قبلها، وبهذا أيضاً جاءت السنّة الشريفة.

في الصحيح عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام[1] أنه قال في الحامل المتوفى عنها زوجها: تنقضي عدتها آخر الأجلين. .

وفي الحديث الآخر عن سماعة[2] عن الصادق عليه السلام قال: قال: المتوفى عنها زوجها الحامل أجلها آخر الأجلين إن كانت حبلى فتمت لها أربعة أشهر وعشراً ولم تضع فإن عدّتها إلى أن تضع وإن كانت تضع حملها قبل أن يتم لها أربعة أشهر وعشراً تعتد بعدما تضع تمام أربعة أشهر وعشراً وذلك أبعد الأجلين».

وقال العامة من الناس: أن عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً إن لم تكن حاملاً، وإن كانت حاملاً فعدتها وضع حملها وعليه لو مات الزوج وهي حامل ثم بعد لحظة وضعت حملها خرجت من عدتها وجاز لها الزواج وزوجها الفقيد على المغتسل. . .

٣ ـ المتوفى عنها زوجها يجب عليها الحداد خلال عدّتها.

في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام في جواب ابن أبي يعفور حيث سأله عن المتوفى عنها زوجها قال:

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب الطلاق، باب ٢١ من أبواب العِدَد، حديث/ ١ ـ ٢.

(٢) وسائل الشيعة، كتاب الطلاق، باب ٢٩ من أبواب العِدَد، حديث/ ٢.

لا تكتحل للزينة ولا تطَّيب ولا تلبس ثوباً مصبوغاً[١] ولا تبيت عن بيتها، وتقضي الحقوق وتمتشط بغسلة وتحج وإن كانت في عدتها.

٤ ـ إن عدة المتوفى عنها زوجها من حين بلغها خبر الوفاة وليس من حينها وهذه تختلف عن المطلقات الأخر.. حيث تبتدىء عدتها من يوم الطلاق، فلو لم تعلم بالطلاق حتى خرجت عدتها جاز لها الزواج من ساعتها.. وهذا عكس المتوفى عنها زوجها.

في الحديث عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال[٢] في الغائب عنها زوجها إذا توفي قال: المتوفى عنها زوجها تعتد من يوم يأتيها الخبر لأنها تحد عليه.

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب الطلاق، باب ٢١ من أبواب العدد، حديث/ ١.
(٢) وسائل الشيعة، كتاب الطلاق، باب ٢٩ من أبواب العِدَد، حديث/ ٢.

قال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَـٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾.

اللغة

﴿عَرَّضْتُم بِهِۦ﴾: التعريض: كلام له وجهان من صدق وكذب أو ظاهر وباطن والأصل فيه إمالة الكلام عن نهجه إلى عرض منه وجانب والمقصود بالتعريض أن تفهم المخاطب بقصدك بلفظ لم يوضع له.

﴿خِطْبَةِ﴾: والخطبة طلب المرأة والتماس نكاحها إذا كانت بالكسر وأما إذا كانت مضمومة فقد خُصّت بالموعظة.

﴿أَكْنَنتُمْ﴾: أسررتم وسترتم في أنفسكم.

﴿سِرًّا﴾: الإسرار: خلاف الإعلان، والسر: هو الحديث المُكتَم في النفس.

﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟﴾: العزم والعزيمة: عقد القلب على إمضاء الأمر.

﴿عُقْدَةَ﴾: من العقد: وهو الشدّ، قال الراغب: العقدة: اسم لما يعقد من نكاح أو يمين أو غيرهما.

﴿بَلَغَ﴾: البلوغ والبلاغ: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى مكاناً أو زماناً أو أمراً وربما يعبر به عن المشارفة عليه. .

﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾: بمعنى المكتوب: أي المفروض.

﴿ٱلْأَجَلَ﴾: المدة المضروبة للشيء.

﴿فَٱحْذَرُوهُ﴾: الحذر: احتراز عن مخيف.

﴿حَلِيمٌ﴾: الحلم: ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب وجمعه أحلام.

المعنى

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ بعد أن ذكر سبحانه المتوفى عنها زوجها وبعض أحكامها ذكر هنا أنه لا إثم على الرجال الراغبين في الزواج منها أن يعرّضوا بالحديث لها - خلال عدة الوفاة - أنهم يرغبون في الزواج منها.

والتعريض أن يذكرها بكلام ليس صريحاً - بل فيه تلويح برغبته في الزواج منها وهذا أمر يفهمه العرف ويستعمله في المقامات المرادة كأن يقول لمن أراد الزواج منها - وهي في عدتها - مثلك يرغب فيها الرجال - أو أنك لصالحة وأنا أحب امرأة صفتها كذلك أو إنك جميلة فلا تتأيمين وسيكون خطّابك في الباب. . . وهذا مما يكون فيه إشارة على المطلوب.

﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ لا إثم فيما سترتم في أنفسكم من الرغبة في الاقتران بهن وحديث النفس - في الزواج من المتوفى عنها زوجها - أمر ليس اختيارياً بل يأتي قهراً عن الإنسان ويدخل عليه بدون استئذان، ولهذا يكون معفواً عنه لا يؤاخذ به من يخطر بباله إذا لم يظهره إلى العلن ويتبعه بخطوات عملية.

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ كشف سبحانه عن علمه بما كانوا يفعلون وحدّثهم بما كانوا يذكرون تلك النسوة جهراً ولم يقدروا على كتم ما في أنفسهم أو إخفائه. . .

إنه الإنسان المحدود الطاقة والقدرة لا يتمكن أمام الرغبة الشديدة إلا أن يذكر المرأة المرغوبة لديه ـ حتى لو كانت في عدة وفاة زوجها. . .

وهذا الذكر لا يؤاخذ به الله ولا يعاقب عليه بل أباحه الله ـ فاذكروهن واقتصروا على ذكرهن ـ دون غيره من المواعدة واللقاءات الجانبية التي تثير الشبهات ويمكن أن تهتك الحرمات. .

فاذكروهن ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ وهذا استدراك فيه منع حيث أجاز الله لكم ذكر النساء ولكن منع أن تواعدوهنّ سراً ـ خلوة ـ بما لا يجوز كأن يواعدها ليلتقي معها ويصارحها بالزواج أو بما لا يجوز من ذكر الفحش والكلام المثير للجنس أو غير ذلك نعم إذا كانت المواعدة يتخللها التلويح إلى رغبته فيها والإشارة إلى ذلك فلا بأس به وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ في الآية وهو المسموح به والمباح. . .

﴿وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ لا تقوموا بعقد النكاح وتبرموه حتى ينتهي وقت العدة المضروبة للمتوفى عنها زوجها، فإذا خرجت من عدة الوفاة فاعقدوا عليها. . .

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ تحذير لهم أن يكونوا من أصحاب النيات السيئة لأنه سبحانه لا يخفى عليه شيء مما في أنفسهم وعليهم أن يخافوا من معاصيه المؤدية إلى عقابه. . .

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ بعد التحذير ألقى في روعهم الأمل بغفران ما ارتكبوه من قبيح إن أقلعوا عنه وتابوا عن ممارسته وأنه لا يعاجلهم بذنوبهم لأنه الحليم الذي يمهلهم حتى يتوبوا ويرجعوا. . .

فوائد

١ ـ من المتفق عليه بين المذاهب الإسلامية حرمة العقد على المعتدة سواء

كانت العدة عدة وفاة أو بائن فضلاً عن عدة الرجعية التي هي زوجة طالما أنها في عدتها. . .

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ وإن كانت صيغة الخطاب عامة ولكنها قطعاً لا تشمل المطلقة رجعياً لأنها زوجة خلال عدتها، ولا يجوز لأحد أن يعرّض بها لحرمة التعرض لذات البعل، نعم في غير هذه الحالة يجوز التعريض دون التصريح. . .

٣ ـ لا شك أن في كل مجتمع عرف خاص في حالات الوفاة وخصوصاً إذا كان المتوفى هو الزوج، فإن الزوجة يجب أن تلتزم أموراً قد تعارف عليها ذلك المجتمع، ولكن بعض تلك العادات والتقاليد فيها ظلم للمرأة وإجحاف بحقها، وبعضها الآخر يُسقط كل حق للميت أو حرمة أما الإسلام فقد أخذ ـ وهو تشريع السماء ـ بما يتناسب وحفظ الحقوق. . فرفع الظلم عن المرأة واحترم الميت وحفظه وهو غائب فجعل على المرأة الحداد . . من ترك الزينة وكل ما يظهر منه اللامبالاة بوفاة الزوج، وأن تلتزم عدم الخروج من البيت إلا لضرورة وهذه وأشباهها أمور تحكي وفاء الحي للميت وتراعي شعور أهل الميت كما تراعي الأمور الأخلاقية نحو الزوج الفقيد، وفي المقابل لم يجعل هذه الأمور مفتوحة أو طويلة الأمد بل قدّرها بأربعة أشهر وعشرة أيام وهي مدة تكفي للجمع بين حقوق الزوج المتوفى والزوجة الوفية. . .

قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾.

اللغة

﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾: من المس: وهو ما يكون معه إدراك بحاسة اللمس وكنّي به عن الجماع.

﴿تَفْرِضُوا﴾: أصل الفرض: هو التقدير والمقصود هنا المهر الذي التزم لها به الزوج.

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾: المتاع والمتعة: كل ما ينتفع به على وجه ما، والتمتيع هنا: ما يعطى للمرأة المطلقة المخصوصة بشروط معينة.

﴿ٱلْمُوسِعِ﴾: يقال: أوسع الرجل: إذا صار ذا سعة في المال وغنى.

﴿قَدَرُهُ﴾: القدر: بفتح الدال وسكونها قدر الإمكان والطاقة.

﴿ٱلْمُقْتِرِ﴾: الفقير، وأقتر: إذا افتقر قلّ ماله.

﴿حَقًّا﴾: واجباً ثابتاً.

﴿يَعْفُونَ﴾: من العفو. وهو التجافي عن الذنب وعدم الأخذ به، وكذلك يطلق على ما يسهل قصده وتناوله.

﴿عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾: أصل العقد: هو الجمع بين أطراف الشيء ويستعمل ذلك في الأجسام الصلبة كعقد الحبل والبناء ثم يستعار للمعاني، والعُقدة: اسم لما يعقد من نكاح ويمين وغيرهما.

﴿وَلَا تَنسَوُا﴾: من النسيان: وهو ترك الإنسان ضبط ما استودع.

﴿ٱلْفَضْلَ﴾: الإحسان، كل عطية لا تلزم من يعطي يقال لها فضل.

التفسير

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ لا يزال سبحانه يبيّن حكم المطلقات من النساء، وهنا يشرّع الطلاق وينفي الإثم عمن أراد الطلاق قبل أن يدخل بها ولم يسم لها مهراً. فهذه الحالة يمكن أن تحمل معها شيئاً من الحزازة والألم ويشعر الزوج بشيء من الإثم من حيث أقدم على امرأة ورغب فيها ثم بعد العقد عدل عنها وأراد طلاقها ولم يُسمِ لها صداقاً، فإذا كانت الحالة هذه وإن كانت قاسية وصعبة ولكن لا حرمة فيها على الزوج بل يجوز له طلاقها...

هذا الحكم من باب التكليف الذي يستتبعه أثر آخر يترتب عليه وقد بيّنه سبحانه بقوله:

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فمثل هذه الحالة التي يتم فيها الطلاق ويتعين الفراق - ولم يدخل الزوج بالزوجة ولم يسم لها مهراً - فيجب أن يعطيها «متعة» أي شيئاً من الأموال أو الأعيان أو غير ذلك مما يجبر به كسرها ويشعرها أنها تستحق الاحترام والتقدير، ويجب أن

تكون هذه المتعة بحسب حاله، فإن كان موسعاً عليه غنياً فهو وشأنه يعطيها بحسب وضعه الاجتماعي والمالي بما يليق به ويراه العرف من شأنه.

وأما إذا كان مقتراً عليه فقيراً لا يملك من حطام الدنيا إلا القليل، فعليه أن يمتّعها بما يليق به وما هو وشأنه، وهذا يختلف عن الغني.. والعرف يحدّد لكل منهما ما يجب أن ينفق بحسب حاله وما هو عليه من الغنى والفقر...

وهذا هو التمتع بالمعروف الذي جعله الله ثابتاً على المحسنين الذين يحملون الخير إلى الناس جميعاً فكيف بمن جمعه وإياها عقد نكاح لو تم لكانت العلاقة جدُ وثيقة وقوية... إن قواعد الإحسان تفرض على هذا الزوج أن يمتّع مطلقته بما يناسب حاله وما يليق وشأنه..

وفي الحديث عن أبي الصباح الكناني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا طلّق الرجل[1] امرأته قبل أن يدخل بها فلها نصف مهرها وإن لم يكن سمى لها مهراً فمتاع بالمعروف على الموسع قدره وعلى المقتر قدره وليس لها عدة تزوّجت إن شاءت من ساعتها».

وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام[2] في الرجل يطلق امرأته أيمتعها؟

قال: نعم أما يُحب أن يكون من المحسنين؟ أما يحب أن يكون من المتقين؟

كما نقلت السنة بعض المصاديق للموسع والمقتر ومقدار نفقة كل منهما وطبعاً هذا كان في زمان قديم ولا يجري في زماننا فلكل زمان متعته بما يتناسب معه.

عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾[3] إلى أن قال: إذا كان الرجل موسعاً عليه متع امرأته بالعبد والأمة والمقتر يمتّع بالحنطة والزبيب والثوب والدراهم.

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب النكاح، باب ٤٨ من أبواب المهور، حديث/٩ ـ ٥.
(٢) نفس المصدر.
(٣) وسائل الشيعة، كتاب النكاح، باب ٤٩ من أبواب المهور، حديث/ ١.

وأن الحسن بن علي عليه السلام متّع امرأة له بأمة ولم يطلّق امرأة إلا متّعها...

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ وهذه الصورة من الطلاق هي نفسها الصورة التي تقدمت إلا أن هنا سمّى لها المهر وحدّده.

فإذا أراد الزوج الطلاق ولم يكن قد دخل بزوجته ولكنه عيّن لها مهراً معيناً ففي ذلك يجب عليه نصف المهر المسمى في العقد ويسقط عنه النصف الآخر، فلا يجب عليه وهذا المعنى واضح ظاهر من الآية...

وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال[1]: إذا طلّق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها فقد بانت وتزوجت إن شاءت من ساعتها، وإن كان فرض لها مهراً فلها نصف المهر وإن لم يكن فرض لها مهراً فليمتعها...

﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ يجب كما تقدم نصف المهر في هذه الصورة تأخذه المرأة كحق مشروع لها إلا أن تعفو هذه المرأة المطلقة عن حقها كله أو تعفو عن جزء منه أو يعفو وليها إذا كانت صغيرة وكان العفو لمصلحتها. وبهذا نطقت الروايات الصحيحة الواردة عن المعصومين عليهم السلام.

عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل[2]: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ قال هو الأب أو الأخ أو الرجل يوصى إليه والذي يجوز أمره في مال المرأة فيبتاع لها فتجيز - ويتجر - فإذا عفا فقد جاز..

﴿وَأَن تَعْفُوٓا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ترغيب في العفو بشكل عام، وهنا في المقام يأتي تطيباً لخاطرها وترغيباً لها في الحصول على امتياز التقوى فهي وإن كانت

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب النكاح، باب ٥١ من أبواب المهور، حديث/١.
(٢) وسائل الشيعة، كتاب النكاح، باب ٥٢ من أبواب المهور، حديث/١.

تملك نصف المهر ولكنها إذا أرادت أن تكمل شوط الفضيلة وتقترب أكثر من النقوى فلتعفُ عن المهر كله أو جزء منه، ولعل ذلك لأنها لم تقدم شيئاً في مقابل ما أخذت وإن أخذت حقاً بحكم الشرع، ولكن الأقرب للتقوى أن لا تأخذ من المهر شيئاً وكذلك بهذا العفو تبقى المودة بين الأسرتين قائمة والانسجام تام وهو أمر يحبه الله ويرغب فيه...

﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ نهيٌ يقصد به الأمر أي أقيموا الإحسان فيما بينكم وتعاطوا على أساسه ولا يكن طلاق المرأة بمانع عن الإحسان إلى الزوج بالعفو عما تستحق ولا يكن طلاقه لها بحامل له إلى دفع المهر فحسب، بل فليدفع الزيادة على ذلك ويحسن إليها ـ هذا على المستوى المادي ـ أما على المستوى الاجتماعي فلا ينبغي أن يكون الطلاق إذا حدث لضرورة قصوى واضطرار أن يقطع الروابط الرحمية بين الناس ويربّي العداوات المؤدية إلى التقاطع والتدابر وحزازات النفوس.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تهديد لكل مخالف وأنه سبحانه يعلم بكل معصية وانحراف ويحاسب عليها بما تستحق من العقاب...

فوائد

١ ـ تبين من الآيات المتقدمة أن المطلقات على أربعة أصناف:

أ ـ المطلّقة المفروض لها مهراً معيناً والمدخول بها وهذه تستحق المهر كله.

ب ـ المطلّقة غير المفروض لها مهراً أصلاً ولا المدخول بها بل جرى العقد بينهما فقط وهذه لها المتعة بالمعروف بحسب حال الزوج من الغنى والفقر.

ج ـ المطلّقة المفروض لها مهراً معيناً ولم يتم الدخول بها وهذه لها نصف المهر المسمى.

د ـ المطلّقة غير المفروض لها مهراً معيناً أصلاً وتم الدخول بها فهذه لها مهر المثل.

٢ ـ إن الآية الكريمة ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ دلّت على حلية الطلاق مطلقاً قبل الدخول وإن كانت في زمن الحيض.

٣ ـ هذه الآية تدل أيضاً على صحة العقد بدون ذكر المهر. . .

٤ ـ ذهب بعضهم إلى أن قوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَا ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ إلى أنه الزوج الذي أجرى الطلاق وعفوه أن يترك المهر كله لها ولا يسترجع منه شيئاً وصوّر المسألة بأن الزوج كان يدفع المهر كله سلفاً فعفوه أن لا يسترجع منه شيئاً. . .

ولكن هذا القول وإن أمكن احتماله ولكن يبعّده أنه خلاف الظاهر وأنه خلاف ما ثبت في السنّة حيث عيّنت. . كما تقدم. . أنهم الأولياء للمرأة المطلقة من الأب والجد للأب وهكذا. . .

قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿حَٰفِظُواْ﴾: المحافظة: تفقد الشيء وتعهده ورعايته، والمحافظة على الصلاة: تكون بمراعاة أوقاتها وأركانها والقيام بها.

﴿ٱلصَّلَوَٰتِ﴾: جمع صلاة: وهي لغة الدعاء، ثم نقلت إلى الهيئة المخصوصة ذات الأجزاء والأركان المعروفة.

﴿ٱلْوُسْطَىٰ﴾: مؤنث الأوسط، ووسط الشيء ما له طرفان متساويان، ويطلق الوسط على خير الشيء وأعدله، والصلاة الوسطى؛ هي صلاة الظهر وإما أن تكون الوسطى بمعنى الفضلى.

﴿قَٰنِتِينَ﴾: من القنوت: وهو لزوم الطاعة مع الخضوع.

﴿خِفْتُمْ﴾: من الخوف: وهو توقع مكروه عن إمارة مظنونة أو معلومة وهو ضد الأمن.

﴿فَرِجَالًا﴾: جمع راجل: وهو الماشي على رجله.

﴿رُكۡبَانٗا﴾: جمع راكب: وهو من يركب ظهراً من فرس أو جمل أو غير ذلك.

﴿أَمِنتُمۡ﴾: من الأمن: وأصله طمأنينة النفس وزوال الخوف.

التفسير

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ أمر سبحانه المسلمين بالمحافظة على الصلوات كلها، وهذه المحافظة تعني المداومة عليها في أوقاتها والإتيان بها بجميع أجزائها وشرائطها ودفع موانعها وأن يتم الإخلاص فيها لله حتى تأتي في قائمة الأعمال المقبولة عنده.

ثم إنه سبحانه خصّص الصلاة الوسطى بالذكر وأمر بالمحافظة عليها زيادة على الأمر العام الشامل لها ضمن الأمر بإقامة الصلوات كلها اهتماماً بها واعتناء بشأنها لفضلها وأجرها وثوابها...

الصلاة الوسطى:

اختلفت المذاهب الإسلامية في تعيين الصلاة الوسطى تبعاً لاختلاف المراد - بهذه الآية - حيث تعددت الأقوال حتى بلغت عشرة أو يزيد عن ذلك ومن تتبع الاجتهادات وطرق الاستنباط وجد أن أكثرها استحسانات خاضعة لتصورات أصحابها بعضها يبطل بعضاً وبعضها ينقض بعضها وما ذلك إلا لبعد القوم عن أهل البيت عليهم السلام وتعاليمهم التي تلقوها عن صاحب الرسالة.

١ - قالوا: إنها صلاة العصر واستدل صاحب هذا الرأي بأن قبلها صلاتي نهار وبعدها صلاتي ليل.

٢ - قالوا: إنها المغرب لأنها المتوسطة بين الأقل - ركعتان والأكثر - أربعة.

٣ ـ قالوا إنها الصبح لأن قبلها صلاتي ليل يجهر فيهما وبعدها صلاتي نهار يُسر فيهما.

٤ ـ قالوا: صلاة الجمعة، وقالوا: الصلوات الخمس، وقالوا: صلاة العيد، وقالوا: إنها الصلوات كلها، وقالوا أخيراً إنها غير معينة مبهمة بين الجميع.

والذي عليه أهل البيت عليهم السلام إنها صلاة الظهر وتبعهم فقهاؤنا رضوان الله عليهم وهو القول الأصح حتى على رأي المحققين من العامة.

فقد قال الألوسي في تفسيره «قال بعض المحققين: والذي يقتضيه الدليل من بين هذه الأقوال ـ بعد أن يعددها على كثرتها ـ إنها الظهر... ثم يستدل على ذلك «وبيان ذلك أن سائر الأقوال ليس لها مستند يقف له العجلان سوى القول بأنها صلاة العصر.

ثم استدل على بطلانها بتضارب أقوال الصحابة فيها وبالتالي تسقط أقوالهم لمخالفة بعضهم لبعض، وما ورد من الأحاديث فإسناده لا يخلو من مقال وهكذا أبطلها وهو أسدّ الأقوال وهو القول الموافق لنا...

ومن طريقنا وردت الأحاديث المعيّنة لها بالظهر.

عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: صلاة الوسطى[1] هي الوسطى من صلاة النهار وهي الظهر وإنما يحافظ أصحابنا على الزوال من أجلها..

وعن أبي جعفر في حديث قال: وقال تعالى[2]: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ وهي صلاة الظهر ـ إلى أن قال ـ وأُنزلت هذه الآية يوم الجمعة ورسول الله صلى الله عليه وآله في سفر فقنت فيها فتركها على حالها في السفر والحضر..

(١) وسائل الشيعة، كتاب الصالة، باب ٥ من أبواب إعداد الفرائض، حديث/١ ـ ٦.
(٢) نفس المصدر.

﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ قوموا لله في صلاتكم - بقرينة الصلاة وسياقها - لله خاشعين خاضعين أو كونوا دائماً وفي كل حين في خشوع لله وخضوع مستشعرين عظمته وجلال قدسه. . .

ويمكن أن يكون قوله: ﴿قَانِتِينَ﴾ يدل على استحباب القنوت في الصلاة، وقد قال بوجوبه ابن بابويه وابن أبي عقيل، ومحله في الصلاة بعد القراءة للسورة من الركعة الثانية وقبل ركوعها وفي الجمعة قنوتان في الأولى قبل الركوع وفي الثانية بعده. والقنوت نوع من الدعاء يدعو به المصلي لدينه ودنياه لنفسه ولغيره.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ هذه صورة للصلاة مغايرة للصورة الأولى، فهناك كانت الأجواء طبيعية والناس في هدوء وطمأنينة. أمّا هنا فالحالة فيها خوف وفزع - وفي مثل ذلك كيف يستطيع المسلم المصلي أن يؤدي هذه الفريضة؟. إنه خوف قد يحول دون الركوع والسجود والإتيان بكل الأجزاء كما هي حالة الاختيار. . . هنا يختلف الأمر. . فالخائف من عدو يطلبه أو وحش لا يقدر على مقاومته فصلاته تكون بحسب قدرته، تارة يصليها وهو ماشٍ على أقدامه المعبر عنه ﴿فَرِجَالًا﴾ وهو جمع راجل وأخرى يصليها وهو راكب المعبر عنه ﴿رُكْبَانًا﴾ على ظهر دابته بحسب الظرف المناسب له. . .

في الحديث عن عبد الرحمٰن بن أبي عبد الله قال: سألت[1] أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: «فإن خفتم فرجالاً وركباناً» كيف يصلي؟ وما يقول إن خاف من سبع أو لص، كيف يصلي؟

قال: يكبّر ويومىء برأسه إيماء.

وعن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: الذي[2] يخاف اللصوص أو السبع يصلي صلاة المواقفة إيماء على دابته.

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، باب ٣ من أبواب صلاة الخوف، حديث/ ١ - ٨.
(٢) نفس المصدر.

قال: قلت: أرأيت إن لم يكن المواقف على وضوء كيف يصنع ولا يقدر على النزول؟

قال: ليتيمم من لبد سرجه أو عرف دابته فإن فيها غباراً ويصلي ويجعل السجود أخفض من الركوع ولا يدور إلى القبلة ولكن أينما دارت به دابته ـ غير أنه يستقبل القبلة بأول تكبيرة حين يتوجه».

ومن هذه الآية نكتشف أهمية الصلاة وعظمة شأنها وأنها لا تترك بحال.. فالعاجز عن الصيام يسقط فرضه عنه والعاجز عن الجهاد يسقط فرضه عنه والعاجز عن الصدقة وإخراج الزكاة والخمس يسقط عنه ذلك وهكذا دواليك، أما هذه الصلاة فتتغيّر كيفيتها ولكن تبقى حقيقتها قائمة واجبة لا تسقط، يجب أن يؤديها المختار كما يجب أن يؤديها المضطر حتى الغريق والحريق وهما في وسط النار ولجج البحار...

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ فإذا ذهبت حالة الخوف التي أوجبت الصلاة بكيفيتها المتقدمة وعاد الأمن والأمان إلى نفوسكم واطمأننتم لما أنتم فيه ﴿فَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ صلّوا كما كنتم تصلّون حال الاختيار والأمان واتوا بها بأركانها وشرائطها على الوجه الذي أمركم الله وشرعه لكم.

والآية واضحة في التكليف بذكر الله ـ وإن على المكلف أن يذكر الله بالحمد والشكر وكل أنواع التمجيد والثناء لأنه علّمه ما لم يكن يعلم وبيّن له أحكام صلاته في حال الأمن والطمأنينة وفي حال الخوف والفزع، بل ذِكْرُ الله ـ من الحمد والثناء ـ ينبغي أن يكون على ما بيّنه الله لهذا الإنسان في كل التكاليف التي لم يكن ـ لولا بيان الله لها ـ ليهتدي إليها الإنسان ويعرف منافعها وفوائدها وثمراتها الطيبة...

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.

اللغة

﴿يُتَوَفَّوْنَ﴾: يموتون، وأصل التوفي: أخذ الشيء وافياً أي كاملاً كأن الميت استوفى عمره.

﴿وَيَذَرُونَ﴾: يتركون.

﴿وَصِيَّةً﴾: الوصية: ما يعهده الإنسان لآخر من التصرفات بعد وفاته.

﴿الْأَزْوَاجَ﴾: يقال لكل واحد من القرينين الذكر والأنثى، والمقصود هنا «النساء».

﴿مَتَاعًا﴾: المتاع والمتعة: كل ما ينتفع به على وجه ما ويقصد بالمتاع هنا النفقة.

﴿الْحَوْلِ﴾: السنة والعام.

﴿فَلَا جُنَاحَ﴾: فلا إثم.

﴿مَعۡرُوفٖ﴾: المعروف: اسم لكل فعل يعرف بالعقل والشرع: حسنه..

﴿عَزِيزٌ﴾: العزيز: هو الذي يقهر ولا يُقهر.

﴿حَكِيمٌ﴾: فاعل الحكمة: وهو واضع الأمور في مواضعها.

﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ﴾: جمع مطلّقة: وهي من جرى عليها الطلاق بأن حلّ عقد النكاح بأسبابه.

﴿يُبَيِّنُ﴾: يُظهر ويكشف.

﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾: أحكامه.

﴿تَعۡقِلُونَ﴾: تفهمون وتتدبرون.

التفسير

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖ﴾ هذه الآية جاءت تمشياً مع عادة كانت قائمة عندما بعث الله نبيه ﷺ: ومفادها: وجوب الوصية على الرجال «الذين يُشرفون على الموت بظهور علاماته لهم من مرض عضال أو كبر سن لا يعيش المرء مثلها أو جراحة أو غير ذلك» على هؤلاء أن يتقدموا بالوصية لأزواجهم ـ يوصون لنسائهم ـ بأن يتمتعن حولاً كاملاً ـ أي ينفق عليهن من تركة الميت حولاً كاملاً ولا يُخرجن من بيوت أزواجهن الذين توفوا عنهم...

وهذه الآية بما تحمل من حكم شرعي معيّن قد نسخت وارتفع مدلولها وحلّ محلها الحكم الوارد في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗا﴾..

فأصبحت عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً لا أكثر.

وفي الحديث عن أبي بصير المرادي عن أبي عبد الله عليه السلام قال[1]: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال للنساء: أفٍ لكنّ قد كنتن قبل أن أُبعث فيكن، وأن المرأة منكن إذا توفي عنها زوجها أخذت بعرة فرمت بها خلف ظهرها ثم قالت: لا أمتشط ولا أكتحل ولا أختضب حولاً كاملاً، وإنما أمرتكن بأربعة أشهر وعشراً ثم لا تصبرن..

وعن علي بن الحسين المرتضى في رسالة «المحكم والمتشابه»[2] نقلاً عن تفسير النعماني بإسناده الآتي عن علي عليه السلام في بيان الناسخ والمنسوخ قال: ومن ذلك.. أن العدة كانت في الجاهلية على المرأة سنة كاملة وكان إذا مات الرجل ألقت المرأة خلف ظهرها شيئاً بعرة أو ما يجري مجراها وقالت: البعل أهون عليّ من هذه ولا أكتحل ولا أمتشط ولا أتطيب ولا أتزوج سنة، فكانوا لا يخرجونها من بيتها بل يجرون عليها من تركة زوجها سنة، فأنزل الله في أول الإسلام ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ فلما قوي الإسلام أنزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخر الآية.

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ في صدر الآية أعطى الله للنساء الحق في أن يبقين في بيوت أزواجهن المتوفين حولاً كاملاً ولهن النفقة هذه المدة.

وباعتبار أن هذا الحق لهن، فلهن أن يسقطنه ويخرجن من البيوت، فإذا خرجن باختيارهن ورضاهن فلا إثم على أولياء الميت وورثته في تركهن وشأنهن وما يفعلن في أنفسهن من معروف.. وهو التزويج ومقدماته من التزيين والتعرض للخطّاب بحيث يبقين ضمن ما يريده الشرع الشريف وما يسمح به.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ والله ممتنع بقوته يقهر من يخالف أمره وما جاء به وأيضاً حكيم في صنعه وتشريعه ويعلم ما يصلح عباده فيشرّعه لهم ويأمرهم به، وأمّا ما يضرهم فيمنعهم عنه ويحرّمه عليهم...

(١) و(٢) وسائل الشيعة، كتاب الطلاق، باب ٣ من أبواب العِدَد، حديث/١.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ تقدم معنا سابقاً.. أن المعقود عليها غير المدخول بها التي لم يُسم ـ لها مهراً ـ لها المتعة وهي بحسب حال الزوج يسراً وعسراً، فالغني يدفع لها ما يناسب غناه والفقير ما يناسب فقره. وهنا حكم الله بالمتعة لجميع المطلقات على اختلاف طلاقهن بما يرضى به الله ويكون مناسباً لشأن الرجال وكأن هذه المتعة تكون جبراً لخاطر النساء وعدم نسيان الفضل فيما بينهم وبينهن...

وقد جعل الله هذه المتعة من لوازم الأتقياء الذين يعيشون الأحكام الشرعية في كل حدودها حتى المستحبة منها...

ومن هنا يمكن أن نحمل هذه الآية على الاستحباب. وأنه يستحب لكل مَنْ طلّق زوجته أن يمتّعها زيادة عما يعطيها من حق لها حتى يكون من المتقين، ويمكن أن يستفاد هذا المعنى من بعض الروايات كما في الرواية الواردة[1] عن أبي عبد الله عليه السلام في الرجل يطلق امرأته أيمتعها؟

قال: نعم أما يحب أن يكون من المحسنين؟ أما يحب أن يكون من المتقين؟

وفي الرواية عن أبي جعفر يسأله محمد بن مسلم[2] عن الرجل يطلق امرأته..

قال: يمتّعها قبل أن يطلق، قال الله تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ كما بين سبحانه فيما مر أحكام الطلاق وما يتوجب على المطلّق وما يترتب على المطلقات من العِدد والنفقات وغير ذلك.. كذلك يبين الله لكم أيها المكلفون آياته الدالة على الأحكام وما فيه القرب منه والزلفى إليه لعلكم تفهمون هذه الآيات وتعملون بها...

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب النكاح، باب ٤٨ من أبواب المهور حديث/ ١ ـ ٥.

(٢) نفس المصدر.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿دِيَٰرِهِمْ﴾: جمع دار: وهي المنازل اعتباراً بدورانها الذي لها بالحائط وتطلق على البلدة وعلى الصقع وعلى الدنيا.

﴿أُلُوفٌ﴾: جمع ألف جمع كثرة وفي القلة آلاف.

﴿حَذَرَ﴾: الحذر: احتراز عن مخيف.

التفسير

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ استفهام يحمل التعجب والتقرير والمخاطب به النبي ﷺ ويراد به أمّته..

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم ويصلك نبأ القوم ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ من منازلهم وبلادهم وهم ألوف مؤلفة وجماعات كثيرة خوفاً من الموت أن يقع

عليهم. فكان هروبهم من ديارهم خشية أن يدركهم الموت الذي حطّ رحاله في رحابهم...

هربوا من الديار خوف الموت أن يدركهم.. خرجوا فارّين بأنفسهم ظانين أن الهرب ينجيهم منه، ولكن الله سبحانه الذي أراد للموت أن يقع بهم قال لهم موتوا فماتوا.. بإرادته التي بها يتحقق المراد كان مماتهم.. أبداً لم يكن هناك فاصل بين قوله «كن» وبين تحقيق المراد...

ولكن العبرة ليس فحسب بالموت الذي حل فيهم بإرادة الله بل أيضاً بإحيائهم.. ﴿ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ بعثهم من جديد.. أعاد لهم الحياة بعد أن ماتوا... ليعتبر هذا الإنسان بالموت كما يعتبر بالحياة وليدرس كلا الحالتين ففيهما العظة والاعتبار...

كثرت الروايات وتعددت الأخبار في شأن أهل هذه القصة... مَنْ يكونون؟ وأين كانوا؟.. وكيف خرجوا من ديارهم؟ ولأي سبب خرجوا؟ وكم عددهم؟ وما هو نوع الخوف لهم؟... وكيف أماتهم الله؟ ولأي شيء؟ ثم كيف أحياهم ولماذا؟...

أسئلة كثيرة لا يمكن أن يجاب عليها من خلال ما ورد من أخبار... لأنها أخبار لا تعتمد على قول المعصوم بل على اجتهادات بعض الصحابة والتابعين. وما ورد متصلاً إلى المعصوم لم يصل بطريق سليم..

إن هذه الواقعة التي قصّ الله خبرها وخبر أهلها.. يمكن أن تؤدي الغرض الذي جاءت من أجله وهو: إن المسلمين في المدينة يحتاجون إلى الجهاد الذي يحفظ عليهم عقيدتهم ودينهم وبدون التضحية والفداء وبيع النفوس في سبيل الله، لن يكون هناك أسرة ولن يكون بالتالي مجتمع إسلامي، ولن يكون هناك عقيدة إلهية يعيش في ظلالها المسلم...

إن الجهاد هو الطريق إلى حفظ الناس وعقائدهم وما يحملون من أفكار وتصورات، ولذا يقصّ الله هذه القصة ليقوي نفوس المسلمين ويدفعهم إلى عدم

الخوف من الموت وأن الهروب منه لا يجدي ولا ينفع ولا يؤخر أجلاً أو يدفع إرادة الله. . .

إن الهروب من الموت والخوف من حلوله لا يدفعه أو يؤخره. . .

الأعمار بيد الله والعقيدة تحتاج إلى حرّاس، والمسلم هو الحارس المؤتمن، فلذا يجب أن يواجه الطغاة ويسدّد نحوهم سهام الموت. . .

ويؤيد هذا المعنى ما يتلو هذه الآية من قصص بني إسرائيل وأخبارهم، وكيف لما جاهدوا مع ملكهم المختار انتصروا بعد الهزائم والذل. . .

إنها واقعة حقيقية وليست مثلاً. . نجهل تفاصيلها ولكن مدلولها وأثرها ظاهر للعيان يقرأه الإنسان فيأخذ العبر والدروس. . .

إنها حالة الهروب من الموت فيلاقيهم أمر الله بالموت فيموتون ثم يحييهم من جديد ليعتبروا ويتعظوا ويعتبر ويتعظ غيرهم بهم. . .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ومن فضله إماتة هؤلاء القوم ثم إحياؤهم ليعتبر غيرهم بهم ويتعظوا بما رأوا وشاهدوا وهكذا جميع الآيات والحجج التي يظهر من خلالها إحسان الله على الناس وفضله عليهم. . .

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ أكثر الناس كما نرى ونلاحظ بعيدة عن شكر الله بما يليق وعظمته وجلاله بل يمرّون على النعمة فيجحدونها أو ينكرونها أو لا يحسنون أداء شكر من أنعم بها عليهم وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[1] فيصبح أكثرهم لا يشكرون. . .

---

(١) سبأ/١٣.

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

التفسير

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بعد أن بيّن سبحانه ـ فيما تقدم ـ أنه لن يغني الفرار من الموت عن الوقوع فيه وأن الحذر لا يرفع القدر.. أمر سبحانه هنا بالقتال والجهاد في سبيل الله...

قاتلوا الكفار والظالمين ومن ورائهم من الضالين والمنحرفين..

وليكن القتال في سبيل الله... من أجله ومن أجل رضاه وما يحب ويرغب.. من أجل الدين وإعلاء كلمة رب العالمين.. القتال في سبيل الله حتى يتحول الناس كلهم إلى الإيمان به والسير على منهاجه وتنفيذ شريعته...

ليس القتال من أجل الاستعلاء في الأرض ولا من أجل استعباد الناس وإذلالهم وممارسة الظلم والبغي عليهم.. ليس الجهاد من أجل استغلال البلاد ولا العباد، وإنما من أجل رفع كلمة الله حتى يتحول الناس كلهم أخوة تحت راية الله...

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تهديد ووعيد بأن الله سميع لأقوال الناس وما يتفوهون به.. يسمع كلام المثبطين والمخذِّلين ويعلم نواياهم وما يضمرون وسيجازيهم عليها ويحاسب على كل ذلك...

قال تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿يُقْرِضُ﴾: القرض: لغة ضرب من القطع ويطلق القرض على ما يدفع إلى الإنسان من المال بشرط ردّ بدله.

﴿يُضَاعِفَهُ﴾: من الضِّعْف، وضعف الشيء: هو الذي يثنّيه ومتى أضيف إلى عدد اقتضى ذلك العدد ومثله.

﴿يَقْبِضُ﴾: قبض اليد على الشيء: جمعها بعد تناوله، وقبضها عن الشيء: جمعها قبل تناوله وذلك إمساك عنه، ومنه قيل لإمساك اليد عن البذل: قبض..

﴿يَبْسُطُ﴾: بسْطُ الشيء: نَشْره وتوسّعه، وبسط يده: يقال للبذل والعطاء.

التفسير

﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

استفهام فيه كثير من الشفافية والعطف والرحمة... فيه إثارة قوية لمشاعر هذا العبد الضعيف الذي ملّكه الله بعض ما عنده ثم حرّكه فيه حِسَّ العطاء ودفعه

للبذل في سبيله على الفقراء والمساكين وفي المواضع المهمة التي تعود ثمرتها على الناس قاطبة... من هو هذا الذي يَخْرُج من بعض ماله وينفقه في سبيل الله؟

أي إنسان هذا الذي يستجيب لنداء الله الذي يندبه فيه لقرضه بعد أن أعطاه الله أصل وجوده وكل موجوده.. الله ربنا يعطي هذا الإنسان المال ثم يستقرضه حباً به وعطفاً عليه ليعوّضه عليه أضعافاً مضاعفة كثيرة وجليلة لا يعرف مقدارها إلا هو وحده سبحانه... أي رب عظيم يفيض على خلقه هذه العطايا ثم بصيغة القرض يريد لهم أن تتطهر نفوسهم وتصفو من شوائب الأكدار والأقذار وترتفع في سمو وتعالٍ حتى تعيش مع الله في امتثال أوامره وما يريد...

﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ وكيف يقرض الله والله هو الغني المطلق الذي لا يحلّ في ساحته حاجة ولكنه التعبير الذي يحرك الحس في داخل النفس المؤمنة فتنتفض بالعطاء مع الاستغناء وتخرج من الشح والبخل إلى الصفات الكريمة التي يريدها الله لعبده المطيع...

وزيادة في هذه الإثارة ودفعاً للخروج عن الالتصاق بالمادة وما فيها من هبوط يجب أن يكون ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ حلالاً طيباً ليس فيه شائبة حرام أو شبهة لأن الله الطهر لا يقبل غير الطاهر ولا يقبل لعباده غير الطهارة.

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ ليس عيناً بعين ولا يردّ المثل بمثله... ستتضاعف النسبة المردودة وكم ستكون؟. إنها لم تحدد... سيبقى مقدارها عند الله.. إنها كثيرة في ميزان الله والكثرة إذا كانت عند الله ومنه لا يمكن لإنسان محكوم بالضعف والإمكان أن يعرفها أو يقدّرها بقدر...

ستبقى كثيرة مهما حددها ذهنك ومهما عشت في التقدير والتصوير... أضعافاً كثيرة تحمل أرقاماً مفتوحة غير محدودة لا يعلمها إلا الله.

﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ هو الذي يضيّق على بعض عباده حسبما يراه من المصلحة وهو الذي يوسّع على بعضٍ آخرين حسبما يراه من المصلحة، فإذا

كانت الأمور بيد الله فهو الذي يعطي وهو الذي يمنع فعلى العبد إذا أعطاه الله أن يعطي ولا تذهب به الأمور إلى البخل والشح فيسيء الظن بالله ويخرج عن دائرة العبودية الصحيحة. . .

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يحاسبكم بعد رجوعكم إليه فيثيبكم على الحسنات ويعاقبكم على السيئات فاستعدوا لساعة الرجوع وتأهبوا للثواب والعقاب وابذلوا في سبيل الله ما ينفعكم يوم الحساب. . .

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)﴾.

اللغة

﴿الْمَلَإِ﴾: الأشراف من الناس سموا بذلك لأنهم يملأون العين.

﴿الْمُلْكُ﴾: الملك للشيء: الاحتواء له القادر على التصرف والاستبداد به، السلطة..

﴿عَسَيْتُمْ﴾: من أفعال المقاربة بمعنى أوشكتم.

﴿كُتِبَ﴾: فُرض وُوُجب.

﴿الْقِتَالُ﴾: النزال والمحاربة ومواجهة العدو.

﴿دِيَارِنَا﴾: جمع دار: وهو المنزل وتسمى البلدة داراً وكذلك الصقع بل الدنيا كلها تسمى داراً مع إضافتها إلى الدنيا.

﴿تَوَلَّوْا﴾: أعرضوا.

التفسير

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خطاب فيه تعجب وتشويق يستدعي من المستمع أن يستشرف مضمونه ويندفع لمعرفته...

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ﴾ وهم علْية القوم وأصحاب الوجاهة في بني إسرائيل بعد وفاة موسى عليه السلام وكيف تحركت فيهم دوافع ردِّ الظلم الذي لحق بهم جراء ممارسته عليهم من قبل الأعداء..

إنهم شعروا بالظلم بعد موسى وفتشوا عن الخلاص فوجدوه في دعوة نبي لهم وهكذا توجهوا إلى عنوان الاستجابة.

﴿إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إنها مقولة عظيمة كريمة.. القتال في سبيل الله هو العنوان الذي اتخذوه كمبرر للطلب... ابعث لنا ملكاً... بدعوة منك يا نبي الله يتعين الملك الذي يقود بني إسرائيل للجهاد في سبيل الله...

ولكن النبي «أشموئيل» الذي يعرفهم ويعرف نفسياتهم الانهزامية لا يريد منهم القول والطلب فحسب بل يريد أيضاً أن يأخذ عليهم إقراراً منهم إنهم سيقاتلون وأنهم سيبقون في حدود التزامهم الذي قطعوه على أنفسهم في جهاد عدوهم ولذا استثار فيهم نوعاً من التحدي حتى يؤكد مضمون ما يريد.

﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟﴾ قال لهم: أخشى إن فرض عليكم القتال وتحقق الطلب ببعث نبي يقودكم إلى ساحة الجهاد أن ترفضوا القتال وتمتنعوا عنه.

وأمام هذا التحدي ثارت حفيظتهم وتحركت شجونهم وما يعانون وقالوا له:

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾.

هذا هو جواب التحدي، قالوا: ولأي سبب لا نقاتل ودوافع القتال متوفرة؟!

لماذا لا نقاتل في سبيل الله وهو أمر مطلوب ومحبوب وأيضاً هناك مأساة تمس الجميع وتحرك فينا حسّ القتال وهو أننا أخرجنا من ديارنا وشرّدنا عن ربوعنا كما أن أولادنا سبيت واستعبدت وهذه كلها توجب علينا القتال وتحتّم علينا خوض المعارك والنزال وحسمها لصالحنا وصالح مستقبل أولادنا.

ويتوجه النبي «أشموئيل» بعد أن يسمع كلامهم ويرى مقامهم.. يتوجه بدعوة صادقة من قلب طاهر فيستجيب الله له ويبعث «طالوتاً» كماسيأتي فتأتي عندها الإشكالات على الاختيار والأسئلة والاستفهامات ويترددون في القتال وينقل الله خبرهم إجمالاً بقوله:

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ أي دعى لهم النبي فاستجاب الله دعاءه وبُعث طالوت ملكاً.

ولكن... ﴿تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أعرضوا عن الجهاد وأداروا ظهورهم لكل عهودهم وما كانوا يطلبون... تمردوا وأبوا القتال إلا بعضهم... إنهم قلة أكملوا الشوط مع نبيهم وقاتلوا الأعداء وأمّا بقيّتهم فإنهم تنكبوا الطريق وتنكروا لكل ما أعطوه للنبي ورفضوا أن يقاتلوا معه بل انهزموا وتراجعوا وضعفوا عن القتال.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ يعلم الظالمين ويعرف كل حركاتهم... كل حركة ظالمة يعرفها الله وسيحاسب عليها ويأخذ أصحابها بها ولن يتهاون معهم وهؤلاء الذين تمردوا على أوامر النبي وتخلّفوا عن الزحف معه سيحاسبهم الله ويقتصّ منهم جزاء ظلمهم وعنادهم...

قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿أَحَقُّ﴾: أجدر وأولى.

﴿لَمْ يُؤْتَ﴾: لم يعط.

﴿سَعَةً﴾: الغنى، والوسع الجِدّة والطاقة.

﴿ٱصْطَفَىٰهُ﴾: من الصفو، وأصل الصفاء: خلوص الشيء من الشوب، والاصطفاء: تناول صفو الشيء.

﴿وَزَادَهُۥ﴾: الزيادة: أن ينضم إلى ما عليه الشيء في نفسه شيء آخر.

﴿بَسْطَةً﴾: بسط الشيء: نشره ووسّعه، وزاده بسطة: أي سعة.

﴿ٱلْعِلْمِ﴾: إدراك الشيء بحقيقته.

﴿وَٱلْجِسْمِ﴾: أصل الجسم ما له طول وعرض وعمق ويطلق على بدن الإنسان.

﴿ءَايَةَ﴾: علامة.

﴿ٱلتَّابُوتُ﴾: صندوق من خشب.

﴿سَكِينَةٌ﴾: من سكن، والسُكون: ثبوت الشيء بعد تحرك، والسكينة: زوال الرعب...

﴿بَقِيَّةٌ﴾: من بقي، والبقاء: ثبات الشيء على حاله الأولى، والبقية: هنا يراد به ما تركه موسى في التابوت من العصا والثياب... وبعض بقايا ثياب هارون..

التفسير

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ بعد أن أخذ النبي «أشموئيل» منهم الإقرار بأنهم سيقاتلون مع الملك الذي سيأتي بدعائه توجّه إلى الله ودعاه فاستجاب الله له وتعيّن الملك بأمر إلهي على لسان النبي «أشموئيل».. إنه يزفّ إليهم البشرى بقوله لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ أنتم طلبتم ملكاً تقاتلون تحت رايته وسلطانه وهذا هو الملك قد تعيّن بشخصه واسمه..

وبدل أن يبادروا إلى شكر الله ونبي الله ويستجيبوا فوراً لهذا التعيين وتكون عندهم الأفراح العظيمة انبروا إلى الإشكال على هذا التعيين.. إنهم يرفضون طالوت ولا يقبلون بهذا التعيين..

﴿قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾.

كيف يكون له الملك علينا؟.. لا يمكن أن يتولى الملك علينا أو قيادتنا بل بعد الرفض للملك طالوت بيّنوا أنهم أحق وأولى بالملك منه... إن طالوت لم يكن صاحب ثروة ولا يُعدّ من الأغنياء... إنه ليس من أصحاب السعة في المال وهم أصحاب السعة وأهل الثراء فهم أولى بالملك منه..

إنهم بموازينهم الخاصة الخاطئة يتبنون نظرية مفادها.. أن أحق الناس بالملك أغناهم وأثراهم ومن هذه القاعدة يرفضون طالوت كملك عليهم وبالتالي يرفضون كل لوازم قيادته ورئاسته...

ويستمع النبي «أشموئيل» إلى مقالتهم ولكنه يعرفهم ويعرف تعنّتهم فيصبر عليهم ويأخذ ببيان الشروط التي يجب أن تجتمع في الملك - القيادة - وهي بالتالي مجتمعة بطالوت وهو يستحق هذا المنصب...

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ ردّ عليهم وبيّن سبب هذا الاختيار لطالوت...

١ - إن الله اصطفاه.. الله سبحانه وتعالى اختاره من بينكم وهذا الاختيار تم لأنه أفضل وأطهر وأزكى وأكمل الرجال... فالاصطفاء يكون لميزات ومواصفات ومؤهلات يحملها المختار... إن الله هو الذي يعرف النفوس الطيبة الطاهرة المؤهلة فيختارها للمهمة الجليلة والكبيرة كالنبوة والولاية والقيادة.

٢ - ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ﴾ إنه ذو سعة في العلم... إنه أعلم الأمة وأوعاها وعنده مفاتح كل أمر مغلق وكل معضلة صعبة...

إن القيادة يجب أن تكون أعلم الأمة حتى تحل كل المشكلات التي تعترض سبيلها وترفع كل ما يمنعها من التقدم والرقي...

٣ - ﴿وَٱلْجِسْمِ﴾ وكذلك هو صاحب بسطة في الجسم يملك قوة بدنية يقهر بها الأعداء ويرعبهم بمجرد رؤيته... وهذه مؤهلات يتعيّن بموجبها طالوت ملكاً.

﴿يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَآءُ﴾ الملك الإلهي بيد الله هو الذي يعيّن من يشاء لعلمه بالأشخاص وما يصلح الأمة وما ينفعها.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ والله واسع العطاء واسع الفضل والرحمة عليم بكل شيء وبما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

ويستمع بنو إسرائيل إلى نبيهم، ولكن النفوس المريضة التي يحملونها والشكوك التي تسري في داخلهم لم تطمئن قلوبهم فطلبوا منه علامة على ذلك ودليلاً ترتاح إليه نفوسهم ويجيبهم بصبر وأناة.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

زفّ إليهم البشرى بتعيين العلامة التي بها يتعيّن طالوت ملكاً... علامة ملك طالوت أن يأتيكم التابوت الذي كان يضع موسى التوراة فيه أو الذي وضعته فيه أمه عندما قذفته في اليم..

وفي هذا التابوت سكينة من ربكم تسكنون وتطمئنون بها كما أن فيه بقايا آثار موسى وهارون من ثياب وسلاح وعصا وهذا التابوت تحمله الملائكة...

إن كل هذه العلامات الموجودة في التابوت تدل على صدق ما جاء به النبي «أشموئيل» من كون طالوت ملكاً من قبل الله على بني إسرائيل...

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إن في الإتيان بالتابوت وفيه السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون وتحمله الملائكة إن في ذلك لآية ودليلاً على أن طالوت ملكاً من قبل الله على بني إسرائيل ويجب الإيمان به والإذعان لقيادته إن كنتم يا بني إسرائيل من المؤمنين بالله وبرسله وبما جاءوا به من الهدى والبينات...

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿فَصَلَ﴾: الفصل: إبانة أحد الشيئين من الآخر حتى يكون بينهما فرجة: وفصل القوم عن مكان كذا وانفصلوا: أي فارقوه..

﴿الْجُنُودِ﴾: هم العسكر وسموا جنوداً من الجُنْد اعتباراً بالغلظة لأن الجند هي الأرض الغليظة التي فيها حجارة.

﴿مُبْتَلِيكُم﴾: ممتحنكم ومختبركم لأن الابتلاء هو الامتحان والاختبار.

﴿بِنَهَرٍ﴾: النَّهْر: مجرى الماء الفائض وجمعه أنهار.

﴿شَرِبَ﴾: الشُّرب: تناول كل مائع ماء كان أو غيره، والشِّرب: بكسر الشين النصيب منه.

﴿يَطْعَمْهُ﴾: الطَّعم: تناول الغذاء ويسمى ما يتناول منه طعم وطعام وقد يستعمل طعمت في الشراب واستعمل في الآية لبيان حرمته أكثر من غرفة حتى لو كان في الطعام ولذا قال:

﴿اغْتَرَفَ﴾: الغَرْف: رفع الشيء وتناوله، والغُرفة ما يغترف ـوالغرفة للمرة، والمِغرفة: لما يتناول به.

﴿جَاوَزَهُ﴾: تجاوزه، تخطاه.

﴿لَا طَاقَةَ﴾: الطاقة: اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة، ولا طاقة لنا: لا قدرة لنا.

﴿جَالُوتَ﴾: اسم للقائد الكافر الذي قتله داود وهو اسم أعجمي لا أصل له في العربية.

﴿مُلَاقُوا﴾: من لقي، واللقاء: مقابلة الشيء ومصادفته معاً.

﴿فِئَةٍ﴾: الجماعة المتظاهرة التي يرجع بعضهم إلى بعض في التعاضد.

﴿غَلَبَتْ﴾: قهرت، وغلب عليه كذا: إذا استولى عليه.

﴿بَرَزُوا﴾: من البَراز وأصله الفضاء، وبَرَز: حصل في بَراز، والمبارزة: سمي به القتال للظهور من الصف.

﴿أَفْرِغْ﴾: يقال: أفرغت الدلو: صببت ما فيه ومنه استعير ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾.

﴿وَثَبِّتْ﴾: من الثبات: وهو ضد الزوال، وثبّته: أي قويته، ولولا أن ثبتناك: أي قويناك، وثبات القدم: كمال القوة وعدم التزلزل.

﴿أَقْدَامَنَا﴾: الأقدام: جمع قدم الرجل - ما بين طرف إبهام الرجل وطرف العقب.

﴿وَٱنصُرْنَا﴾: النصر والنُصرة: العون.

﴿ٱلْقَوْمِ﴾: الأصل جماعة الرجال دون النساء وفي عامة القرآن أُريد به الرجال والنساء.

﴿فَهَزَمُوهُم﴾: أصله الهَزْم: وهو غمز الشيء اليابس حتى يتحطم، وهزمه: إذا كسره وحطمه...

﴿دَاوُۥدُ﴾: اسم علم لنبي من أنبياء بني إسرائيل وهو معروف...

﴿وَءَاتَىٰهُ﴾: أعطاه.

﴿ٱلْمُلْكَ﴾: الملك للشيء: الاحتواء له والقدرة على التصرف والاستبداد به، السلطة...

﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾: النبوة أو معرفة حقائق الأمور ووضعها في مواضعها.

﴿لَفَسَدَتِ﴾: من فسد، والفساد: خروج الشيء عن الاعتدال ويضاده الصلاح.

التفسير

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾.

آمن بنو إسرائيل بقيادة طالوت بعد أن جاءتهم المبيّنات السابقة - التابوت وما فيه - وأخذ طالوت في الاستعداد للحرب فأعاد تنظيم بني إسرائيل وتدريبهم وتجهيزهم ثم خرج بهم لقتال عدوهم...

لم يخرج من بلده حتى أراد أن يمتحنهم بما يعرف به إيمانهم وصبرهم وجدّهم في هذا الأمر...

إنه امتحان إلهي يريد من خلاله تمحيص الفئة المؤمنة بطالوت وأهدافه من الفئة التي يأخذها الهياج العام أو الفئات الأخرى المنتفعة والمستغلة للظروف، ولذا قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ﴾ إن الله سيمتحنكم بنهر تجري فيه الماء وكيف يكون الابتلاء هل بالعبور عنه أو غير ذلك؟!..

إنه الابتلاء بالشرب منه وعدم الشرب.

﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي﴾ إن هذا النهر في مائه الابتلاء والامتحان، من تناول من مائه شيئاً وشربه فليس من جندي وليس هدفه من هدفي ولا يمكن أن يكون من أتباعي في هذا الطريق الصعب...

﴿وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ﴾ أما من لم يرتوِ منه إلا بغرفة يغترفها بيده يبلل بها أحشاءه ويطفىء ظمأه فهذا مني ومن جندي وفي نفس الخط الذي أنا فيه وعلى نفس الهدف الذي أتحرك من أجله...

إنه امتحان صعب، فالقلوب تحترق إلى قطرة ماء ويُمنع على من يمر بنهر ماء أن يتناول منه إلا غرفة من الماء... إنها معاناة قاسية تحتاج إلى إيمان بالقيادة وبأهدافها وبما تتطلع إليه من رضا الله...

كيف واجه بنو إسرائيل هذا الامتحان؟! وهل انتصروا فيه واجتازوه بنجاح أم سقطوا أمامه؟!...

يقول تعالى في تصوير حالهم: ﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾ إنه سقوط مريع لأمة تريد تحرير نفسها من ظلم أعدائها...

﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ﴾ عصوا أمر القيادة وأخذوا يشربون حتى ارتوت الأكثرية من الماء ولم يبق ضمن الأمر الصادر من طالوت إلا قلة... إنها قلة ولكنها إن صمدت واستمرت في خط الطاعة ستنتصر وتُحقق عزتها وتستعيد كرامتها.

هذا الامتحان كان أول امتحان لغربلة الصادقين من الكاذبين والمؤمنين من غير المؤمنين...

إنه الامتحان الأول ولكنه لن يكون الأخير... إنه امتحان صعب سيتبعه امتحان آخر لا يقل عنه شدة أو صعوبة عبّر عنه سبحانه بقوله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾.

اجتاز طالوت وجنوده الذين آمنوا معه النهر وتخلّف أولئك الذين شربوا من النهر وارتووا منه ولما أصبح طالوت وجنوده في مواجهة الأعداء هالهم المنظر وأفزعتهم الرؤية... إنهم قلة قليلة في مواجهة كثرة كثيرة، لقد أرعبهم هذا المشهد وانطلقت كلمات الرعب من قلوبهم الضعيفة...

لقد صرخ الضعفاء منهم قالوا ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾ إن جالوت عدو يحشد أعداداً ضخمة لا يمكننا في وقتنا هذا مواجهتها أو الصمود في وجهها... إنهم انهزموا من داخلهم وتحرك الرعب في مفاصلهم فانطلقت هذه الكلمات لتعبّر عن ذلك كله...

ولكن إذا انهزمت بعض النفوس لضعف فيها نتيجة عدم الإيمان أو لسوء التربية أو لإساءة الظن أو لحسابات بشرية ضيقة فهناك من يملك رؤية إيمانية تسقط أمامها كل الأرقام والأعداد الكبيرة من الحشود العسكرية والجند المنظم...

صاحت الفئة المؤمنة من جيش طالوت بشعار ترد فيه على المنهزمين وتصحّح فيه تصورهم ورؤيتهم لأسباب النصر والهزيمة...

إنها صرخة إيمانية تعيد الثقة بالنفس وتبعث الحركة حية في ذلك الجمع صوّر سبحانه تلك الصيحة بقوله تعالى:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

هذا منطق أهل الإيمان الذين يظنون ـ أنهم سيموتون ويلاقون ثواب الله وأجره وأنه سيحاسبهم على حياتهم في الدنيا وعلى كل حركاتهم فيها...

إنه منطق ينسجم مع تصوّر المؤمنين وعقيدتهم ومع رؤيتهم للحياة والموت وما بعد الموت. . .

رؤية إيمانية يعبّر عنها قوله: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ كم جماعة قليلة في عددها وصغيرة في أرقامها ﴿غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ انتصرت على الجماعة الكبيرة ذات العدد الكبير. . إنه اطمئنان منها إلى النتيجة وأن كثيراً من الفئات القليلة غلبت الفئات الكثيرة ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بعلمه وإرادته ومشيئته والله سبحانه يريد ذلك إن صدق الإيمان وصدقت العزيمة وأخذت هذه الفئة بالأسباب التي أرادها الله وحكم بها. . .

﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ شدّ للعزيمة وتقوية للمعنويات وإعطاء شحنة تدفع هذه الفئة للصمود والثبات في وجه الأعداء. . إن الله مع الصابرين. . فكونوا صابرين ليكون الله معكم يؤيدكم بنصره على عدوه وعدوكم. . .

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾.

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ لما خرج طالوت وجنده ومن معه وأصبحوا في ساحة المعركة وجهاً لوجه أمام جالوت وجنده ورأوا ما يحشده جالوت وما يضم جيشه من عدد وعدة وقفوا أمام الله في صرخة استغاثة وبصوت المؤمنين الذين حوّلوا كل حياتهم إلى الله، كان دعاؤهم من القلب يخرج ليفتح كل الأبواب الموصدة بينهم وبين الله. . .

إنها حالة الاتصال بالله عن طريق الرجوع إليه في دعاء استغاثة ونجدة وإعانة.

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ صُبَّ الصبر في قلوبنا صباً، نستطيع من خلاله أن نبقى على تماسكنا وهدوء أعصابنا فلا نضطرب أو نتزلزل. . . وأول ما يحتاجه العاملون وخصوصاً المجاهدون أن يتمتعوا بهذه الملكة ـ الصبر ـ وهي أولى الخطوات في تحقيق النصر.

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ لا تجعلنا ننهزم ونفرّ عند ملاقاة العدو بل اجعلنا

ثابتين في ميدان الحرب نقارع ونقاتل دون خوف أو وجل أو محاولة للهروب. . .

﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وهذه ثمرة كل ذلك الدعاء وذلك الجهاد وذلك القتال. . . ولأن في نصر المؤمنين على الكافرين نصر للإيمان على الكفر والحق على الباطل والفضيلة على الرذيلة والاستقامة على الانحراف والصلاح على الفساد وبالتالي تحقيق رضا الله واتباع أمره على اتباع أمر الشيطان واقتفاء أثره لكل ذلك يتوجه المؤمنون المجاهدون بالدعاء إلى الله أن ينصرهم على أعدائهم الكافرين. . .

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ﴾.

﴿فَهَزَمُوهُم﴾ انتصر طالوت وجنوده على جالوت وجنوده، لقد سقطت القوة العظمى في هزيمة مريعة وقُتل جالوت القائد الأعظم على يد فتى من بني إسرائيل اسمه داود كان في جيش طالوت. . .

أي هزيمة هي تلك التي لحقت بجالوت وجنوده وهم لكثرتهم ووفرة عددهم ألقت الرعب في قلوب ضعفاء الإيمان كما تقدم وجعلتهم يقولون: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾ ولكنها الهزيمة التي قُتل فيها جالوت ـ رأس الكفر ـ وهزم فيها جنده. . .

ثم أثنى الله على داود ذلك الفتى الذي أهّلته شجاعته وإيمانه وتقواه وصلابته ليتولى الحكم بعد طالوت ويُبعث نبياً ينقذ قومه من أيدي الظالمين.

﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ أعطاه الله سلطان الدنيا من أجل حماية الحق والدفاع عنه ونشر الدين والإيمان.

﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ هي النبوة.

﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ﴾ كصنعة لبوس ومنطق الطير وغيرهما.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

لولا أن يكون هناك فئة مؤمنة بالحق تقف في وجه الباطل وتدفعه عن ظلمه لفسدت الأرض، أي لعمّ الفساد الأرض ولساد الكفر والانحراف وأنواع الرذائل، إن الله سبحانه الذي لا يريد للفساد أن ينتشر ولا يريد للحياة أن تعمها الشرور والمظالم إن الله سبحانه هو الذي هيأ فئة تواجه المفسدين وتتصدى لهم في صراع توقف ظلمهم وتمنع فسادهم...

وبهذا التدبير كان الفضل الإلهي على العالمين بما فيهم أهل الفساد لأنه لم يسمح لهم بالعبث والفساد، بل ردوا بواسطة الفئة المؤمنة عن الاسترسال في غيهم وبذلك يتجسد فضل الله عليهم حيث كف أيديهم عن الظلم وأنقذ الناس أيضاً من ظلمهم...

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾.

ما تقدم من قصص بني إسرائيل وما فيها من غرائب ومواقف تلك كلها نقرأها عليك يا محمد بواسطة جبرائيل وهي أخبار صادقة موافقة للواقع وكما جرت على وجه اليقين... إنها آيات صادقة لا ريب فيها.

﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ حيث دلت بصدقها وأحقيتها على صدق نبوتك وصحة بعثتك وإنك مرسل من عند الله إلى الناس...

إنها لصدقها وصحتها وعدم الخلل فيها تدل على أنها من عند الله وهو سبحانه أوحاها إليك.. فأنت مرسل من قبله لحملها ولحمل رسالته إلى الناس، فأنت من المرسلين بالحق والصدق من قِبل الله...

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣)﴾.

اللغة

﴿الرُّسُلُ﴾: الأنبياء من بعثهم الله بتعاليمه إلى الناس.

﴿فَضَّلْنَا﴾: من الفضل: وهو الزيادة لأحد الشيئين على الآخر بأمر من الأمور أو شيء من الأشياء.

﴿رَفَعَ﴾: الرفع: هو تعلية الشيء عن مقره وكل شيء يرفع بحسبه فرفع الأنبياء: علو درجاتهم...

﴿دَرَجَاتٍ﴾: جمع درجة: وهي المرتبة الرفيعة.

﴿الْبَيِّنَاتِ﴾: المعجزات.

﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾: قويناه من التأييد بمعنى التقوية.

﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾: جبرائيل.

﴿اخْتَلَفُوا﴾: تنازعوا وتجادلوا، وأصل الاختلاف.. أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو قوله..

التفسير

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بعد أن ذكر سبحانه طالوت واصطفاؤه على بني إسرائيل وداود وتفضيله عليهم وذكر في ختام الآية المتقدمة ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أكمل سبحانه الحديث عن الرسل وأنه سبحانه جعل بعضهم أفضل من بعض وفضلُ بعضهم زائد على فضل بعضهم الآخر، فهم مشتركون في أصل الفضل ولكن هناك تفاوت بين بعضهم بحسب ما كُلفوا به وتحملوه من كلامه وبحسب جهادهم ودعوتهم وهدايتهم وبحسب بعض الخصائص والمميزات التي اختص الله بها بعضهم دون الآخرين. . .

ثم ذكر بعض العظماء من الرسل الذين فُضّلوا فقال سبحانه:

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ وهو موسى ﷺ وإليه ينصرف المعنى، ولقوله في سورة النساء: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ أي رفع منزلة بعضهم مراتب عالية فاقت غيرهم، والمقصود بهذا هو نبينا محمد ﷺ فإنه أفضل الأنبياء على الإطلاق.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ المعجزات الدالة على صدق نبوته كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص.

﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ قويناه بجبرائيل وسدّدنا خطواته بهذا الملاك العارف الطاهر.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ هذه حالة أتباع الأنبياء بعد رحيل الأنبياء فمع ورود الحجج والبينات والآيات التي جاءت تحضّ على وحدتهم وعدم تفرقهم فإنهم اختلفوا فيما بينهم واقتتلوا وأخذ يضرب بعضهم وجوه بعض ولو شاء الله لحملهم على الوحدة وعدم القتال والنزاع ولكنه سبحانه مع قدرته الكاملة لمثل ذلك فإنه تركهم وشأنهم واقتصر على الأمر بالوحدة والنهي عن الاقتتال ضمن حدود التكليف والقانون لأنه سبحانه لو

حملهم على ذلك قهراً عنهم بطل الثواب والعقاب لعدم المسؤولية الاختيارية التي يترتب عليها مثل ذلك...

فالآية تتضمن:

١ - اختلاف أتباع الأنبياء بعد الأنبياء.

٢ - اختلافهم واقتتالهم كان بعد ورود البيّنات والحجج الملزمة لعدم ذلك.

٣ - إن الله يملك منع اقتتالهم ولو شاء لفعل ولكنه تركهم ليتحملوا مسؤولية المخالفة التي كانت باختيارهم...

﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

ولكن اختلفوا نتيجة اتباع الأهواء والشهوات وراحوا يقتتلون، فمنهم من آمن بما جاء به الأنبياء وأصروا على متابعتهم وعدم مخالفتهم ومنهم من كفر بكل ذلك واتبع هواه ودارت المعركة بينهم واقتتلوا كلّ يدافع عن فكره وخطه ولو شاء الله ما اقتتلوا - تأكيد جديد لقدرة الله - وأنه يملك منعهم بالقوة لو أراد ولكنه سبحانه يفعل ما يريد مما فيه المصلحة وما فيه اللطف لعباده حتى يكونوا هم الراسمون لطريقهم نحو الجنة أو نحو النار.

فائدتان

١ - قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ جاء سبحانه باسم الإشارة للبعيد لعلو منزلة الرسل وأنت الإشارة ﴿تِلْكَ﴾ باعتبار الجماعة..

٢ - قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ نص صريح في تفضيل بعض الأنبياء على بعض ولا شك عندنا بحسب الروايات الصحيحة والصريحة أن النبي محمد ﷺ أفضل الأنبياء على الإطلاق، وهذا أيضاً مما يحكم به العقل من حيث أن رسالته أعظم الرسالات وأشملها وأعمّها، وهي لكل البشر على

اختلاف ألوانهم وأوطانهم، وهي الأطروحة الأخيرة التي تقدّمها السماء إلى الناس، وهي وصفة كاملة دائمة شاملة... وأيضاً لجهاد رسول الله والأتعاب التي تحمّلها في سبيل تبليغها حتى قال: ما أوذي نبي كما أوذيت.. وهكذا غير هذا مما امتاز به النبي.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٥٤﴾.

اللغة

﴿أَنفِقُواْ﴾: الإنفاق: إخراج المال وإعطاؤه لأصحاب الحاجة.

﴿رَزَقۡنَٰكُم﴾: الرزق: كل ما ينتفع به.

﴿ٱلۡبَيۡعُ﴾: البيع: إعطاء المثمن وأخذ الثمن أو مبادلة مال بمال.

﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ﴾: من الخلّة وهي الصداقة والمودة.

﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾: من الشفع: وهو ضم الشيء إلى مثله، والشفاعة: الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى.

التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٥٤﴾.

أمر سبحانه بإخراج بعض ما أعطاه لهذا الإنسان.. أمر بالإنفاق في سبيل الله

وعلى المحتاج والفقير وما يصلح المجتمع وينفع الناس وهو جزء من عطاء الله ورزقه الذي ملّكه بعض عباده. . .

ورغّب في هذا الإنفاق في الدنيا واغتنام فرصها وعدم التأخير لأن ذلك ممكن في الدنيا وغير ممكن بعد الموت. . .

بادروا إلى الإنفاق في دار الدنيا قبل أن يهجم عليكم الموت فيتوقف البيع فيه ولا يمكنكم أن تشتروا أنفسكم أو تفدوها بمال تقدّموه بدلاً عنها ولا تنفع ـ الخلة ـ المودة التي كانت بينكم في دار الدنيا كما لا تنفع الوساطات والشفاعات إلا لمن أذن له الرحمٰن وقال صوابا. . . ومن هنا تسقط كل الأسباب المنقذة لهذا الإنسان يوم القيامة إلا ما يقدمه في دار الدنيا. . .

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الذين يجحدون هذا الأمر ويرفضون تطبيقه هم الذين يوصفون بالكفر وهم الظالمون لأنفسهم الذين لم يمهّدوا لها يوم القيامة. . . عبّر سبحانه عن تاركي الإنفاق بالكفار تغليظاً لهم وتهديداً شديداً على حد قوله في آية الحج: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. . .

فائدة

لا يخفى أن هذه الآية المباركة تنفي الشفاعة مطلقاً «ولا شفاعة» ولكن لا يصح الاقتصار عليها بل يجب أن ننظر إلى سائر الآيات الأخرى التي تؤكد على ثبوت الشفاعة بالجملة ففي الآية التي بعد هذه الآية مباشرة قوله تعالى:

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[1] ـ وهذا يثبت الشفاعة ولكن بإذن الله ـ وكذلك قوله تعالى:

---

(١) البقرة/ ٢٥٥.

﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ﴾[١] نعم يجب أن نقول إن الشفاعة المنفية في الآية هي نوع خاص خصوصاً أن السياق يساعد على ذلك حيث نفت الخلة مطلقاً مع العلم بثبوتها يقيناً في حق المتقين كما في قوله تعالى:

﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧﴾[٢] ونستفيد أن الشفاعة هي نوع خاص من الشفاعة من ذيل الآية حيث يقول تعالى:

﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٣] فتكون مختصة بالكفرة وتلتقي مع قوله تعالى:

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾[٤].

---

(١) يونس/٣.
(٢) الزخرف/٦٧.
(٣) البقرة/٢٥٤.
(٤) غافر/١٨

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾.

اللغة

﴿ٱللَّهُ﴾: اسم علم لواجب الوجود إله العالمين...

﴿ٱلۡقَيُّومُۚ﴾: القائم بتدبير الأمور.

﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ﴾: الأخذ: حوز الشيء وتحصيله وتارة بالتناول وأخرى بالقهر كما في الآية.

﴿سِنَةٞ﴾: بكسر السين الفتور الذي يتقدم النوم.

﴿نَوۡمٞۚ﴾: النوم: هي حالة النعاس يفقد الإنسان خلالها شعوره وهو ضد اليقظة.

﴿يَشۡفَعُ﴾: الشفاعة: هي ضم واحد إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه.

﴿بِإِذۡنِهِۦۚ﴾: الإذن في الشيء: إعلام بإجازته والرُخصة فيه...

﴿أَيۡدِيهِمۡ﴾: الأيدي: جمع يد وهي الجارحة وتستعمل في معانٍ متعددة.

﴿خَلْفَهُمْ﴾: الخلف: ضد القدام.

﴿يُحِيطُونَ﴾: من الإحاطة، والإحاطة بالشيء علماً. هي أن تعلم وجوده وجنسه وكيفيته وغرضه والمقصود به وبإيجاده وما يكون به ومنه وذلك ليس إلا الله.

﴿وَسِعَ﴾: السعة تقال: في الأمكنة والحال والفعل وهو ضد ضاق، ووسع الشيء: اتسع.

﴿كُرْسِيُّهُ﴾: الكرسي: هو اسم لما يقعد عليه ويطلق على العلم وعلى الحكم والسلطان.

﴿وَلَا يَئُودُهُ﴾: لا يثقله ولا يتعبه.

﴿حِفْظُهُمَا﴾: من الحفظ: وهو منع الشيء من التلف والضياع..

﴿الْعَلِيُّ﴾: من العلو: وهو ارتفاع المنزلة والشأن.

التفسير

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هو الله الواجب الوجود الخالق لكل موجود ﴿لَا إِلَٰهَ﴾ نفي لكل مماثل له أو شبيه ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إثبات له وحده في حقل الوجود...

﴿اللَّهُ﴾ هو الإله ولا إله سواه توحيد في أخصر عبارة وأعمق مدلول.

﴿الْحَيُّ﴾ بإطلاق.. الحي بذاته بدون بداية لحياته ولا نهاية لها..

﴿الْقَيُّومُ﴾ مبالغة في القيام بأمر الشيء وتدبيره وهو سبحانه خلق الكون وما فيه وأقام عليه بدقة وحكمة وتنظيم لا يخرج عن تدبيره صغير أو كبير وجليل أو حقير، كلّ في موقعه وكلّ له دوره المرسوم له ضمن نظام الكون وضمن الخطط الموضوعة فيه...

﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ لا يعتريه أو يحلّ فيه ما يحلّ بالأحياء من الناس،

فهذا نفي لحالة بشرية يمكن أن تطرأ عليه فهو منزه عن الحاجة أو الفقر أو أمرٍ يحل فيه. . .

فما يأخذ الإنسان من شعور حثيث وفتور في البدن قبل النوم لا يمكن أن يستولي عليه كما أنه سبحانه منزّه عن أن يستولي عليه النوم. . . فهو سبحانه دائم الحضور لا يغفل عن شيء في هذا الوجود. . .

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فالله سبحانه هو المالك لهذا العالم وما فيه. . . كل ما في السماوات وكل ما في الأرض مملوك لله ملكاً حقيقياً من فيض جوده كان وهو غني عنه قادر على زواله. . .

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ هذا بيان لعظمته وجلال كبريائه وأنه ليس هناك من يتجاسر على الشفاعة لأحد إلا بإذنه. . . إنه استفهام إنكاري أن يكون هناك من يتقدم بالشفاعة لأحد بدون إذنه سبحانه له بذلك. . .

وهذا كما قيل تسفيه لما ذهب إليه الكفار من أن أصنامهم ومعبوداتهم تشفع لهم يوم القيامة فأسقطها سبحانه وهدم ما اعتقده هؤلاء الكفار فيها من أنهم ينقذونهم من العذاب وقد ردّ سبحانه عليهم في أكثر من آية.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يعلم سبحانه ما بين أيديهم من أمور الدنيا وما فيها وما خلفهم من أمور الآخرة وما فيها.

وقيل ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ مما هو مشاهد ومرأي.

وما خلفهم مما هو غائب عنهم وليس بمرأى ويمكن أن يكون وهو الأقرب يعلم ما كان ويعلم ما لم يكن. .

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ لا يدركون كنه شيء من علم الله إلا بما شاء وأراد فهو سبحانه إذا شاء أن يُطلع أحداً من خلقه على بعض ما عنده نال ذلك حظوة عظيمة وشرفاً رفيعاً بهذه الإرادة وتلك المشيئة. .

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ سلطان الله وحُكْمه شمل السماوات والأرض

فلا يخرج عن إرادته أحد فيهما، وقيل: إن علمه عمّ السماوات والأرض فهو يعلم ما فيهما وما يحيط بهما...

﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ لا يثقل عليه أو يعجزه حفظهما وإحاطته بهما وتدبيره لشؤونهما فإنه القوي القادر.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ المرتفع عن الأنداد والنظائر، العظيم في قدرته وسلطانه..

قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٥٦﴾.

اللغة

﴿إِكْرَاهَ﴾: حمل الإنسان على ما يكرهه، وكره الشيء: ضد أحبه، وأكره فلاناً على الأمر: حمله عليه قهراً.

﴿ٱلدِّينِ﴾: لغة الجزاء ويطلق على الملة والمعتقد.

﴿تَّبَيَّنَ﴾: ظهر وانكشف.

﴿ٱلرُّشْدُ﴾: خلاف الغي يستعمل استعمال الهداية.

﴿ٱلْغَيِّ﴾: الضلال.

﴿يَكْفُرْ﴾: من الكفر، وهو لغة الستر للشيء وشرعاً هو الخروج عن الدين بأحد أسباب الخروج.

﴿ٱلطَّٰغُوتِ﴾: من الطغيان، وهو تجاوز الحد في كل شيء، والطاغوت: كل ما يضل الإنسان ويغويه.

﴿يُؤْمِنۢ﴾: يصدّق.

﴿ٱسْتَمْسَكَ﴾: من مسك الشيء: إذا تعلق به وحفظه، واستمسكت بالشيء: إذا تحريت الإمساك.

﴿بِٱلۡعُرۡوَةِ﴾: ما يتعلق به من عراه: أي ناحيته، وعروة الكوز: المقبض الذي يمسك به.

﴿ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾: مؤنث الأوثق وهو الشيء المحكم الموثق.

﴿ٱنفِصَامَ﴾: الانفصال أو الانكسار والانقطاع.

التفسير

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ لا يمكن أن يجري الإكراه في الدين وحمل الإنسان على العقيدة الدينية بعد أن تظهر الأمور على حقيقتها ويمتاز طريق الرشد والهدى والإيمان من طريق الغي والكفر والضلال، لأن في معرفة الدين ووضوح معالمه وأحكامه ما يحمل الإنسان على الاعتقاد بدون إكراه أو إجبار فكأن ظهور الحجج والأدلة والبينات على أحقية إتّباع الدين تجعل الإنسان مندفعاً إلى اعتناقه بدون إكراه...

ويمكن أن تطمئن النفس لهذا التفسير إذا كان في المسلمين من يعيبون على من أسلم بعد الحرب أنه أسلم خوفاً وكرهاً وفزعاً فجاءت الآية لتنفي الإكراه في هذه الحالة وأن الإسلام لا يمكن أن يكره عليه المرء، بعد أن ظهرت أحقيته وصدقه...

وقيل: إن الآية تنهى أهل الإيمان أن يحملوا الناس على الدين بالقوة والإجبار وإنما عليهم أن يبيّنوا للناس الدين ثم يتركوا الناس وشأنهم ليتحملوا مسؤولية هذا الاختيار فيكون كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾[1].

وقيل: إنها نزلت في أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ وإنهم لا يجبرون على الإسلام بعد أن تصلهم الحجج والأدلة وتتوضح عندهم الرؤية فهي خاصة بهم ولا تشمل غيرهم من عبّاد الأوثان والكفار وكأن هذا التخصيص من باب أنهم

---

(١) الكهف/ ٢٩.

أهل دين ولهم صلة بالأنبياء بشكل من الأشكال فيلتقون مع المسلمين في عقيدة التوحيد ـ على شوب فيها ـ وبالإيمان بالأنبياء ورسل الله ـ وهذا يجعل لهم حرمة والإسلام يقرهم على دينهم إذا التزموا أحكام الذمة.. أما غيرهم فلعدم أي رباط بينهم وبين الله ولا أي صلة وإن كانت فهي في منتهى الإسفاف الفكري والانحطاط العقلي فلا يمكن للإسلام أن يسمح بهذا المستوى من السقوط ويقبل بالعضو الفاسد إلى هذا الحد... وعلى هذا يجب أن يرتفع حكم عدم الإكراه في الدين وأن الإكراه يجري في حق غير أهل الكتاب...

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾.

الكفر بالطاغوت هو عدم الإيمان به وعدم السير وراءه بحيث يرفض امتثال أمره أو التدين بما يريد أو إطاعته بشكل من الأشكال... والطاغوت هو كل من تجاوز الحق وخالف الله ونصّب نفسه إلهاً وشرّع لهم ما يخالف حكم الله وعلى هذا من يكفر بالشيطان وأتباعه فهو كافر بالطاغوت ومن يكفر بالحكام الظالمين الذين يمارسون القهر والظلم على الناس فهو كافر بالطاغوت ومن يكفر بأهل الأهواء والبدع والذين يشرّعون للناس بدون مستندٍ إلهي فهو أيضاً ممن كفر بالطاغوت وهكذا دواليك...

وفي مقابل الكفر بالطاغوت ـ أي بهدم العقيدة الفاسدة ورفض اتباعها واتباع أهلها ـ يأتي بعد الهدم البناء.

وهو.. ﴿وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ يعتقد بالله ويصدّق ما جاءت به رسله ونقله الأنبياء إلى الخلق...

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ أحكم تمسكه من الدين بأقوى الأسباب وأعظمها.

﴿لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ أي لا تتعرض للشك والتردد أو تتوقف عند حد يعود عنها الإنسان فهي عقيدة صلبة قوية لا تهتز ولا تتزلزل..

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ والله سميع لأقوالكم وعليم بنياتكم وأفعالكم يحاسبكم عليها ويجزيكم بها.

فوائد

١ - فسّر قوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ إنهم أهل البيت عليهم السلام ومودتهم.

في عيون الأخبار عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله من أحب أن يركب سفينة النجاة ويستمسك بالعروة الوثقى ويعتصم بحبل الله المتين فليوال علياً بعدي وليعادِ عدوه وليأتم بالأئمة الهداة من ولده.

أقول: وهذا من باب ذكر المصداق الأهمّ وليس من باب الحصر...

٢ - إن قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ من باب نفي الحكم بنفي الموضوع وهو على حدّ قول النبي صلى الله عليه وآله: لا يُتم بعد الاحتلام، وقوله: لا ضرر ولا ضرار في الإسلام...

٣ - إن قوله تعالى: ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ قيد توضيحي وليس قيداً احترازياً.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلْوَلِيُّ﴾: يطلق على معانٍ متعددة منها الناصر والمحب، المعين، الأولى من غيره.

﴿يُخْرِجُهُم﴾: من خرج، إذا برز من مقره أو حاله.

﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: جمع ظلمة: عدم النور ويعبر بها عن الكفر والجهل والشرك والفسق كما يعبّر بالنور عن أضدادها.

﴿ٱلطَّٰغُوتُ﴾: من الطغيان؛ وهو كل ما يطغي الإنسان ويضلُّه عن طريق الحق شيطاناً أم مالاً أو حاكماً مستبداً أو وثناً.

﴿خَٰلِدُونَ﴾: من الخلود: وهو تبرّي الشيء من اعتراض الفساد وبقاؤه على الحالة التي هو عليها.

التفسير

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ لكل فريق ولي يلتجىء إليه ويعتمد في أموره عليه وذلك الولي بمقتضى مرجعيته وولايته وبمقتضى رجوع الغير إليه يتولاه ويحفظه ويسدد خطاه ويرشده إلى ما فيه خيره وسعادته والذين آمنوا وليهم الله فهو الذي يتولى شؤونهم لأنهم فوضوه أمورهم وتوكلوا عليه في إنجاحها فكان سبحانه هو المتولي لهم يبعث الأنبياء والرسل وينزل الكتب والبيّنات فينتفع بها هؤلاء ويخرجون من حالات الكفر والضلال إلى حالات الهدى والإيمان ويخرجون من ظلمات الجهل إلى نور العلم، وهكذا يتغير اتجاههم تبعاً لإرادة الله ومشيئته وما أراد منهم وأحب. . . إنهم استمعوا إلى كلام الله وانتفعوا به فخرجوا من الكفر إلى الإيمان.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾.

أما هؤلاء الذين كفروا فقد اختاروا غير الله أولياء وكل ما هو غير الله «طاغوت» والطاغوت إذا كان ولي أحد لا بد وأن يضله ويحرفه ويخرجه من نور الفطرة المودعة في داخل هذا الإنسان الدالة له على الألوهية والتوحيد وكل ما يوصله إلى الله - إلى الظلمات التي هي الكفر والارتداد والانحراف والفساد. . .

إن الطواغيت إذا كانوا أولياء للذين كفروا فلا شك أنهم يزيّنون لهم الكفر ويحسّنون لهم الباطل ويزخرفون لهم الحديث فينشدّ هؤلاء إلى الانحراف ويستغرقون في الضلال وبذلك تُطمس معالم الحق وتندرس أحكامه ولا يبقى في داخلهم بصيص أمل أو شعاع هدى. . .

والنتيجة الطبيعية لهذه الفئة أنهم في النار ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أولئك الذين كفروا - الذين تتولى الطواغيت أمورهم - سيدخلون النار فهم أصحابها وأهلها والملازمون لها الثابتون فيها دائماً الذين لا يجدون عنها حولا. . .

وحذفُ النتيجة في قوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فلمعرفتها ووضوح الوصول إليها لأن من يتولى الله شؤونه وهو من المؤمنين فمصيره الجنة لا محالة خالداً فيها أبداً...

فوائد

١ ـ في أمالي شيخ الطائفة (قُدّس سره) بإسناده إلى علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه تلا هذه الآية ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ قيل: يا رسول الله! من أصحاب النار؟

قال: من قاتل علياً بعدي فأولئك أصحاب النار هم مع الكفار فقد كفروا بالحق لمّا جاءهم...

٢ ـ وحّد سبحانه النور وجمع الظلمات لأن الحق واحد بينما طرق الضلال والانحراف متعددة... الطريق المستقيم واحد والطرق المنحرفة كثيرة...

٣ ـ لا يخفى أن كلمة الطاغوت مبالغة في الطغيان وتطلق على الواحد والجمع وعلى المذكر والمؤنث وقد ذكرت في القرآن ثمان مرات.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿حَآجَّ﴾: المحاجة: أن يطلب كل واحد أن يردّ الآخر عن حجته ومحجته وحاجه: بادله الحجة، والحجة: الدليل والبرهان الذي يحتج به.

﴿ءَاتَىٰهُ﴾: أعطاه.

﴿ٱلْمُلْكَ﴾: المُلك للشيء: الاحتواء له والقدرة على التصرف، والاستبداد به، السلطة.

﴿يُحْىِۦ﴾: من الحياة: وهو فاعل الحياة وجاعلها.

﴿وَيُمِيتُ﴾: فاعل الموت وجاعله فيه: وهو إعدام الحياة.

﴿ٱلْمَشْرِقِ﴾: موضع شروق الشمس.

﴿ٱلْمَغْرِبِ﴾: موضع غروبها.

﴿فَبُهِتَ﴾: دُهش وتحيّر وانقطع وسكت.

التفسير

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾.

استفهام يتضمن التعجب من حال هذا الإنسان الذي يجادل في الله. . .

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم يصلك خبر وعلم ذلك الرجل ـ النمرود ـ الذي أخذ يخاصم إبراهيم ويجادله في ربه من حيث أعطاه الله الملك. . فكأن ما أوتي من الملك استوجب عنده زهواً وكبراً وغروراً فأخذ ـ بدل شكر الله على هذه النعمة ـ أخذ في تحويل طاقته وقدرته إلى مخاصمة إبراهيم ومجادلته. . . ثم بيّن سبحانه تفاصيل تلك المحاجة في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ وهو يجيب نمرود في سؤاله عن ربه ومن يكون؟

فقال إبراهيم ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فمن يملك الحياة والموت. . من يملك أصل حياة الإنسان ووجوده وحق فنائه وهلاكه إنما هو الله ربي.

ويلتفت نمرود ويقول في هذا الجواب.

﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ وبهذا يرد على إبراهيم استدلاله على الله ويثبت لنفسه حق الربوبية. . إنها طريقة بسيطة اثنان من المحكوم عليهما بالموت يقتل أحدهما ويعفو عن الآخر وبهذا يغرّر بالناس ويموّه عليهم وكأنه يثبت مطلوبه. . . إنها طريقة جدالٍ خبيثة قد لا يتنبّه لها إلا القليل من الناس وبهذا يفسد على إبراهيم كل خطته ودعوته. ومن هنا عدل إبراهيم في احتجاجه وبيّن أن الله الذي هو ربه هو من يملك تغيير دورة الفلك وله القوة المطلقة فلذا قال له:

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ هذه قضية حقيقية نعيشها جميعاً، فالله هو الذي رسم حركة هذا الفلك وهو سبحانه الذي حرّك الشمس وجعلها تتحول من جهة الشرق إلى جهة الغرب، فإذا كنت أيها النمرود إلهاً فخالف إرادة الله واجعل الشمس تتحرك بعكس ذلك من المغرب إلى

المشرق. . . إنها مفاجأة لم يقدر النمرود على الإجابة عليها. . صفعة قويّة لم يكن يتوقعها فسقط ما في يده وتحيّر وارتبك وبالتعبير القرآني.

﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ تحيّر ولم يجد جواباً. . . إنها قوة الحجة تخرس اللسان وتربك الفكر وتسقط ما في اليد ولم يعدْ في البيْن حجة أو دليل يقف أمام منطق إبراهيم ودليله.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لا يهديهم إلى البراهين والحجج كما لا يهديهم إلى طريق الجنة وما فيها خيرهم وسعادتهم. . فالله سبحانه يتخلى عنهم نتيجة بعدهم عنه وعدم قبولهم للبيّنات والآيات التي يرشدهم من خلالها إلى طريقه وهداه. . .

فوائد

١ - يستفاد من الآية المباركة جواز المحاجة بل وجوبها إذا توقفت الهداية عليها وهكذا كانت محاججة الأنبياء للمتمردين وطواغيت زمانهم. .

٢ - يستفاد من قوله: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ يعني أن ما أعطاه الله كان وراء هذا التكبر والاستعلاء حيث ظن أن له شيء يذكر وهذا غرور منه وعدم إدراك لواقع أمره. . .

٣ - إن قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني أن الظلم يحجب أنوار الهداية أن تصل إلى القلوب فتتعطل عن التلقي والقبول والاستجابة فتبقى في غياهب الكفر والظلام. . .

قال تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾.

اللغة

﴿مَرَّ﴾: المرور: المضي والاجتياز بالشيء.

﴿ٱلْقَرْيَةَ﴾: اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس.

﴿خَاوِيَةٌ﴾: ساقطة، أو خالية.

﴿عُرُوشِهَا﴾: العرش في الأصل: شيء مسقّف: وجمعه عروش، سقف البيت.

﴿مِا۟ئَةَ﴾: المائة: هي الثالثة من أصول الأعداد وذلك أن أصول الأعداد أربعة: آحاد، عشرات، مئات، ألوف.

﴿عَامٍ﴾: سنة.

﴿بَعَثَهُۥ﴾: أصل البعث: إثارة الشيء وتوجيهه، وبعثه: أرسله.

﴿لَبِثۡتُ﴾: مكثت، ولبث بالمكان: أقام به ملازماً له.

﴿فَٱنظُرۡ﴾: النظر: تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته وقد يراد به التأمل والفحص وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص.

﴿طَعَامِكَ﴾: ما يتناول من الغذاء يسمى طعاماً.

﴿وَشَرَابِكَ﴾: الشراب: كل ما يشرب، وشرب الماء: تناوله.

﴿لَمۡ يَتَسَنَّهۡ﴾: لم يتغير بمر السنين عليه ولم تذهب طراوته.

﴿حِمَارِكَ﴾: الحمار: هو الحيوان المعروف ببلادته وغباوته، وجمعه حمير وأحمرة وحُمُر وحُمُور.

﴿ءَايَةٗ﴾: علامة ودلالة.

﴿ٱلۡعِظَامِ﴾: مفرده العظم: وهو قصب الحيوان الذي عليه اللحم.

﴿نُنشِزُهَا﴾: نرفعها من النشوز: وهو الارتفاع، ومنه نشوز المرأة على زوجها، وهنا يراد بها نرفعها من الأرض لنؤلفها والمراد نحييها.

﴿نَكۡسُوهَا﴾: من كسا، والكساء والكسوة: اللباس.

﴿لَحۡمٗا﴾: اللحم جمعه لحام ولحوم ولحمان: وهو خلاف العظم والشحم والدهن مما يكون على جسم الحيوان.

﴿تَبَيَّنَ﴾: ظهر وانكشف.

التفسير

﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ﴾.

هذه قصة أخرى معطوفة على قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾

وعليه فهو تعجب من هذا الإنسان ومفاده: ألم يصل إليك يا رسول الله خبر وعلم هذا الإنسان الذي مرّ على قرية وقد تهاوت وسقطت وخلت من سكانها!.. إنه مرّ عليها فرأى خرابها ودمارها وقد كانت تعيش بحضارتها ونضارتها ورجالاتها وأهلها فأصبحت خراباً يباباً وأطلالاً دارسة خلت من كل حسيس أو أنيس...

إن هذا الإنسان وقف عليها فأخذته العبرة وراح في فكره يسبح نحو المجهول وأخيراً قال:

﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كيف يحيي الله هذه القرية بعد موتها؟!.. كيف يتم إعادة بنائها وحياتها وتعود كما كانت ببنائها وسكانها وحركتها ونشاطها... إنه سؤال عن الطريقة التي تتم بها إعادة حياتها وكيف يكون ذلك؟!..

وتأتي الإجابة عملياً وله شخصياً وعلى حماره الذي كان يركبه حتى تكون أشد وقعاً وأكبر أثراً وأكثر إحساساً.

﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ كان على قيد الحياة ويتمتع بالقوة والشباب ونضارة العيش ـ أبداً كهذه القرية التي كانت تعجُّ بالحركة وتنبض بالحياة. فأماته الله وتوفاه وأخرجه من عالم الأحياء وما هم فيه من حركة ونشاط وتفكير وتخطيط...

مات كما ماتت هذه القرية ـ لم يعدْ له من حركة كما فقدت هي حركتها... وكذلك مات حماره الذي يركبه... ثم بعثه الله بعد الموت... دبت فيه الحركة وانتشرت فيه الحياة... وكان السؤال والجواب..

﴿قَالَ﴾ سبحانه له: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾؟ سؤال عن المدة التي قضاها ميتاً...

ويجيب: ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وهذا اليوم كان قبل نظره إلى طلوع الشمس فلما رآها قال أو بعض يوم وأنه لا يزال في نفس اليوم... إنه يعتقد ذلك ويذهب إليه ولذا يتبناه في جوابه.. لم يشعر بمرور السنين عليه ولم يحسّ بوطئها وثقلها.. ويأتي الجواب الصحيح الصائب من الله..

﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ إن مدة موتك ومكثك على هذه الحالة كانت مائة عام... مائة سنة قد طويتها وأنت ميت... لقد تقلّص الزمن فأصبحت المائة عام يوماً أو بعض يوم في نظر هذا الميت...

ثم سبحانه أراد له أن يعتبر بأمرين كانا معه وله وهو متأكد منهما ولا يشك في وجودهما وحقيقتهما وملكيته لهما... إنهما مختلفان واحد لا يتحمل البقاء طويلاً ولا يقدر على الاستمرار والآخر يمكن له أن يبقى مدة من الزمن... إنهما شرابه وطعامه وأيضاً حماره...

﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ اعتبر بحالة غذائك الذي كان بحوزتك وكذلك اعتبر بطعامك... إنهما لا يتحملان البقاء أياماً فضلاً عن الشهور فكيف إذا مرت عليهما السنون.. انظر إليهما معاً لم تفسدهما السنون ولم تغيّر طعمهما... إنهما كما عهدك بهما جرّب وتناولهما فهما هما...

وهذا من قدرة الله الذي حفظهما من الفساد والتلف... كيف تم ذلك وبأي واسطة أو وسيلة؟.. إنها أسئلة تسقط وتفقد قيمتها إذا توجهت نحو الله خالق هذه الأشياء ومكوّنها.. إنه الله سبحانه وتعالى قدرته مطلقة في الأشياء لا يحدّها حدّ ولا يقف دونها مانع..

ثم الشيء الآخر ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ انظر إليه كيف تبدّدت أوصاله وفنيت أجزاؤه وأصبح رميماً، وهذا المعنى هو الظاهر وإن قيل: إن معناه انظر إلى حمارك كيف هو فإنه كما تركته لم يتغيّر ولم يتبدل ولم يطرأ عليه أثر أو عامل من عوامل الزمن فيؤثر عليه...

﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ ما فعلناه فيك من الإماتة والإحياء ومعك الآيات «الطعام والحمار» كل ذلك من أجل أن نجعلك علامة ودلالة لأهل القرون والأزمان يستمعون منك ما جرى لك ويعتبرون بحالك وكيف أن الله بيده الأمور وهو يحيي ويميت.

﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾.

وانظر إلى العظام ـ تأمل فيها جيداً كيف نجمعها ونرفعها ثم نركّب بعضها فوق بعض كما كانت كل عضو في مكانه ثم نغطّيها باللحم..

وهذه العظام اختلفوا فيها: بعضهم ذهب إلى أنها عظام حماره التي تبدّدت وتوزّعت وتفرّقت.. وبعضهم ذهب إلى أنها عظام أهل تلك المدينة التي مرّ عليها، وبعض ثالث ذهب إلى أنها عظامه هو؛ وعلى كل حال فالمهم كيفية الإحياء ومراحل التركيب والإعادة وأما عظام من؟ فلو كان في الأمر أهمية تذكر لذكرها الله وسمى صاحبها...

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ فلما ظهر الأمر له واتضحت الصورة وعرف كيف يكون الإحياء بقدرة الله وإرادته.

﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا تأكيد لعلمه وأن ما شاهده زاد في علمه فأصبح علماً عياناً ومشاهدة بأن الله على كل شيء قدير لا يعجزه إحياء الموتى ولا بعثهم كما لا يعجزه إحياء هذه البلدة وإعادتها إلى الازدهار والحركة والنعيم...

فوائد

١ ـ اختلفوا في المراد من قوله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ من يكون ذلك الذي مرّ...؟!...

اختلفت الأخبار في تعيين ذلك فذهبت بعضها إلى أنه أرميا النبي وبعضها الآخر إلى أنه عزير...

٢ ـ إن الآية واضحة الدلالة على المعاد الجسماني حيث تم إعادة العظام نفسها ثم إكسائها لحماً في عملية مشاهدة حقيقية.

٣ ـ ترك سبحانه ذكر القرية ومكانها وزمان إعادتها لعدم الفائدة في كل ذلك ولكي يمكن أن تشرّع قاعدة عامة في إمكان إعادة كل قرية على ذلك النمط...

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿أَرِنِي﴾: من رأى، والرؤية: إدراك المرئي بالبصر.

﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾: جمع الميت: وهو الذي فارق الحياة.

﴿بَلَىٰ﴾: رد للنفي نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ الآية... بلى من كسب سيئة أو جواب لاستفهام مقترن بنفي نحو قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُوا بَلَىٰۛ﴾[(١)] ...

﴿لِّيَطْمَئِنَّ﴾: ليسكن، والمطمئن: الساكن وأصله المنخفض..

﴿فَخُذْ﴾: فعل أمر من أخذ، والأخذ: حوز الشيء وتحصيله.

﴿ٱلطَّيْرِ﴾: مفرده الطائر: وهو كل ذي جناح يسبح في الهواء.

﴿فَصُرْهُنَّ﴾: الصرّ: أصله الشدّ، والصُّرة: ما تعقد فيه الدراهم.

---

(١) الأعراف/ ١٧٢.

﴿جَبَلٍ﴾: الجبل: جمعه أجبال وجبال: ما ارتفع من الأرض إذا طال وعظم.

﴿جُزْءًا﴾: الجزء: البعض.

﴿ٱدْعُهُنَّ﴾: نادهنّ، من دعاه: إذا ناداه.

﴿يَأْتِينَكَ﴾: يسعين نحوك.

﴿سَعْيًا﴾: السعي: المشي السريع وهو دون العدْو.

التفسير

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

هذا فصل من فصول حياة إبراهيم خليل الرحمٰن يذكّر الله بها نبيه وينقلها إلى الناس ليعتبروا بها ويتعظوا من خلالها ويعلموا أن الله على كل شيء قدير وقد كتبت في كتابنا «الأصدق في قصص الأنبياء» الذي طبعته دار المرتضى سنة ١٩٩٦، ما نصه.

«إن إبراهيم يملك طاقة عقلية استطاع أن يواجه بها قومه ويهزمهم منطقياً ويستمر في طريقته الجهادية يعيش في هداية الناس ووعظهم وإرشادهم وهناك في بلاد «الشام» وعلى ساحل بحرها وبينما يمر إذ ببصره يقع على جيفة مرمية نصفها في الماء ونصفها الآخر في البر، تأكل منها حيوانات البر وحيوانات البحر ثم تتنازع فيما بينها ويأكل بعضها بعضاً ويرى إبراهيم هذه الصورة.. إنها فعلاً صورة محيّرة وموجبة لسؤال «كيف يحيي الله هذه الجثة التي مزقتها حيوانات البحر والبر وأصبحت طعاماً في جوفها.. إبراهيم يخطر بباله هذا السؤال مع علمه أن الله قادر بقول مطلق لا يعجزه شيء ولا يقف في مواجهة إرادته إرادة أخرى...

الله في الحقيقة وفي المنظور الإبراهيمي هو القادر إذا أراد شيئاً تحقق، وكلمة «كنْ» في قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ما هي إلا تعبير عن نفاذ مشيئته وتحقيق المراد.

ولكن كيفية إعادة الأموات والصورة التي تتم بها، هذا ما يسأل عنه إبراهيم، ولذا توجه إلى الله وقال:

﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾.

فهذه الأموات التي فُقدت منها الأرواح وتحللت أجزاؤها إلى ذرّات وذهبت في الأرض إلى كل مكان، أريد يا رب أن يطمئن قلبي وأعرف الكيفية التي يتم بها ذلك...

أنا يا رب مؤمن بقدرتك المطلقة وعلى وعي كامل بأصل الإعادة ولكن كيفيتها ترسّخ العقيدة وتقوّيها ويطمئن قلبي ويرتاح..

ويأتيه الجواب من الله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ أي مع إيمانك بقدرة الله على الإحياء لماذا تسأل كيف يكون الإحياء؟!

وأجابه إبراهيم: ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ إنني على إيمان كامل بقدرتك ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ فإن البرهان العقلي قائم لا شك فيه ولكن هذا القلب يحتاج إلى اطمئنان وارتياح ليعيش هدوءه وسكينته.

وكما عوّد الله إبراهيم على الرحمة به والاستجابة له فهو لن يردّ طلبه هذه المرة ولن يتخلى عنه في هذه المسألة وطالما أن الله قادر فلا بدّ من أن يستجيب لإبراهيم ولا بدّ وأن يحقق ذلك أمام ناظريه.. لا بدّ من عملية إحياء يشاهدها ويطمئن قلبه إليها..

يا إبراهيم كن أنت بطل هذه العملية وشارك فيها لتلمس بيديك وتشاهد ببصرك عملية الإحياء ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾.

عندما سمع إبراهيم هذا الأمر من الله ﴿فَخُذْ﴾ عمد إلى أربعة من الطيور مختلفة في شكلها ولونها يمثل كل واحد منها مظهراً للصفات والخصال الموجودة في البشر، إنها أربعة من الطير حددتها الروايات: طاووساً وديكاً وحمامة وغراباً،

خذها بيدك واحفظها جيداً بعلامة فارقة تجعلها في كل واحد منها ثم قطّعها قطعاً صغيرة واخلط لحومها حتى لا تتميز وبعد ذلك وزّعها على عشرة جبال اجعل على كل جبل منها جزءاً وبعد هذه العملية أدعهن... نادهن بأسمائهن.. يا طاووس.. يا ديك.. يا حمامة... يا غراب، ثم انظر كيف تكون عملية الإحياء وكيف تعود إليها الحياة!؟ وهكذا فعل إبراهيم ﷺ دعاهن.. وإذا بأجزاء كل طير تتميز عن بقية الأجزاء وتلتحم مع أجزائها وتتركب لتؤلف طيراً مميزاً له خصائصه القديمة وميزاته التي يمتاز بها، وكذلك علامته التي علّمه إبراهيم بها.. ثم يأتين إليه بسرعة فيقف إبراهيم على حقيقة الإحياء صورة متجسدة أمامه وحقيقة لا ريب فيها ولا شك يعتريها ويطمئن القلب ويستقر. وهكذا تنتهي إحدى كرامات الله لإبراهيم ﷺ إلى هنا كان ما كتبناه في القصص...

﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وليتأكد علمك بأن الله لا يعجزه شيء فهو متعزز بقدرته حكيم في فعله وصنعه وتدبيره.. الله عزيز لا يُقهر ولا يعجزه شيء إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون وهو حكيم يضع الأمور في مواضعها ويقدرها بقدرها..

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿يُنفِقُونَ﴾: الإنفاق: إخراج المال عن ملكية صاحبه وإعطائه إلى المحتاجين. ونفق البيع: أي خرج من يد البائع إلى المشتري، ونفقت الدابة: إذا خرجت روحها.

﴿أَمْوَالَهُمْ﴾: الأموال: ما يصح تملكه للإنسان، وأظهر إفراده ما يتداول به من ذهب وفضة وورق..

﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾: الطريق الموصل إلى مرضاته.

﴿حَبَّةٍ﴾: الحبة: واحدة الحب ما يزرع ليقتات به كالقمح والشعير.

﴿أَنبَتَتْ﴾: أخرجت.

﴿سَبْعَ﴾: عدد من فئة الآحاد يقع بين العددين الست والثمانية.

﴿سَنَابِلَ﴾: مفردها سنبلة: وهي ما على الزرع وهو جمع كثرة وأما سنبلات فهو جمع قلة.

﴿يُضَٰعِفُ﴾: ضعف الشيء: تثنيته ومتى أضيف إلى عدد اقتضى ذلك العدد.

﴿لَا يُتْبِعُونَ﴾: لا يُلحقون من تبعه، وأتبعه: إذا قفا أثره.

﴿مَنًّا﴾: المنّ: هو تعداد النعمة على من أنعمتَ عليه على وجه التفضل والتطاول.

﴿أَذًى﴾: الأذى: ما يلحق الحيوان من الضرر أما في نفسه أو جسمه أو تبعاته دنيوياً أو أخروياً.

﴿أَجْرُهُمْ﴾: من الأجر، وهو الثواب على العمل، المكافأة والأجرة: كراء الأجير.

﴿خَوْفٌ﴾: الخوف: توقع مكروه عن إمارة مظنونة أو معلومة.. ويضاده الأمن.

﴿يَحْزَنُونَ﴾: من الحزن، وهو ضد الفرح وهو خشونة في النفس لما يحصل فيه من الغم.

﴿مَّعْرُوفٌ﴾: القول المعروف: ما تقبله القلوب ولا تنكره.

﴿خَيْرٌ﴾: أفعل تفضيل: أي أفضل وأنفع وأحسن فائدة.

﴿صَدَقَةٍ﴾: الصدقة: ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة وفي الأصل للمتطوع بها وتطلق على الواجبة.

﴿يَتْبَعُهَآ﴾: من تبعه وأتبعه: إذا قفا أثره، وهنا لم يُلحقها بالأذى.

التفسير

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾.

هذه الآيات الست المتتالية تأتي بعد ذكر قصتين من قصص الحياة بعد الموت وأن الله قادر على ذلك فجاءت هذه الآيات لتذكر ما ينفع في ذلك اليوم الرهيب وما يفيد عمله يوم تنقطع الأعمال وتتعطّل الأشغال. . .

وقد شبّه الله النفقة ـ وحضّ من خلال التشبيه عليها ـ شبهها بحبة ـ من بر أو غيرها ـ زُرعت في أرض فأثمرت سبع شعب في كل شعبة سنبلة وفي كل سنبلة مائة حبة. . . فالحبة الواحدة أعطت سبعمائة حبة.

إن الحبة قد تعطي هذا العطاء في بعض المواسم ولكن عطاء الله على الصدقة إذا أخرجت في سبيله ـ سواء كان جهاداً أو في الجهاد أو لمحتاج أو في سبيل مشروع خيري يعود بالفائدة على الناس ـ إن عطاء الله وتعويضه على هذا الإنسان مضمون محفوظ.

﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ الله يعطي هذا العطاء المضاعف لهذا الإنفاق لمن شاء بحسب إخلاص المنفق وحلّية ماله وموقع النفقة وإنها في محلها. . .

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واسع في عطائه ورحمته وعليم بنيّات الناس وأعمالهم ومقاصدهم. . .

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾

هذه معادلة يضعها الله لحصول الأجر على النفقة وعدم الخوف والحزن في الآخرة. . . إنها مقدمات تحصل منها نتيجة وأرقام واضحة يحصل منها رقم يجمع الجميع. . . إنها تحت قدرة الإنسان المؤمن ويمكنه أن يأتي بها بدون مشقة أو حرج. . .

أولاً: أن يكون الإنفاق في سبيل الله. . . وسبيل الله معنى عام جامع شامل لكل بر وخير وإحسان فيشمل البذل في تجهيز المجاهدين. . ورفع عوز المساكين وإعانة المحتاجين ومداواة المرضى وبناء المشاريع العامة التي تنفع الناس كالمساجد والحسينيات ودور الأيتام والمصحّات وغير ذلك مما يدخل تحت عنوان ـ سبيل الله ـ.

ثانياً: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ فهذه الصدقة ـ وهذا الإنفاق ـ يشترط أن لا يكون بعده منّ ـ والمنُّ كما هو معروف أن يعدّد عطاياه له ويرى أن له الفضل عليه والشرف والعلو بهذه العطية... وبعبارة أخرى أن لا يتبع صدقته وعطيته بتعداد فضله عليه وإحسانه إليه لئلا يفسدها ويبطل أجرها.

وأما الأذى فهو واضح المعنى: أن يتبع عطيته بسبّه أو شتمه أو إهانته بالنظرة المحتقرة له أو الكلمة البذيئة أو الموقف الشائن بحقه. ثم لا يخفى أنه إذا مُنع من المن والأذى بعد الصدقة فإن المنع عنهما معها أشد وأقوى.

وهذا هو السر في التعبير القرآني ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ﴾ هؤلاء ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لهم ثواب عملهم وأجر ما أنفقوا عند الله ومن كان أجره عند الله كان أجره عظيماً وثوابه كبيراً.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فهم في أمان من كل عذاب كما أنهم في فرح وسرور لا يعكّر صفوهم حزن أو كآبة لأنهم في دار الأمان والكرامة والسعادة والسلام.

﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾.

تعليم للمسؤول وتهذيب له كي يبقى في خط الله... فعليه أن يواجه السائل بكل لطافة ولياقة فلا يصدر منه إلا الكلمة الطيبة التي تشعر السائل بكرامته وعزته ومنزلته عند الله، والمجاملة جميلة والكلمة الطيبة صدقة... وقد يلحّ السائل بدافع الاضطرار والحاجة أو بطبيعة من يريد قضاء حاجته، فهنا يجب أن يتحمّله المسؤول ويستر عليه ويغفر له هذا الذلل.

إن قول المعروف للسائل أو لمن تتصدق عليه والمغفرة والستر عليه خير وأفضل من صدقة يتبعها أذى.. لأن الصدقة إذا لحقتها أذية غيّرت فضلها ونقضت حسنها وتحوّلت إلى أمرٍ مرغوب عنه...

إن الأذية مع الصدقة تفسد هذه الصدقة وتعطّل مفعولها وتلغي أثرها.. لأن الإيذاء يهين المعاني الإنسانية ويودي بالكرامة التي جعلها الله لهذا الإنسان..

إن الصدقة يجب أن تخرج عن قلب يشعر بألم الآخرين وحاجتهم ويشعر أن ألمهم وعذابهم هما ألمه وعذابه فيتفاعل مع هذه العاطفة ويستجيب لهذه النفسية وبهذا يتحوّل إلى إنسان يعيش الإنسانية في كل إنسان، وهذه النفسية إذا تحولت إلى عكس ذلك فلا يعود في نفس العطاء أجر ولا يعود في الصدقة ثواب ولا لإخراج المال أثر طيب...

إن العطاء مع نفسية الإيذاء وممارسته عملاً يقضي على أثر هذا العطاء ويلغيه ومن هنا كانت الكلمة الطيبة والمغفرة الجميلة النابعتين من نفسية برة خيِّرة أفضل من الصدقة مع الإيذاء...

تتشوش الصدقة ويتشوه معناها إذا أُتبعت بالأذى فمن هنا عندما يعطي الإنسان يجب أن يعطي بإخلاص وقربة إلى الله دون أذية أو إضرار...

﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ والله غني عنكم وعن صدقاتكم ولكنه أراد صلاحكم بها وثوابكم عليها وهو حليم لا يعاجل من عصاه ولا يأخذ فوراً من لم يمتثل لأمره ولا يتصدق على المحتاج...

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾.

اللغة

﴿لَا تُبْطِلُوا۟﴾: من بطل: إذا ذهب خسراً وضياعاً.

﴿صَدَقَٰتِكُم﴾: الصدقة: ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة كالزكاة، لكن الصدقة في الأصل تقال للمتطوع بها وقد يسمى الواجب صدقة.

﴿ٱلْمَنِّ﴾: تعداد النعمة على من أُنعم عليه على وجه التفضل والتطاول.

﴿وَٱلْأَذَىٰ﴾: ما يصل إلى الحيوان من الضرر أما في نفسه أو جسمه أو تبعاته دنيوياً كان أو أخروياً.

﴿رِئَآءَ﴾: مصدر وهو التظاهر بخير دون حقيقة، وفعل ذلك رئاءَ: أي تظاهر بخلاف ما في باطنه مأخوذ من الرؤية فالعمل فقط ليراه الناس ليس لحسنه أو لوجه الله.

﴿صَفْوَانٍ﴾: حجر أملس كبير.

﴿تُرَابٌ﴾: التراب: الأرض وما نَعُم منها.

﴿أَصَابَهُ﴾: أصاب الشيء: أدركه، وصاب السهم الرمية: إذا اتجه نحوها ولم يخطىء.

﴿وَابِلٌ﴾: الوابل: المطر الشديد.

﴿صَلْدًا﴾: الصلد: هو الصلب الأملس الذي لا يُنبت.

﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾: القدرة: إذا وصف بها الإنسان فاسم لهيئة له، بها يتمكن من فعل شيء ما، وإذا وصف بها الله فهي نفي العجز عنه.

﴿كَسَبُواْ﴾: الكسب: ما يتحراه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع، وورد في القرآن في فعل الصالحات والسيئات.

التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ هذه الآية جاءت بعد ثلاث آيات كلها في الإنفاق وبذل المال لوجه الله، والآية الأولى رغبت في الإنفاق وجعلت لمن ينفق واحدة أن يعوّض الله عليه سبعمائة بدلاً عنها.

والآية الثانية: وضعت بعض الشروط لقبول هذه الصدقة.

والآية الثالثة: وضعت مبدءاً أخلاقياً في التعامل مع المتصدق عليهم، وكيف تكون الكلمة الطيبة حق علينا في مواجهة السائل وأنها خير من الصدقة مع المن والأذى. . . .

أما هنا في هذه الآية فتحسم القضية بشكل قاطع. . . إنها تحكم بفساد الصدقة وبطلانها وذهاب عينها مع أجرها فلا تعود بنفسها على المعطي ولا يعود أجرها إليه إن هو تصدق ومنّ أو آذى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خطاب للمؤمنين وبالصفة التي هي أغلى عليهم من كل صفة، تحريكاً لهذه الخاصية فيهم وإثارة لهم أن يكونوا بمستوى هذا الإيمان.

﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ هذا حسم لحكم الصدقات مع المن والأذى. . . إن المن والأذى يسمّم الصدقات ويرفع كل أجر وثواب فيها. .

﴿لَا تُبْطِلُوا۟﴾ نهي تفسد معه العبادة وباعتبار أن الصدقة يشترط فيها القربة ووجه الله فيفسدها المنّ والأذى للنهي عنهما. . .

إن ﴿ٱلْمَنَّ﴾ هو ما يردده بعض ضعفاء الإيمان أمام السائل بالقول له: ألم أشبع بطنك، ألم أعطك؟ ألم أحسن إليك متطاولاً عليه مدلاً عليه؟!.

﴿وَٱلْأَذَىٰ﴾ هو كالشتم والإهانة لا أشبع الله بطنك، ما أكثر ما تطلب وهكذا. . .

إنهما ـ المن والأذى ـ صورتان تحرقان الصدقات وتفسدانها وتعطلان مفعول كل خير فيها. . . ثم شبّه سبحانه الصدقة مع المنّ والأذى بقوله تعالى:

﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ شبه سبحانه المنّان والمؤذي للسائل بالمرائي وهو المنافق فحاله كحاله.

فالمرائي يصرف أمواله ليراه الناس فحسب دون إيمان بالله ولا باليوم الآخر فهذا يخسر ماله عيناً ويخسر الأجر والثواب المترتب عليه، ويخسر عين المال لأنه أخرجه عن ملكه بالصدقة ويخسر أجره وثوابه لعدم إيمانه بالله واليوم الآخر المترتب على الإيمان بهما ـ الأجر والثواب. . . ثم زيادة في الإيضاح شُبّه هذا المرائي بقوله تعالى:

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾.

مثل المرائي كمثل حجر أملس عليه بعض تراب يغطيه إذا رآه الرائي ظن أنه قابل للزراعة ويمكن الاستقرار عليه ولكن ما أن يهطل المطر الغزير عليه حتى ينكشف ويزول عنه ذلك التراب القليل وتظهر حقيقته حجراً صلباً لا ينبت عليه زرع أو يخرج منه نباتاً أخضراً. . .

فالمرائي مثل هذا الحجر ظاهره عطاء وجود، وفي نظر الناس خير وبركة يغبطه الناس على ثواب ذلك العمل وتلك العطية، ولكنه في الواقع وحقيقة الأمر ليس له أجر ولا ثواب... يسقط الأجر والثواب ولا يترتب أثر على هذا العطاء كالحجر الأملس الذي عليه بعض التراب يراه الرائي منبتاً للزرع فإذا سقط عليه الماء الشديد انكشف الأمر...

وما أروع قوله تعالى: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أي سقطت من أيديهم الصدقات عيناً لأنها خرجت إلى غيرهم من الفقراء وسقط ثوابها وأجرها لريائهم إن كانوا منافقين أو سقط أجرها وثوابها للمنّ والأذى اللذان شاباها وكانا معها إن كانوا مؤمنين.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ الكافرون منعوا إيصال الخير إلى أنفسهم وسدّوا منافذ النور أن تصل إلى قلوبهم ولم يحرّكوا عقولهم ويستثيروها نحو الحق والهدى فتركهم الله وشأنهم ومنعهم توفيقه الموصل إلى خيرهم...

قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾.

* * *

اللغة

﴿يُنفِقُونَ﴾: الإنفاق: إخراج المال وإعطائه للمحتاج وغيره.

﴿ٱبْتِغَآءَ﴾: الابتغاء: هو الاجتهاد في الطلب، وبغيت وابتغيت: أي طلبت، وابتغاء مرضاة الله: أي طلباً لرضوانه.

﴿مَرْضَاتِ﴾: مصدر من رضي يرضى.

﴿تَثْبِيتًا﴾: الثبات: ضد الزوال، وثبتُّه: إذا قويته، وتثبيتاً من أنفسهم: أي لتمكين أنفسهم في الإيمان وعدم زلزالها بما ينافي الإيمان.

﴿جَنَّةٍ﴾: الجنة: كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض.

﴿بِرَبْوَةٍ﴾: الربوة: المكان المرتفع من الأرض، من ربا يربو: إذا زاد.

﴿أَصَابَهَا﴾: أصاب الشيء: أدركه، وصاب السهم الرمية: إذا اتجه نحوها ولم يخطىء.

﴿وَابِلٌ﴾: الوابل: المطر الشديد.

﴿فَآتَتْ﴾: الإتيان: هو المجيء بسهولة وأتت هنا: أي أعطت.

﴿أُكُلَهَا﴾: بالضم، الطعام الذي يؤكل وهنا هو الثمر.

﴿ضِعْفَيْنِ﴾: مثلين.

﴿فَطَلٌّ﴾: فَطَلٌ أضعف المطر وهو ما له أثر قليل الندى.

التفسير

بعد أن ذكر سبحانه الصدقات المشوبة بالمنّ والأذى وأنها صدقات فاسدة لا تعطي أثرها المرجو منها وذكر لها المثل بالمرائي وبالصفوان الذي عليه بعض التراب ذكر سبحانه هنا الصدقات المقبولة والإنفاق الذي يرضاه، وكيف يتولى سبحانه مضاعفة الأجر والثواب على من دفعها في سبيله وبدافع الإيمان الذي يحمله في نفسه، وضرب لها مثلاً يقرّب هذا المعنى، فقال سبحانه:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

مثل الذين يخرجون أموالهم عن ملكيتهم طلباً لرضى الله فيوزعونها لوجهه الكريم خالصة له دون شائبة من منّ أو أذى أو غرض من الأغراض الأخرى التي تتنافى والإخلاص لله..

وكذلك ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ انطلاقاً من إيمانهم الثابت ودوافعهم العقيدية التي تعيش وتسكن في قلوبهم... إنها دوافع الإيمان الثابتة التي تحركهم للإنفاق... فهناك رضا الله وعقيدتهم الثابتة فيه هما وراء هذا الإنفاق.. إنهم قوم ينفقون ـ رغم حب الإنسان للمال حباً شديداً ـ من أجل أن تثبت المعاني الإيمانية ـ من الجود والكرم والصدقة ـ في نفوسهم وتمكينها في داخلهم ليبقوا في الوسط من دائرة الإيمان والتقوى. إن من ينفق ماله من هذين المنطلقين مثله:

﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾.

مثل ذلك المنفق لماله في طلب رضى الله وبدافع من نفسه المؤمنة التي يريد تثبيت عوامل الخير فيها.. هذا مثله كبستان في مرتفع من الأرض نزلت الأمطار الغزيرة عليه فانتعشت الأشجار وأتت الثمار مضاعفة.. ومعروف أن الثمار الجبلية التي تتوفر لها التربة الصالحة والمطر ـ والماء الغزير ـ الذي يرويها كيف تكون مواسمها رونقاً وحسناً وطعماً ولذة وإنتاجاً، إنها تكون مضاعفة عن غيرها من أمثالها...

﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ إن لم يصبها المطر الغزير الذي يتضاعف من خلاله إنتاجها فلا أقل أنه يصيبها مطر خفيف، وأيضاً تثمر وتعطي إنتاجاً جيداً نافعاً ومفيداً، وهكذا حال المنفقين في سبيل مرضاة الله وتثبتاً من عند أنفسهم فإنهم الرابحون باستمرار وعلى الدوام، فإن كانت صدقاتهم كبيرة أو صغيرة فهي مقبولة مرضية يتقبلها الله ويثيبهم عليها.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ حثٌّ على الإخلاص وترغيب في الإنفاق، وأيضاً تحذيراً للمرائي، لأن الإنسان إذا عرف أن الله يعلم دوافع الأعمال ويجازي عليها يدفعه ذلك للإخلاص فيها والرغبة في أن تكون لوجهه الكريم دون سواه...

فائدة

قيل: المطر.. أوله رشّ ثم طَشّ ثم طلّ ثم نضح ثم هطل ثم وابل، والمطر الوابل: الشديد الغزير.

قال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾.

اللغة

﴿يَوَدُّ﴾: يحب ويتمنى.

﴿نَّخِيلٍ﴾: جمع نخل، والنخل يطلق على المفرد والجمع: وهي شجرة التمر المعروفة.

﴿أَعْنَابٍ﴾: جمع عنبة، يقال لثمرة الكرم وللكرم نفسه.

﴿تَجْرِي﴾: من جرى، والجري: المرّ السريع وأصله كممر الماء ولما يجري بجريه.

﴿الْأَنْهَارُ﴾: جمع نهر: وهو مجرى الماء الفائض.

﴿الثَّمَرَاتِ﴾: واحده الثمرة: حمل الأشجار وما يطعم منها.

﴿أَصَابَهُ﴾: أدركه ولحقه.

﴿الْكِبَرُ﴾: التقدم في السن (الشيخوخة).

﴿ذُرِّيَّةٌ﴾: نسل وما يخلفه من عقب.

﴿ضُعَفَآءُ﴾: الضعف: ضد القوة وهنا يراد بالضعفاء أي فقراء محتاجون (وصغار محتاجين).

﴿إِعْصَارٌ﴾: ريح عاصف تهبُّ من الأرض ترتفع إلى عنان السماء وتسمى الزوبعة.

﴿فَٱحْتَرَقَتْ﴾: أصابتها النار فأتلفتها ـ كما هو المعهود من الأشياء إذا أصابتها النار.

﴿يُبَيِّنُ﴾: يكشف ويظهر.

﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾: العلامات والحجج.

التفسير

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾.

هذا مثل آخر يضربه الله لحالة المنافق وكيف يبطل عمله ويضيع أجره مع أنه بحاجة إليه لإنقاذه من العذاب.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ استفهام فيه إنكار أن يرتضي أحد من الناس أو يحب أن تكون حاله كحال رجل له جنة ـ بستان ملتف بالأشجار ـ من نخيل وأعناب ـ الغالب عليه هذان الصنفان لشرفهما وكثرة منافعهما وهما الفاكهتان اللتان كانتا أعلى طموحات الإنسان في ذلك الزمان ـ وقد يكون في غير ذلك الزمان ـ أن يحصل عليهما وأيضاً الأنهار تجري من تحت تلك الأشجار وفيها من كل الثمرات على اختلاف أجناسها وأنواعها وألوانها فتكتمل معنوياً وصورياً، فهي من جهةٍ صورة بديعة مريحة للنفس والعين وأيضاً فيها من كل ما تشتهي النفس وترغب فيه من الثمار...

وهو في سن كبيرة جداً ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ متقدم في السن، وفي مثل ذلك العمر يصبح الإنسان حريصاً على ما يملك من جهة، وأيضاً يصبح بأمس الحاجة إلى ما عنده فتلتقي الحاجة الواقعية لقلة حركته وعدم نشاطه مع الحرص الشديد على ما يملك. وأيضاً له أبناء فقراء يحتاجون إلى جنى هذا البستان وتتوقف معيشتهم عليه فهم يطالبونه بنمائه...

هل يرضى أحد أن تكون له هذه الجنة - البستان - بهذه المواصفات الرائعة العظيمة - وهو على حاله من الكبر وأبناءه من خلفه يطالبونه بالنفقة ثم في تلك الظروف الصعبة والحاجة الماسة إلى هذه الجنة أصابها إعصار فيه نار فاحترقت قال تعالى:

﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾. جاءتها وهي على تلك الحالة التي مرت زوابع شديدة وفيها نار فاحترقت تلك الجنة بما فيها... إنها حالة مأساوية ضاع رأس المال وضاع معه الرجل وأضاع ذريته من ورائه...

والمنافق أو المرائي - أو الذي يتبع صدقته بالمنّ والأذى - ينسف من خلال فعله المشين صدقته وثوابها وأجرها وما يترتب عليها من الخير، ويبقى يوم القيامة في حزن وألم مع أنه بأمس الحاجة إلى صغير الأجر فضلاً عن كبيره وكثيره...

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ كما بيّن لكم الله في هذا المثل الرائع للذي يتبع صدقته بالمنّ والأذى.. كذلك يبيّن لكم آياته في كتابه لعلكم تتفكرون فيها فتنتفعون وتستفيدون ويكون لكم الخير فيما تقدمون عليه أو تحجمون عنه...

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾: جمع طيب، وأصله ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس.

﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾: من كسب الشيء: جمعه، وكسب المال: طلبه وربحه، وكسب القلوب: ما نوته وانعقدت عليه.

﴿أَخْرَجْنَا﴾: ما أخرجه الله من الأرض يراد به ثمارها من الغلات والثمار.

﴿وَلَا تَيَمَّمُوا﴾: ولا تقصدوا، والتيمم: هو القصد إلى الشيء وعمده وهو المقصود هنا.

﴿ٱلْخَبِيثَ﴾: الرديء من كل شيء.

﴿تُغْمِضُوا﴾: تتساهلوا وتتسامحوا، من أغمض عينيه: إذا أطبق جفنيهما.

﴿حَمِيدٌ﴾: أي محمود يستحق الحمد.

التفسير

بعد أن أمر سبحانه بالصدقة وحضّ عليها ـ كما مرّ ـ أمر هنا أن تكون من طيّب ما ينفق هذا الإنسان، فهذا بيان لجنسها ونوعها . . .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ إنه سبحانه يحب هذا الصنف المطيع له العامل بأمره . . فلذا يوجّه إليه الأمر ويوجهه الوجهة الصحيحة في كيفية الإنفاق وجنسه.

﴿أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أنفقوا من الحلال الطيب الذي كسبتموه في تجارتكم أو إجارتكم أو أي عمل مما جهدتم فيه.

﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ مما أنبته الله لكم من الأرض من حبوب وغلات وثمار ويمكن أن تشمل كلمة ﴾ المعادن من ذهب وفضة والنفط ومشتقاته وغيرها مما أودعه الله في رحم الأرض وجوفها . .

﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ تأكيد على النهي عن إنفاق الخبيث من الكسب أو مما أخرجته الأرض، والمعنى لا تتوجهوا نحو الخبيث الرديء من المال وتنفقوه دون الطيب.

ولبيان قبح التوجه إلى الرديء وإخراجه قال لهم:

﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ أي إعرضوا القضية على أنفسكم فكما لا تقبلون الرديء إلا إذا تساهلتم وتسامحتم فيه وأغمضتم البصر عنه فكيف تدفعون حق الله «أو ما ندبكم إليه» من هذا الخبيث؟ كيف تدفعون ذلك وتتقربون به إلى الله؟ فإن الله طيّب ولا يحب إلا الطيّب، وبعبارة أخرى كما أن أنفسكم لا ترضى بالخبيث ولا تقبل به إلا أن تتساهل في خبثه وتتغافل عنها ـ وهذا ليس من كرم الأخلاق وطيب الأعراق. فكذلك يجب أن لا تنفقوا الخبيث أو ما يشوبه شائبة تعكّر صفاء طهره والإخلاص فيه لله . . .

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ واعلموا أن الله غني عن إنفاقكم وإنما يأمركم به

لمنافعكم ومصالحكم وهو الغني المطلق يحمد هذا الإنفاق ويثيب عليه ويؤجِر صاحبه إذا كان على الوجه الذي اشترط وأمر وكما أراد وفصّل ولا يرضى بأي وجه من وجوه الإنفاق إذا شابه شيء من شوائب ما يكدِّره ويمنع قبوله من رياء أو منٍّ أو أذى أو عدم إخلاص لوجه الله الكريم...

قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿يَعِدُكُمُ﴾: الوعد: ما يقطعه الإنسان لآخر أن ينجزه له وغالباً يكون بالخير خلاف الوعيد فإنه يكون بالشر.

﴿ٱلْفَقْرَ﴾: الحاجة، ضد الغنى.

﴿يَأْمُرُكُم﴾: الأمر: هو الطلب من العالي إلى الداني، والأمر من الشيطان: هو إغراؤه للإنسان بالمنكرات ودعوته إليها.

﴿ٱلْفَحْشَآءِ﴾: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال وتطلق على الزنا.

﴿ٱلْمَغْفِرَةُ﴾: الغفران من الله: هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب وأصله من غفر الشيء: إذا ستره.

﴿ٱلْفَضْلَ﴾: الإحسان، كل عطية لا تلزم من يعطي يقال لها: فضل.

التفسير

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ﴾.

هذه الآية لها علاقة بما تقدم، وقد تقدم أنه سبحانه نَدَب إلى الإنفاق من أطيب ما كسب هذا الإنسان وما أخرجه الله له من الأرض وهنا يحذّره الشيطان وينبهه من شعاراته وأوامره وما ينفثه من سمومه ويزرعه من أباطيله. . .

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾. . إنه يأتي لهذا الإنسان يلقي إليه بالوسوسة قائلاً إن أخرجت من مالك تفتقر وتحتاج وينقص رأس المال وبالتالي يذهب مالك على غيرك وربما صدّق الإنسان منه هذه المقولة وانساق معها رغبة منه في المال بدافع من النفس الأمارة بالسوء. .

﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ فإذا كان يعدكم بالفقر. . أي يخوفكم به، فهنا يأمر بالفحشاء ويأمر بالامتناع عن الدفع ويقول للإنسان: لماذا تدفع؟ ولمن تدفع؟ ومن هو المستحق؟ وهل هناك من هو أفضل منك لهذا المال؟ وهكذا تتعدد أساليب الشيطان المؤدية إلى منع هذا الإنسان من الإنفاق ومفادها جميعاً إياك أن تدفع الزكاة وإياك أن تخرج شيئاً من مالك لأهل الحاجة والعوز. وهكذا تتداول أوامره عليك حتى يسيطر وتصبح كلمته النافذة ورأيه المطاع. . . وفي مقابل هذه الدعوة الشيطانية هناك دعوة إلهية تتجسد بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾. هذه كلمة الله الطيبة وأمره المبارك إلى الناس.

﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ إن أنفقتم من أموالكم على الفقراء والمساكين وأهل الحاجة فهو يغفر ذنوبكم ويكفّر عنكم سيئاتكم. . إنها المغفرة من الله لهذا الإنسان. . . المغفرة التي تأتي على الذنوب والخطايا فتمحو أثرها من كتاب هذا الإنسان.

وكذلك هناك الفضل من الله فهو يعوّض عليكم ما أنفقتم من المال وإذا كان الفضل منه وهو المتولي لعطائه فأبشر أيها المنفق بالبدائل المضاعفة أضعافاً كثيرة.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ الله سبحانه يعطي عن سعة، فهو مالك هذا الوجود وكل موجود يعطي من عطائه الخير الكثير وهو عليم بالمنفق فيعوض عليه ويعطيه ولكل منفق عوض ولكل ممسك تلف.

قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾.

اللغة

﴿يُؤْتِي﴾: يعطي.

﴿الْحِكْمَةَ﴾: إصابة الحق بالعلم والعقل: وهي من الله معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات...

﴿يَذَّكَّرُ﴾: يعتبر ويتعظ.

﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾: أصحاب العقول.

التفسير

تعددت الأقوال في المراد بالحكمة حتى أوصلها صاحب مجمع البيان إلى عشرة أقوال. وإذا كانت الحكمة «إصابة الحق» يتضح لنا ما ذهب إليه أهل هذه الأقوال من أنها القرآن والعلم به أو علم الدين أو المعرفة بالله أو غير ذلك مما لا تكون هذه إلا مفردات داخلة تحت العنوان العام وهو إصابة الحق...

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ فالله سبحانه يؤتي الحكمة من يشاء ممن يملك

الطاقة والقدرة والإرادة والعمل فيفيض سبحانه عليه هذه الحكمة ويعطيه هذا الفضل..

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ تمجيد للحكمة وأن من يعطاها فقد أعطي خيراً كثيراً لأنها أم الفضائل والمكارم وبها يكون إصابة الحق وإذا أصاب الإنسان الحق فقد أدرك من الخير أعمّه وأعظمه وأشمله وعلى كل المستويات لأن هذه الحكمة توصل صاحبها إلى خير الدارين وسعادتهما...

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لا يتعظ بآيات الله وما فيها من حكم وأمثال إلا أصحاب العقول الواعية النبيهة التي تحلل هذه الآيات وتستفيد منها ما ينفعها ويسعدها...

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿نَذَرْتُم﴾: من النذر: وهو أن توجب على نفسك ما ليس بواجب لحدوث أمر.

﴿أَنصَارٍ﴾: أعوان.

التفسير

عاد سبحانه ليؤكد أهمية الصدقة في سبيل الله فقال سبحانه:

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ كماً وكيفاً قليلة أو كثيرة في سبيل الله أم في سبيل الباطل مقرونة بالإخلاص أم مقرونة بالرياء سراً وعلانية ما أنفقتم من نفقة.

﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ ما التزمتم بالتزام على أنفسكم من قبل أنفسكم في طاعة أو معصية.. والنذر هو الالتزام بأمر فيه طاعة لله كأن يقول: لله عليّ أن أصلي صلاة الليل أو لله عليّ أن أترك شرب التتن ـ الدخان ـ وكما يكون النذر في طاعة ـ كما تقدّم ـ فقد يكون في معصية، وهو وإن لم يقع شرعاً ولا يصح

ولكنه قد يقوم به بعض العصاة المردة كأن ينذر بعضهم أن يشتم مؤمناً أو يهينه؛ ولذا رتب سبحانه على ذلك قوله تعالى:

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥ﴾ يعلمه كما وقع إن كان في طاعة أو معصية.. لله أم للشيطان... وكذلك ما أنفقتم من نفقة يعلم الله وجهها وحقيقتها وإنها له أو ليس له...

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ﴾ ليس للظالمين من أعوان.. وهم المتجاوزون حدود الشرع المخالفون لأمر الله، ومنهم أولئك الذين ينفقون أموالهم في طرق الضلال والباطل أو يتبعون ما أنفقوا منًا وأذىً أو ينذرون نذورهم في معصية الله وما يخالف أمره، هؤلاء جميعاً ليس لهم أعوان يخلّصونهم من عذاب الله وعقابه...

قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿فَنِعِمَّا﴾: أصلها «نعم ما» أدغمت الميمان فصارت نعما أي نعم الشيء هو.

﴿تُبْدُواْ﴾: تُظهِروا، وبدا الشيء: إذا ظهر وانكشف..

﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾: جمع صدقة: وهي العطية قربة إلى الله.

﴿تُخْفُوهَا﴾: من أخفى الشيء: إذا ستره وكتمه، والخفاء: ضد الظهور.

﴿وَتُؤْتُوهَا﴾: تعطوها، وأتى الشيء: فَعَله، وآتى إليه الشيء: ساقه إليه.

﴿ٱلْفُقَرَآءَ﴾: جمع الفقير: وهو المحتاج، ويطلق على الفقراء أيضاً: المساكين.

﴿وَيُكَفِّرُ﴾: التكفير في اللغة: التغطية والستر، وتكفير السيئات من الله: سترها وعدم العقاب عليها أو الأخذ بها.

﴿سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾: السيئات: هي المعاصي التي تسوء الإنسان وتؤذيه.

﴿خَبِيرٌ﴾: الخبير: هو العالم بدقائق الأمور وبواطنها.

التفسير

﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ إن تظهروا صدقاتكم وتخرجوها علناً فيراها الناس فنعم ما تفعلون، وهو تشريع لجواز الصدقة في العلن وإنها نعمة الصدقة وإن كانت كذلك...

﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ هذه صورة أكمل من الصورة الأولى لإعطاء الصدقات. إنها صورة إعطائها سراً وفي الخفاء بدون جهرٍ ولا إعلان وحسنها وخيريتها لجهة أنها أبعد عن الرياء والنفاق وأقرب للإخلاص وما فيه رضى الله ولما فيه من حفظ كرامة الناس وصون نفوسهم من النظرات الطفيلية التي تحتقرهم لفقرهم وحاجتهم...

﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ بعد بيان فضيلة الصدقة في الخفاء وخيريتها ذكر لها فضيلة أخرى، إنها تزيل بعض السيئات عن هذا الإنسان العاصي وتمحو عنه بعض الخطايا وقد تكون هاتان الخاصيتان من خواص صدقة السر...

وقد يرجع قوله: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ إلى جملة العمل للصدقة في الإبداء والإخفاء ويكون لذلك الفعل الكريم هذا الأثر العظيم...

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وعد ووعيد وتهديد وترغيب، فإذا كان الله خبيراً بأفعالكم مطلع على أعمالكم سواء كانت سراً أم جهراً مع الإخلاص وبدونه فهو يثيب على الإخلاص ويُسقط أجر من فعل نفاقاً ورياءاً فتدبّروا أموركم ولا تخسروا أجوركم...

فوائد

١ ـ إن إبداء الصدقات وإظهارها لا بأس به ولكن يجب على من يخرجها كذلك أن يبقى موصول العرى بالله بأن تبقى نية القربة فيها لله خالصة لا يعكرها

عجب أو رياء أو غير ذلك من المفسدات بل أقول ربما كان إظهار الصدقات والإعلان بها فيه نفع كثير حيث تشجّع الآخرين على البذل والعطاء وإخراج المال لنفع الفقراء والمحتاجين وفي ذلك أجر كبير وثواب عظيم وهو أمر مندوب إليه ومطلوب للشارع المقدس...

٢ ـ إن الأصل في الصدقات أن تكون للفقراء والخروج عنهم وتجاوزهم خلاف هذا الأصل ولذا قال تعالى: ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾ نص صريح في ذلك.

٣ ـ قدّم سبحانه إبداء الصدقات لأنه مقتضى طبع الإنسان وعادته، وأما الإسرار فيها فهو للخواص من عباد الله ولذا جعلها خير لكم...

٤ ـ قوله تعالى ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ﴾ هذا التبعيض يدل على أن بعض السيئات لا تُكفره الصدقات كما هو الحال في حقوق الناس المالية التي بذمة المتصدق فإنها لا تُكفَّر بهذه الصدقات..

الصدقة:

الصدقة إخراج للمال عن ملكية صاحبه وإعطائه للآخر قربة إلى الله وقد رغّب فيها الشارع وحضّ عليها وحث القادرين على القيام بها...

إنها عملية تعكس التعاون بين أعضاء المجتمع وتنطق بروحية عالية يستشعر الإنسان أنه مربوط بأخيه الإنسان ومندفع من خلال هذا الرباط إلى إعانته ومساعدته ومدّ يد العون إليه...

إنها تتجاوز حدودها المادية الضيقة في بعض الأحيان لتدخل إلى نفس هذا الكائن البشري وروحه وعاطفته وأحاسيسه وشعوره فتبرز كل هذه الحالات مترابطة مشتركة تنعكس في اهتمامٍ بهذا الإنسان وإحساسٍ معه في واقعه وما هو فيه...

استحباب الصدقة

هذه الآيات التي تقدمت ـ إلى غيرها مما مر وسيمر ـ كلها تؤكِّد على استحباب هذه العبادة وممارستها والقيام بها، وجاءت السنَّة الشريفة لتؤكد هذه الفريضة وتحثُّ عليها.

١ ـ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله يقول: ما من شيء[١] إلا وقد وكلت به من يقبضه غيري إلا الصدقة فإني أتلقفها[٢] بيدي تلقفاً حتى أن الرجل يتصدق بالتمرة أو بشق تمرة فأربيها له كما يربي الرجل فلوه[٣] وفصيله فيأتي يوم القيامة وهو مثل أُحد[٤] وأعظم من أُحد.

٢ ـ وعن أبي عبد الله عليه السلام[٥] في حديث قال: ليس شيء أثقل على الشيطان من الصدقة على المؤمن وهي تقع في يد الرب تبارك وتعالى قبل أن تقع في يد العبد.

٣ ـ وعن أبي جعفر عليه السلام[٦] قال: إن الله تبارك وتعالى يحب إبراد الكبد العرّى ومن سقى كبداً حرّى من بهيمة وغيرها أظله الله يوم لا ظل إلا ظله.

٤ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: صدقة[٧] السر تطفىء غضب الرب تبارك وتعالى.

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب الزكاة، باب ٧ من أبواب الصدقة، حديث/٧.
(٢) أتلقفها: يقال: تلقَّف الشيء إذا تناوله بسرعة.
(٣) الفلو: ولد الحيوان الذي بلغ أن يُفطم.
(٤) أُحد: جبل قرب المدينة المنورة كانت غزوة أُحد عنده.
(٥) وسائل الشيعة، كتاب الزكاة، باب ١٨ من أبواب الصدقة، حديث/٧.
(٦) وسائل الشيعة، كتاب الزكاة، باب ١٩ من أبواب الصدقة، حديث/٢.
(٧) وسائل الشيعة، كتاب الزكاة، باب ١٣ من أبواب الصدقة، حديث/١.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿هُدَاهُمْ﴾: من الهدى: وهو ضد الضلال.

﴿ابْتِغَاءَ﴾: طلب، وابتغاء وجه الله: أي طلب مرضاته.

﴿يُوَفَّ﴾: من وفى، والوافي: الذي بلغ التمام، وتوفية الشيء: بذله وافياً، واستيفاؤه: تناوله وافياً.

التفسير

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ قيل: إن هذه الآية نزلت فيمن امتنع من المسلمين من النفقة على أقاربه الكافرين، فإن صح النزول فهو وإلا فإنها تُحمل على تصحيح توجهات المسلمين ونواياهم وأن يتحولوا في أعمالهم لوجه الله دون سواه...

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ خطاب للنبي ﷺ ينفي من خلاله أن يكون النبي مكلفاً بحملهم بالقهر على النتيجة المتوخاة ـ ألا وهي إيمانهم ـ لأن النتيجة

ليست تحت قدرة النبي ﷺ وسلطانه ولكن كل ما يجب عليه وما يتحمله أن يدعوهم إلى طاعة الله ويضع بين أيديهم كل ما يقرّبهم إليه من بيان وإرشاد ووعظ وإنذار وتبشير وترهيب وترغيب وغير ذلك مما بعثه الله به وكلفه تبليغه إلى الناس. . .

إن خلوص العمل لله والإخلاص به لوجهه أو تصفيته من الرياء والنفاق وكل الشوائب المضرة بصحته مما يتعلق بهم وهم المكلفون به وليس عليك يا رسول الله! إلا إرشادهم برسم الطريق إليه وبيانه لهم وتحديد معالمه وبيان الثمرات والنتائج المترتبة على الإيمان والهدى وبيان سلبيات الكفر والضلال والعواقب المترتبة على هذا المنهج الكافر المنحرف.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ ولكن الله هو القادر على هدايتهم وإخلاصهم وصحة نواياهم إذا كانوا مؤهلين لذلك وكانت فيهم القابلية التي تكون مصدراً للفيض الإلهي في هدايتهم. . .

والآية فيها تسلية لرسول الله الذي كان يشق عليه عناد قومه وعدم الإخلاص في نواياهم وما يقومون به من أعمال.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ﴾ هذا ترغيب لهم في عمل الخير، فإن من عرف أن عمله الطيب ـ ومنه الصدقة ـ سيعود خيره إليه بدون شك سيبادر إلى الإنفاق من ماله ولا يجد في ذلك غضاضة عليه أو خسارة لأن عوائد ذلك سترجع إليه. .

﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ﴾ هذا إخبار يراد به الأمر وأن ما تنفقونه من الصدقات يجب أن يكون خالصاً لوجه الله وطلباً لمرضاته فلا يجوز أن يدخله الرياء أو النفاق أو المنّ أو الإيذاء. . . أو يكون خيراً بمعنى النهي أي لا تنفقوا إلا لوجه الله وطلب رضاه والمؤدى واحد.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ تأكيد لما تقدم، وأن كل ما تنفقونه من خير ـ ومنه الصدقة بالمال ـ سيعود ربحه إليكم ويرجع ثوابه إلى جنابكم ولزيادة التأكيد على هذا المعنى ذيّله بقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ أي لا ينقص من حقكم شيئاً بل تعطونه كاملاً في وقته ومحله. . .

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿أُحْصِرُوا۟﴾: من الحصر: وهو المنع.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾: لا يقدرون.

﴿ضَرْبًا﴾: الضرب في الأرض: الذهاب فيها والسير في أرجائها.

﴿يَحْسَبُهُمُ﴾: يظنهم.

﴿ٱلْجَاهِلُ﴾: ضد العالم، والجهل: عدم العلم.

﴿أَغْنِيَآءَ﴾: جمع غني: وهو ذو المال الوافر والغنى اليسار.

﴿ٱلتَّعَفُّفِ﴾: من عفّ، والعفة: حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشهوة، والتعفف: المبالغة في ذلك الذي يمسك ولا يسأل.

﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾: من السمة: وهي العلامة، ويقال: سيماء بالمد.

﴿إِلْحَافًا﴾: أي إلحاحاً، ومنه استعير ألحف شاربه: إذا بالغ في تناوله وجزه، وأصله من اللحاف: وهو ما يُتغطى به.

التفسير

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي النفقات التي تقدم ذكرها تصرف على الفقراء، وهم طبقة خاصة عاشت في عهد النبوة كانوا غرباء ضعفاء سكنوا الصُفة وسموا بها، فقيل: أهل «الصُفة» وقد التزم المسلمون القادرون بالتقديم لهم ما يقدرون عليه من مال أو غذاء أو كساء أو غير ذلك، وقد وصفهم الله بخمسة أوصاف تحكي واقعهم وما هم فيه.

١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذين منعوا من الحركة وكسب العيش وتفرغوا للجهاد ودرىء الأخطار أو للعلم والمعرفة والتفقه في الدين..

٢ ـ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا يقدرون على الحركة والسعي وراء الرزق وطلباً له في الأرض لأنهم وقفوا أنفسهم على الجهاد وقتال الأعداء أو طلب العلم والتفقه في الدين وهذا أمر واضح، فمن اشتغل بطلب العلم والفقه وتفرغ لنشر الدعوة فهذا لا يقدر على اكتساب رزقه والتفرغ للتجارة ومشتقاتها التي تدرّ عليه المال والغنى وتُكسبه ما يكفّ به حاجته، وقد دأب مراجع الأمة وفقهاؤها العظام في الالتفات إلى هذه الحالة فأجروا على طلاب العلوم الدينية والمتفرغين للوعظ والإرشاد من الحقوق الشرعية والصدقات ما يكفيهم ويسدّ حاجاتهم ويجعلهم ينشطون فيما توجهوا إليه من تعليم الناس وتفقيههم والقيام بشؤونهم...

٣ ـ ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ والتعفف من صفات هذه الطبقة الفقيرة.. إنها تحمل نفساً أبية ترفض من خلالها أن يظهر فقرها في كلامها.. إنها تتجمل إلى درجة أنها لا تقبل على نفسها إلا إظهار الغنى بحيث من يسمعها يظن غناها ويذهب إلى أنها صاحبة ثروة وفيرة ومال كثير...

وأنا أقسم بالله لقد وجدتُ في حياتي عيّنات كثيرة من هذا القبيل كنت أذهب إلى أنهم أغنياء فيستدينون لقِرَى الضيف وإكرام الزائر وبعض المجاملات

وينتظرون السعي والعمل لوفاء ذلك ولا يقبلون لأنفسهم سمعة الفقر والحاجة. . .

٤ - ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ تعرفهم بعلاماتهم وعلامات هؤلاء الشرفاء إنها لم تظهر في وجوههم نضرة النعيم فهي مميزة عن تلك الوجوه لقلة غذائها وسوء هذا الغذاء وهذا معروف لدى الناس فترى الطبقة المتنعمة منتفخة الوجوه متكرشة البطون تظهر عليها آثار النعمة وأما هؤلاء الفقراء المتعففون فلهم علامات تخالف ذلك وتغايره. . .

٥ - ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي لا يلحّون في السؤال أو يستقصون أصحابه بل يلمّحون ويشيرون، وهذا لا يتنافى مع كونهم من أهل التعفف والكرامة فإن الإشارة والتلميح إلى مطلب مع عدم التصريح فيه لا يخرج صاحبه عن حدود العفة وسلك أهل الكرامة. . .

وهناك رأي آخر في قوله: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ ومفاده: أن ذلك نفي لأصل السؤال، وبالتالي ينتفي الإلحاف التابع له، وقد ذكروا لذلك قرينة من نفس الآية:

وهي أن قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ يتنافى مع السؤال هنا. .

كما أن قوله ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ أيضاً يتنافى مع السؤال فلا بد وأن يكون هناك نفي لأصل السؤال المنفي بالتبع له الإلحاف ومثلوا لذلك بقول القائل «ما رأيت مثله» الذي ينفي أصل الوجود لمثله وليس أن هناك مثله ولكنك لم تره. . . وهذا من أساليب البلاغة العالية والفصاحة الفصيحة. .

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ ترغيب في الإنفاق، وأن كل ما يقدّمه الإنسان من صدقات أو حقوق مالية أو معونات فالله يعلم بها ويعطي الثواب والأجر لكل من سعى بها. . .

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿يُنفِقُونَ﴾: من أنفق المال إذا أخرجه عن ملكه إلى ملك غيره.

﴿سِرًّا﴾: السر: جمعه أسرار ما يكتمه الإنسان في نفسه.

﴿وَعَلَانِيَةً﴾: ضد السر: وهو الجهر بالشيء وإظهاره.

﴿أَجْرُهُمْ﴾: الأجر: هو ثواب العمل دنيوياً كان أم أخروياً.

﴿ٱلْخَوْفِ﴾: الفزع.

﴿ٱلْحُزْنِ﴾: ضد الفرح: وهي حالة من الكآبة تصيب الإنسان فيخشن صدره لذلك.

التفسير

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ نزلت هذه الآية في الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وكان قد تصدّق بأربعة دراهم فأنفق درهماً ليلاً ودرهماً نهاراً ودرهماً سراً ودرهماً علانية وقد ذكرها كثيرون: منهم الواحدي في

أسباب النزول والزمخشري والسيوطي في تفسيريهما وفي الرياض النضرة والصواعق المحرقة وغيرهم...

والآية - وإن نزلت في علي - ولكن المورد لا يخصص الوارد كما قيل، ويكون الإمام هو المصداق الأجلي الذي ضرب الرقم القياسي في هذا المضمار.

وهي في مقام المدح والثناء للذين يقومون بالإنفاق والصدقة في الليل والنهار وفي السر والعلانية أي في جميع الأحوال حسب قدرتهم حتى يصبح ذلك عادة لهم وديدناً دائماً.

وقد جعل الله لهذا الفعل الكريم أجراً عظيماً بقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ومن وقع أجره عند ربه فهو أجر عظيم لا يحصيه إلا هو.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لا يخافون يوم القيامة فهم في أمن وأمان ولا يحزنون على شيء فاتهم لم يدركوه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿يَأْكُلُونَ﴾: يأخذون، وعبّر عن الأخذ بالأكل لأنه الغرض الأساسي منه.

﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾: الربا لغة: هي الزيادة وشرعاً زيادة على رأس المال يأخذها الدائن من المدين أو زيادة عن المماثل في أشياء معينة، وهي معاملة محرمة والمال المأخوذ بها لا يملك.

﴿يَتَخَبَّطُهُ﴾: التخبط: السير على غير استواء أو اعتدال ويوصف به من مسّه الجنون.

﴿ٱلْمَسِّ﴾: الجنون: وأصله اللمس باليد فكأن الشيطان يلمسه فيُجن.

﴿ٱلْبَيْعُ﴾: إعطاء المثمن وأخذ الثمن، وباصطلاح الفقهاء مبادلة مال بمال، والبيع: هو المعاملة الشائعة الدائمة التي يعرفها الناس.

﴿مِثْلَ﴾: المثل: هو الشبيه.

﴿أَحَلَّ﴾: الحلّ: أصله حلّ العقدة وهو فكّها ومنه استعير حل الشيء حلالاً إذا جاز تناوله شرعاً..

﴿حَرَّمَ﴾: ضد أحل وأصله المنع والحرام ممنوع منه.

﴿مَوْعِظَةٌ﴾: اسم من الوعظ، قيل: الزجر مقترن بتخويف وقال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرقّ له القلب.

﴿فَٱنتَهَىٰ﴾: الانتهاء: الانزجار عمّا نُهي عنه، وانتهى: بلغ به النهاية.

﴿مَا سَلَفَ﴾: ما تقدّم.

﴿أَمْرُهُۥٓ﴾: شأنه.

﴿عَادَ﴾: رجع.

﴿يَمْحَقُ﴾: المحق: النقصان، ومنه المحاق لآخر الشهر إذا انمحق الهلال، يقال: محقه إذا نقصه وأذهب بركته.

﴿وَيُرْبِى﴾: ينمي من ربا: إذا زاد وكثر.

﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾: جمع صدقة: وهي العطية قربة إلى الله.

﴿كَفَّارٍ﴾: مبالغة في الكفر، والكفر: هو الستر في اللغة، وفي الشرع: الخروج عن الدين أو عدمه البتة.

﴿أَثِيمٍ﴾: الأثيم: المتمادي في الإثم المصرّ عليه.

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: جمع صالحة: وهي ضد السيئة.

﴿آتوا﴾: أعطوا.

﴿أجرهم﴾: من الأجر: وهو ما يعود من ثواب العمل دنيوياً كان أو أخروياً.

﴿الخوف﴾: توقع مكروه عن إمارة مظنونة أو معلومة.

﴿يحزنون﴾: من الحزن: وهي خشونة في النفس وكآبة وضده الفرح.

﴿اتقوا﴾: من التقوى: وهي التحرز عن المخوف.

﴿وذروا﴾: اتركوا.

﴿بقي﴾: البقاء: ثبات الشيء على حاله الأولى.

﴿فأذنوا﴾: فاعلموا من أذن بالشيء: أي علم به.

﴿بحرب﴾: الحرب: هو القتال.

﴿تبتم﴾: من تاب: إذا رجع.

﴿رؤوس أموالكم﴾: أصولها.

التفسير

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾.

بعد أن تحدث سبحانه وتعالى عن الصدقة وحثّ عليها وبيّن منافعها أشار هنا إلى الربا وحرمته ومنع من تداوله، والمناسبة بينهما أن الصدقة إخراج للمال وإيثار بها على الغير لوجه الله، بينما الربا استئثار بالمال وجمع له ومعصية لأمر الله.. ففي الأول إخراج للمال ونفع لعباد الله، وفي الربا جمع للمال وسلب له وبينهما من التضاد والمخالفة ما بينهما...

﴿الربا﴾ من أشهر المحرمات في الشريعة، وهو عبارة عن أخذ الزيادة في معاملة أو قرض ويعبّر عن الأول بربا المعاملة وعن الثاني بربا القرض..

ربا المعاملة

ربا المعاملة يكون في بيع أحد المثلين بالآخر مع زيادة عينية أو حكمية في أحدهما.

مثال الأول: بيع مائة كيلو من القمح بمائة وعشرة كيلوات.

ومثال الثاني: بيع مائة كيلو من الحنطة بمائة كيلو حنطة إلى شهر...

ومن الفقهاء من أجرى الربا في البيع وعمّم ذلك إلى كل معاوضة تكون بين العينين الربويتين سواء اتخذت عقد البيع أو الصلح أو الهبة المعوضة أو غير ذلك...

متى تتحقق المعاملة الربوية

تتحقق المعاملة الربوية بشرطين:

١ ـ اتحاد الجنس والذات عرفاً، فالحنطة كلها جنس واحد على اختلاف أنواعها فتجري المعاملة الربوية فيها إذا بيعت بمثلها مع الزيادة وكذلك التمر كله جنس واحد.

٢ ـ أن يكون كل من العوضين من المكيل أو الموزون فلا تجري المعاملة الربوية في المعدود.

ربا القرض

وهذا الربا هو الشائع بين الناس ويكاد لا يفهم الناس عند إطلاق الربا إلا هذا المعنى، فالمصارف ورجال الأعمال وأصحاب المؤسسات كلهم يتعاملون بهذا النوع من التعامل الربوي...

يحتاجون إليه، فحرم الله الربا لتنفر الناس من الحرام إلى الحلال وإلى التجارات من البيع والشراء فيبقى ذلك بينهم في القرض...

٣ ـ في الربا أكل لأموال الناس بالباطل.

في الحديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام[1] «وعلة تحريم الربا لما نهى الله عز وجلّ عنه ولما فيه من فساد الأموال لأن الإنسان إذا اشترى الدرهم بالدرهمين كان ثمن الدرهم درهماً وثمن الآخر باطلاً فبيع الربا وشراؤه وكس ـ بكل حال ـ على المشتري وعلى البائع فحرم الله عز وجل على العباد الربا لعلة فساد الأموال..».

ونعود إلى تفسير الآيات الكريمة.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا﴾ أي يتعاملون به ويأخذونه، وعبّر سبحانه بالأكل لأنه المقصود من وراء هذا التعامل ومن أجل هذا البطن كانت حركة هذا الإنسان في هذه المعاملة وغيرها من التجارات والصناعات...

﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ﴾ هذا مشهد من مشاهد القيامة يوم يبعث الله الخلق للحساب حيث يقوم أكلة الربا والمتعاملون فيه كما يقوم من مسّه الشيطان فهو يتخبط على غير هدى وليس هذا العقاب بمستبعد حيث إن العقوبات تكون بحسب المعاصي ولكل معصية أثرها الخاص بها فيكون الصرع عقوبة إلهية لهذا المرابي والذي مسّه الشيطان هو المجنون الذي يترنّح في مشيته ولا يستقيم فيها أو يتوازن، فمن أكل الربا يفقد قواه العقلية والعضوية ويختل توازنه، وهذه الصورة البشعة تكشف أكلة الربا وتعرّفهم لأهل المحشر في الآخرة.

ولي في هذا المقام رأي قد يكون مخالفاً لأرباب التفسير ومفاده: إذا حملنا العقوبة على العقوبة في الدنيا فمعنى مسّ الشيطان للإنسان ليس بمعنى الصرع له

---

(١) وسائل الشيعة، باب ١ من أبواب الربا، حديث/١١.

وجعل الخلل في حركته.. بل بمعنى أن الإنسان الذي يغريه الشيطان بالمعصية يتحول إلى غير الهدى والحق ويضطرب في فكره وتتشوش عليه المفاهيم والصور فيتم الخلط عنده بين الصحيح والسقيم ولا يعود يميّز بين الحق والباطل ومن اتخذ غير طريق الله ابتلي بالاضطراب والخلل ولم يستقم في تفكيره ورأيه وبالتالي في حركته التي هي نتاج هذا الفكر وذلك التصور.

ولما كان المرابي يخالف أمراً شرعياً وحكماً محرماً قطعياً فهو كهذا المتبع للشيطان البعيد عن خط الله بل هو فرد من ذاك ومصداق من مصاديقه..

ويؤيد هذا المعنى بل يؤكده تعليل استحلال المرابيين للربى بقولهم:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾.

ذلك التخبط الذي يصيبهم والذي هو عقاب لهم إنما كان لقولهم إنما البيع مثل الربا، فقد ساووا بينهما وجعلوا البيع أصلاً جائزاً وألحقوه بالربا في الجواز...

فكما يجوز البيع والربح فيه يجوز الربا للربح نفسه فيه، فكما يجوز لمن اشترى ثوباً بخمسة دراهم أن يبيعه بعشرة ويجوز لمن عنده صاعاً من حنطة أن يبيعه بصاعين معجلاً أو بصاعين إلى أجل مسمى..

وتقديم البيع وجعله مشبهاً بالربا إنما هو لمجرد المماثلة بينهما وإذا كان الأمر كذلك جاز تقديم أيهما شاء...

ويمكن أن يكون تقديم البيع وتشبيهه بالربا نوع من أنواع التخبط الفكري الذي زرعه الشيطان في رأس هذا المرابي ولذا تحوّل الربا إلى أصل في الجواز ثم الحق المرابي به البيع وجعله مثله..

وردَّ الله على هؤلاء الأجلاف أصحاب القياس الباطل بقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾.

وهذا عام في حليّة البيع، واستدل الفقهاء بهذا العموم على صحة البيع

وهذه المعاملة تتمثل في كل قرض جرّ نفعاً كمن يقرضك عشر ليرات ويشترط عليك أن ترد إحدى عشرة ليرة أو أن تفضي له العمل الفلاني معها. . .

وللفقهاء تفاصيل كثيرة وفروع مختلفة قد أجادوا فيها وأبدعوا ودخلوا إلى عمق الفروع فاستخرجوا الموارد الربوية وعيّنوها وجاءوا بأبدع ما يكون التشريع في هذا الحقل المخيف جزاهم الله عنا وعن الإسلام خيراً. . .

تحريم الربا

أجمع المسلمون قاطبة على تحريم الربا ولم تشذّ فتوى في هذا الموضوع، فالعنوان العام حرمة الربا وهو من المجمع عليه، نعم قد يختلفون في بعض الجزئيات تبعاً لاختلاف بعض النصوص ولكن هذا لا يضر في تحريم الربا كعنوان عام. . .

وقد جعلته السنّة الشريفة من المحرمات العظيمة والكبائر التي يستوجب آكلها النار وعدّته أعظم عند الله من الزنا بذات المحرم تغليظاً لحرمته وتشديداً للمنع من تداوله.

في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال[1]: «درهم ربا عند الله أشد من سبعين زنية كلها بذات محرم».

وعن أبي جعفر عليه السلام: أخبث المكاسب كسب الزنا.

أما الكتاب العزيز فاضرب بطرفك إلى آيات الربا فستجد ما يذهل، ويكفي أن الله اتخذ الحرب ضد المرابي بصراحة وقوة لا يكاد يعادلها موقع آخر. . ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

(١) وسائل الشيعة، كتاب التجارة، باب ١ من أبواب الربا، حديث/١ ـ ٢.

علة تحريم الربا

هناك علل للأحكام يعلمها الله وحده وما يمكن أن يصل إليه العقل البشري منها هو جزء من كلّ وقد تكون صائبة وقد تكون خاطئة وعلى كل حال نحن نعتقد أن الله لا يحرّم إلا لعلة ولا يحلّل إلا لعلة قد نقف عليها أو على بعضها وقد تبقى مجهولة لدينا..

ومن العلل التي يمكن أن تكون أسباباً لتحريم الربا هي باختصار...

١ ـ إن الله يحب إعانة الإنسان ومساعدته ومدّ يد العون إليه ولذا شرّع القرض الذي هو عملية مساعدة مؤقتة حتى يخرج المضطر من حالته الاضطرارية كما شرّع الصدقة والمعونة، فأمّا الربا فهو امتصاص لدم الفقير وإجهاز عليه بل وقضاء مبرم على وجوده.

في القرض تعاطف وفي الصدقة نفس طيبة كريمة تشعر بحاجة هذا الإنسان وضرورة مساعدته، بينما في الربا يكون البلاء والضغط وتشح النفس وتمتنع عن الخير وهذا ما صرّحت به بعض الأحاديث.

في الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنما حرم[1] الله الربا لكيلا يمتنع الناس من اصطناع المعروف..

وفي الحديث عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنما حرّم الله عز وجل الربا لئلا يذهب بالمعروف.

٢ ـ إن في الربا تعطيل للطاقات البشرية وللمنافسة فيما بينهم ويؤدي بالتالي إلى تعطيل الحركة وانتظار الربح بدون تعب وهذا ما صرّح به الحديث.

عن أبي عبد الله عليه السلام: أنه لو كان الربا حلالاً لترك الناس التجارات وما

(١) وسائل الشيعة، كتاب التجارة، باب ١ من أبواب الربا، حديث/ ٤ ـ ٨ ـ ١٠.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ خطاب إلى المؤمنين لانتفاعهم بخطابات الله وخاطبهم سبحانه بأحب شيء لديه وهو الإيمان لأن به التفاضل وعلى أساسه يكون الثواب والعقاب...

﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تحصنوا من عذاب الله وعقابه بطاعته والتزام أمره واتركوا ما بقي لكم من الربا على الناس وفي ذممهم إن كنتم صادقين في إيمانكم الذي تدّعون...

إن صدق الإيمان في هذا الموقف مرهون بترك ما لكم من الربا على الناس وكأن التحريم للربا نزل وللمسلمين بقايا من الربا في ذمم الناس فالله أمرهم هنا أن يتركوا ما تبقّى لهم منه ولا يأخذوه ليصدقوا في إيمانهم..

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾ إن لم تتركوا التعامل بالربا ولم تتركوا ما بقي لكم منه.

﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي خذوا العلم بأن الله ورسوله محاربان لكم ومن حاربه الله ورسوله خسر المعركة لا محالة.. وهذا تهديد لهم وتشديد لكي يرتدعوا ويرجعوا عمّا هم عليه من أكل الربا...

وهذه الآية ترتجف منها الفرائص وتهتز من هولها القلوب.. حيث تُصوّر الله ورسوله في جبهة مواجهة لمن يأكل الربا وقد أعلنا الحرب وخاضاها معاً في مواجهة هذا الإنسان المتمرد المنحرف، ولم نجد آية أخرى من الآيات بهذا المستوى من الخطاب التهديدي المرعب المخيف الذي يحمله لحن هذه الآية ومدلولها.

﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ عن أكل الربا ورجعتم إلى الله في هذا الأمر فحرّمتموه على أنفسكم.

﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ أصل أموالكم التي دفعتموها إلى المستدينين فهي لكم تسترجعونها فحسب دون زيادة أو نقيصة..

﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ لا يجري منكم الظلم على المستدين بأخذ الزيادة

الربوية منه كما أنكم لا تُظلمون ولا يجري عليكم الظلم بنقص رؤوس أموالكم والمماطلة بها من قبل المستدين..

فقانون العدل والإنصاف أن تسترجعوا رؤوس أموالكم كما هي بدون زيادة أو نقيصة...

فوائد

١ ـ الإذن في قوله تعالى: فأذنوا بحرب كالعلم وزناً ومعنى ولتضمنه معنى اليقين عدي بالباء، وقيل: من الإيذان بمعنى الإعلام...

٢ ـ التنكير في قوله (بحربٍ) للتعظيم لعظم المعصية وكبرها.

٣ ـ ربط سبحانه بين الإيمان وترك الربا، فمن لم يترك الربا فقد تخلى عن الإيمان وبموجب هذه النتيجة كان إعلان الحرب عليه من الله ورسوله.

بأنواعه من المرابحة والمواضعة والتولية والمساومة وجميع المبيعات إلا ما استثني. . .

أحلّ الله البيع لما فيه من المنافع بمبادلة المال بالمال وقضاء حاجات الناس وسدّ متطلباتهم، وفي البيع يقع الثمن في مقابل كلّ المثمن بينما في الربا يقع الثمن في مقابل مثله وزيادة. . .

والبيع يحرّك السوق فيأخذ الإنسان ويعطي ويتبادل الأمر خسارة وربحاً أما في الربا فالربح دائماً للمرابي. . .

يضاف إلى أن البيع فيه حركة ونشاط وتواصل ومعونة بينما الربا فيه خمول وكسل وكسب للمال بدون حركة وفيه قطع للصلات الطيبة والرحم الإنسانية وما فيه معونة لهذا الإنسان بل في الربا امتصاص لدماء المستدين وسلب لماله لأن من يستدين يستدين لحاجته وفاقته فتأتي الزيادة عليه لتمتص دمه وتركه بدون حراك. . .

فلا مساواة بين البيع والربا، ولذا أحل الله البيع وأباح معاملته وحرم الربا ومنع منه لمضاره وآثاره السيئة. . .

﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

فمن وصلته المواعظ الزاجرة له عن تناول الربا وهي الآيات التي تحرّمه وتحذّر منه فانتهى وتوقف ولم يتابع أكله له فله ما تقدم زمن الجهل بالتحريم أو زمن جاهليته التي كانت تبيحه له وأمره إلى الله فهو الذي يعفو عنه إن أحسن في توبته وصدق فيها. . .

ثم لا يخفى أن التذكير في قوله: «جاءه» مع أن حقها التأنيث ـ جاءته ـ فلأن تأنيث الموعظة ليس تأنيثاً حقيقياً وأيضاً هي هنا بمعنى الوعظ. . .

﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

من عاد إلى أكل الربا واستحلاله بعدما جاءته الموعظة ووصلته الآيات المانعة

والمحرمة له فأولئك المستحلون هم أهل النار الملازمون لها الباقون فيها الذين لا يخرجون منها أبداً. . .

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا﴾ يُذهب بركته وخيره ويعاقب المتعامل فيه وتأتي نتائج الربا عكس ما يتطلّع إليه المرابي الذي يريد الزيادة من وراء هذه المعاملة المحرمة.

﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ﴾ ينمّيها ويزيد في بركتها ويثيب من أخرجها وهذا عكس ما يتصوره المرابون وأصحاب الباطل حيث يرون ظاهراً نقصان المال بالصدقات. . .

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ والله لا يقبل أو يرضى بكل كثير الكفر وكثير الإثم والمعصية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسله وكتبه ودينه وشرائعه.

﴿وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ﴾ أقاموا الأعمال الصالحة من الصدقة والبر والإحسان والصلاة والصوم والحج والزكاة ومساعدة الفقراء وإعانة الضعفاء ورفع الظلم ودفع الباطل وإحقاق الحق وإزهاق الباطل. . .

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ نصّ سبحانه عليها لأهميتها ـ وإقامتها: هي المداومة عليها في أوقاتها مع اجتماع أجزائها وشروطها ودفع موانعها ومبطلاتها ـ. .

﴿وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ﴾ أخرجوها من أموالهم وأعطوها أهلها من الفقراء والمساكين وغيرهم، وقد خصّها بالذكر كما خص الصلاة لأنها أختها في الأهمية والاقتران. . .

والزكاة عبادة مالية يشترط في صحتها نية القربة والإخلاص فيها لله.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لهم ثوابهم المعدّ لهم عند الله في جنته. . إيمان مع عمل صالح مع صلاة وزكاة تكون نتيجتها أجر عظيم كبير محفوظ عند الله لا يضيع ولا ينقص بل يعطى لأصحابه بدون تأخير.

﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فهم في أمان من النار لا تمسهم ولا تقترب منهم كما لا تعتريهم كآبة على ما مضى وفات أو لا يلاقون ما يحزنون منه أو عليه. . .

في الحديث الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام قال[1]: لا تباع الدار ولا الجارية في الدين ذلك أنه لا بد للرجل من ظل يسكنه وخادم يخدمه.

وفي الحديث: أن محمد بن أبي عمير رضي الله عنه[2] كان رجلاً بزازاً فذهب ماله وافتقر وكان له على رجل عشرة آلاف درهم فباع داراً له كان يسكنها بعشرة آلاف درهم وحمل المال إلى بابه فخرج إليه محمد بن أبي عمير فقال: ما هذا؟

فقال: هذا مالك الذي لك عليّ.

قال: ورثته؟

قال: لا.

قال: وُهِبَ لك؟

قال: لا.

فقال: هو من ثمن ضيعة بعتها؟

فقال: لا.

فقال: ما هو؟

فقال: بعتُ داري التي أسكنها لأقضي ديني.

فقال: محمد بن أبي عمير: حدثني ذريح المحاربي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا يخرج الرجل من مسقط رأسه بالدين، ارفعها! فلا حاجة لي فيها وإني محتاج في وقتي هذا إلى درهم واحد..

(١) وسائل الشيعة، كتاب التجارة، باب ١١ من أبواب القرض والدين، حديث ١ و٥.
(٢) نفس المصدر

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾.

اللغة

﴿تُرْجَعُونَ﴾: تعودون..

﴿تُوَفَّى﴾: من وفى والوافى الذي بلغ التمام، وتوفية الشيء: بذله وافياً، واستيفاؤه: تناوله وافياً كاملاً.

﴿نَفْسٍ﴾: نفس الإنسان: ذاته.

﴿مَا كَسَبَتْ﴾: ما عملتم، وكسب مالاً: إذا طلبه وربحه.

التفسير

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾.

ادفعوا شرَّ ذلك اليوم الذي ترجعون فيه إلى الله وهو يوم الحساب أو يوم الموت وتأهبوا له بما تحفظون به أنفسكم من العذاب.

﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي تعطى كل نفس ما عملت إن خيراً فخير وإن شراً فشر، جزاءً وفاقاً لا يبخس منه شيء بنقص أو تصغير أو تأخير.

قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿عُسْرَةٍ﴾: العسرة: تعسر وجود المال، الفقر والحاجة وهو ضد اليسر.

﴿فَنَظِرَةٌ﴾: من النظر: وهو الانتظار والتأخير.

﴿مَيْسَرَةٍ﴾: يسار: وهو الغنى.

التفسير

وهذه سماحة الإسلام وعظمة تعاليمه تتجسد في هذه الآية الكريمة.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ إن كان المستدين معسراً لا يقدر على وفاء ما استدانه فعلى رب المال أن ينتظر به إلى وقت اليسر والغنى فلا يضايقه في المطالبة ولا يلحّ عليه في الاستقضاء...

إذا وُجد مثل هذا الفقير العاجز فعلى صاحب المال الانتظار إلى وقت غناه وقدرته على الوفاء...

ثم إنه سبحانه ارتقى إلى أعلى درجات التسامح وحبّب إلى أرباب المال أن

يتصدقوا بهذا المال على المستدينين الفقراء ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟﴾ تتصدقوا بهذا المال على المستدينين فهو ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لأن أجره وثوابه عظيم... إن كنتم تعلمون ثواب الصدقة وأجرها وما أعدّه الله للمتصدقين فتصدقوا عليهم به...

فوائد

١ ـ أفتى الفقهاء بعدم جواز مطالبة المعسر بل أوجبوا الانتظار إلى اليسار وهذا هو المفهوم من الآية الكريمة ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾.

وفي الحديث الشريف ما يدل على ذلك.

عن إسحاق بن عمار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام:[(١)] ما للرجل أن يبلغ من غريمه؟

قال: لا يبلغ به شيئاً الله أنظره.

٢ ـ يستحب لرب المال أن ينظر المستدين وبه وردت الروايات عن معاوية بن عمار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله[(٢)]: من أراد أن يظله الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله فلينظر معسراً أو ليدع له من حقه...

٣ ـ المعسر هو من لم يكن عنده فضل عمّا يحتاج إليه بحسب شأنه فلا تباع داره التي يسكنها إذا لم تكن كبيرة بحيث تكون أكبر من شأنيته وما يليق به وبمقامه وكذا لا تباع ثياب تجمّله ولا خادمه إذا كان بحاجة إليهما وبهذا وردت الأخبار الكثيرة...

(١) وسائل الشيعة، كتاب الدين والقرض، باب ٢٥، حديث ٤ ـ ٦.
(٢) نفس المصدر.

﴿تَضِلَّ﴾: أي تنسى، والضلال عن الشهادة بنسيان جزء منها.

﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾: مثنى إحدى ومذكره أحد: وهو الواحد أول الأعداد.

﴿فَتُذَكِّرَ﴾: من الذكر: الذي هو ضد النسيان.

﴿الْأُخْرَىٰ﴾: مؤنث الآخر بمعنى غير.

﴿دُعُوا﴾: سئلوا وطلب منهم.

﴿تَسْـَٔمُوٓا﴾: السأم والسآمة: الملل والضجر.

﴿أَقْسَطُ﴾: القسط: بكسر القاف العدل وبفتح القاف الجور.

﴿أَقْوَمُ﴾: أبلغ في الاستقامة التي هي ضد الاعوجاج، وتقويم الشيء: تثقيفه، اقوم: أوفى.

﴿أَدْنَىٰٓ﴾: أقرب.

﴿تَرْتَابُوٓا﴾: من الريب: وهو الشك في الشيء.

﴿تِجَـٰرَةً﴾: التجارة: التصرف في رأس المال طلباً للربح.

﴿حَاضِرَةً﴾: من حضر: إذا وُجد، ضد غاب، وتجارة حاضرة: أي نقداً.

﴿تُدِيرُونَهَا﴾: تتداولونها وتتعاطونها من غير تأجيل.

﴿لَا جُنَاحَ﴾: لا إثم.

﴿تَبَايَعْتُمْ﴾: باع بعضكم بعضاً: أي جرى بينكم البيع، والبيع: إعطاء لمثمن وأخذ الثمن.

﴿وَلَا يُضَآرَّ﴾: من الضرر الذي هو ضد النفع.

﴿فُسُوقٌ﴾: من فسق فلان إذا خرج عن دائرة الشرع وارتكب الحرام من قولهم فسق الرطب إذا خرج عن قشره.

التفسير

هذه الآية إرشاد إلى حفظ الحقوق المالية التي يمكن أن تتعرض للجحود والإنكار وبالتالي للتلف والضياع. .

وهي أطول الآيات القرآنية. . .

إنها تنظم العلاقة المالية بين الناس وتحفظ الحقوق وترفع الخلاف.

وفي الآية أحكام وفوائد نذكرها في طيات الحديث. . .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾.

١ ـ أباحت هذه الآية الاستدانة وشرّعتها وقد استدان النبي والأئمة والصحابة.

ـ ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ يدل على أن كل معاملة تأخر فيها أحد العوضين ينبغي أن يترتب الحكم الآتي ـ وهو الكتابة والشهادة وغير ذلك عليها.

وقوله: ﴿بِدَيْنٍ﴾ أما تأكيداً أو لنفي أن يكون مجازاة.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ إلى وقت معين مضبوط فاكتبوه ودوّنوه لئلا يجحد.

٢ ـ نستفيد إباحة التأجيل في الدّين من قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾.

٣ ـ نستفيد كون الأجل مضبوطاً معيناً بالشهر أو السنة أو غيرها من قوله: ﴿مُّسَمًّى﴾.

٤ ـ الأمر بالكتابة ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ لئلا يذهب المال بعوارض الجحود والنسيان والموت.

وهذا الأمر يُحمل على الاستحباب كما فهمه المسلمون وعملوا به طيلة عهودهم وفي كل عصورهم.

﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢)﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿تَدَايَنتُم﴾: استدان بعضكم من بعض أو تبايعوا بالدَّين، والدَّين: القرض المؤجل...

﴿بِدَيْنٍ﴾: القرض المؤجل.

﴿الْأَجَلِ﴾: المدة المضروبة للشيء.

﴿مُّسَمًّى﴾: المعلوم، المعين.

﴿فَاكْتُبُوهُ﴾: دونوه وسجلوه من الكتابة وهي في الأصل ضم الحروف بعضها إلى بعض.

﴿بِالْعَدْلِ﴾: المساواة.

﴿يَأْبَ﴾: يمتنع.

﴿يُمِلِّ﴾: من أملّ إملالاً وأملى إملاء الكتاب على الكتاب: إذا ألقاه عليه فكتبه عنه.

﴿وَلْيَتَّقِ﴾: من التقوى: وهي الاحتراز من المضار.

﴿يَبْخَسْ﴾: البخس: نقص الشيء على سبيل الظلم.

﴿سَفِيهًا﴾: السفه: خفة في البدن واستعمل في خفة النفس لنقصان العقل، والسفيه: غير الرشيد، المبذر، المسرف.

﴿ضَعِيفًا﴾: الضعف: خلاف القوة والمقصود هنا الضعف بالعقل أي يكون ناقصاً نقصاً عقلياً وفي الرأي.

﴿يَسْتَطِيعُ﴾: يقدر، ما يصير به الفعل متأتياً.

﴿وَلِيُّهُ﴾: الولي: ا:لقائم بشأن الآخر والمدبّر لأموره.

﴿وَاسْتَشْهِدُوا﴾: من شهد، والشهود والشهادة: الحضور مع المشاهدة إما بالبصر أو البصيرة.

﴿شَهِيدَيْنِ﴾: مثنى شهيد.

﴿رِّجَالِكُمْ﴾: جمع رجل: وهو الذكر المقابل للأنثى.

﴿وَامْرَأَتَانِ﴾: مثنى امرأة: وهي الأنثى ويقابلها الرجل.

﴿تَرْضَوْنَ﴾: تختارونه وتقنعون به.

٥ ـ وضعت الآية للمتعاقدين شخصاً محايداً يحرّر لهما ما يتفقان عليه لا يكون لأحدهما دون الآخر، ولذا أمرت الآية أن يكون هناك كاتب يتولى أمر الكتابة ويذكر بنود الاتفاق، واشترطت في هذا الكاتب أن يكون عدلاً حتى يُؤمن منه الخلل المتعمد فلا يزيد أو ينقص أو يفعل خلاف ما تراضى عليه الطرفان، ومن هنا يجب أن يكون على معرفة بالأحكام الشرعية ودقائق المعاملات المالية. . .

٦ ـ والآية تنهى الكاتب أن يرفض الكتابة فيما لو دُعي إليها.

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾ أي لا يرفض دعوتهما إلى الكتابة وإذا كتب يجب أن يكتب كما علمه الله بالحق والعدل وبما يكون سائغاً وجائزاً.

والآية وإن كانت بصيغة النهي ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾ تفيد الوجوب على الكاتب فيما لو دعي إلى ذلك.

والجمع بين الأمر بالكتابة والنهي عن عدمها للحث والتأكيد عليها لأن الكتبة على عهد النبي كانوا قلة.

وحمل بعضهم الأمر بالكتابة على الإرشاد وإن من لم يفعل ذلك يقع في الضرر فيكون الأمر للندب والاستحباب. . .

وذهب بعضهم إلى وجوب الكتابة عيناً على الكاتب إذا انحصرت فيه، وبعضهم حمل الوجوب على الوجوب الكفائي. . .

﴿فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾.

٧ ـ بيّنت هذه الفقرة من الآية أن المستدين هو الذي يجب أن يفصّل للكاتب بنود العقد ويوضّح له العلاقة بين الطرفين وقيمة العقد ووقته وقدره وغير ذلك من التفاصيل وتكليف المستدين بذلك لأنه هو المتحمل للمسؤولية المكلف بأداء الدين والمشهود عليه بهذا الحق فيجب أن يكون ذلك بإقراره وكلامه. . .

والآية أمرت هذا المستدين الذي يملي تفاصيل الاتفاق أن يكون متقياً لله فيما يملي فلا يزيد ولا ينقص بل يراعي الحقوق التي له والواجبات التي عليه وهذا

الأمر بالتقوى وعدم البخس إذ لعل صاحب الحق مغفّلاً أو أمياً أو لا علم له بكتابة العقود وما يمكن أن يدخل فيها فيغيّر معناها، فلو لم يوصِ الله المستدين بالورع والتقوى قد يلحق الضرر والأذى بصاحب الحق. . .

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾.

٨ ـ قلنا سابقاً إن من كان عليه الحق فله الإملاء للوثيقة بالعدل والتقوى، فإذا عجز هذا أو لم يقدر أو لا يتأتى منه العقد الصحيح بأن كان. .

﴿سَفِيهًا﴾ يصرف أمواله في غير الأغراض الصحيحة أو ينخدع بما لا ينخدع به غيره عادة.

﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ بأن كان خفيف العقل إمّا لصغر أو لكبر أو لعارض ما.

﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ﴾ وهو الأخرس والأبكم ومن به آفة تمنعه من النطق والكلام.

أقول: من لم يستطع من هؤلاء الثلاثة أن يملل وثيقة العقد بينه وبين المستدين فعلى ولي هؤلاء أن يتولى عنهم إجراء العقد وليملل هو بنفسه عنهم بالعدل بدون ظلم لهم أو للطرف المستدين. . .

ومن هذه الفقرة يمكن أن نستفيد صحة الولاية على هؤلاء. . .

والولاية كما عينتها الشريعة للأب والجد للأب والوصي وحاكم الشرع فلهؤلاء أن يوقعوا المعاملات عنهم ويستدينوا لهم وتتعلق الديون بذمتهم ولا تصح مباشرتهم لها.

كما يجب على الأولياء مراعاة مصالح هؤلاء لقوله تعالى:

﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ في الإملاء فكيف في المعاملة؟

وهناك فروع أخرى يمكن استفادتها كالترجمة عن الأخرس والأبكم وصحة الشهادة عليهما وغير ذلك مما هو خارج عن المقام. .

٩ ـ ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ وهذا من تمامية العقد ولثبوته أيضاً كي يأخذ الطابع الشرعي القاطع فيجب أن يشهد عليه شاهدان والسين في. .

﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ﴾ للطلب أي اطلبوا شاهدين، وهذا أيضاً للاستحباب والإرشاد وأن من أراد أن يحفظ ماله فعليه أن يُشهد شاهدين على عقده، فثبوت هذا العقد يتوقف على شاهدين فلا يكفي الواحد. وأيضاً أن يكونا من الرجال. . فلا تكفي شهادة النساء وأن يكونا بالغين بمقتضى صيغة الرجال وأن يكونا مسلمين بمقتضى ﴿رِّجَالِكُمْ﴾.

وفي الحديث قال أبو عبد الله عليه السلام[1]: أربعة لا تستجاب لهم دعوة: أحدهم رجل كان له مال فأدانه بغير بيّنة.

يقول الله عز وجلّ: ألم آمرك بالشهادة.

١٠ ـ ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾.

فإن لم يكن الشاهدان رجلان فتكفي شهادة رجل وامرأتين والمعنى. . إذا لم تريدوا أن يشهد الرجال مستقلون فليشهد رجل وامرأتان، وهذا حكم بنفاذ شهادة المرأة مع أختها ورجل لإثبات الحقوق المالية. . .

﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ ممن تقبلون شهادتهم ويكونون مرضيين عندكم في الدين والسلوك، وهذا إشارة إلى اشتراط وثاقة الشهداء وأمانتهم، وهي العدالة في منظور المتشرعة لأن الفاسق غير مرضي عندنا.

﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾.

كأن هنا سؤال مفاده: لماذا جعلت المرأتين في الشهادة مقام رجل واحد؟

قيل: مخافة أن تضل إحداهما أي تنسى الواقعة أو بعض الخصوصيات فتقوم

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب التجارة، باب ١٠ من أبواب الدين والقرض، حديث ١.

الأخرى بتذكيرها فيها وذلك لأن المرأة كثيرة الأشغال مشغولة البال عاطفية المزاج تتأثر بسرعة فإذا اعتراها بعض ذلك تقوم صاحبتها في الشهادة فتردُّها إلى الحقيقة. . .

١١ - ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾.

لا يمتنع الشهداء إذا ما دعوا إلى تحملُ الشهادة أن يتحملوها. . وهذا نهي يراد به أن عليهم أن يتحملوا الشهادة إذا دعوا ليشهدوا على وثيقة العقد، وقد ذهب بعضهم بمقتضى النهي أن الشهادة واجبة على من دُعي إليها وهذا حق إذا انحصر فيه لأن هذه الأمور من الواجبات الكفائية وتتعيّن بأشخاص إذا لم يوجد غيرهم. . .

١٢ - ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ أي لا تملوا وتضجروا من كتابة الدَّين مهما كان صغيراً أو كبيراً فطالما أنه حق فيستحق الكتابة وتعين الوقت المحدد. . .

هذا تأكيد على حفظ الحق لئلا يقع الخلاف بين المتعاملين.

وذكر سبحانه ثلاثة أسباب لرجحان الكتابة والإشهاد عليها.

أ - ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي أعدل عند الله، فإن في الكتابة تأخذ العدالة مجراها فلا يُظلم أحد ولا يعتدي طرف على طرف لأن تنظيم العقود يمنع ذلك.

ب - ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ أي أثبت للشهادة من حيث تكون عوناً للشاهد عندما تُقرأ عليه يتذكرها ويتذكر ما في ذهنه وخصوصاً إذا طالت المدة وامتد الزمن، فالذاكرة قد تخون الإنسان بينما الكتابة ثابتة. . .

ج - ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾ أقرب إلى أن لا تشكوا في بعضكم ويؤدي ذلك إلى سوء الظن أو الخلل المؤدي إلى النزاع.

١٣ - ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾.

استثنى سبحانه من استحباب كتابة العقد ما لو كانت المعاملة يداً بيد، فليس هناك دين ولا أجل، بل تجارة جاهزة ومعاملة ناجزة وتسلّم وتسليم بدون تأخير فلا حرج في عدم الكتابة لأن طرف قد وصله حقه فلا يُتوقع فيه شك في المستقبل. . .

١٤ ـ ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ هذا أمر يراد به استحباب الإشهاد على مطلق البيع وفيه إرشاد إلى رفع الخلاف والنزاع من حيث أن الشهود يفصلون في كل خلاف عند أداء شهادتهم وإن لم يكن هناك كتابة ومواثيق. . .

١٥ ـ ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ أي لا يُلحق الضرر بالكاتب والشاهد بسبب هذا الواجب كأن يكلفا قطع مسافة طويلة أو دفع ثمن أجرة المجيء أو ثمن الأوراق والأدوات أو غير ذلك.

١٦ ـ ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ أن تلحقوا الضرر بالشهود أو الكتبة فهو فسق وانحراف وخروج عن أمر الله وطاعته لاحقٌ بكم وملازمٌ لكم.

١٧ ـ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ خذوا تقوى الله واحذروا معاصيه ولا تخالفوا أوامره وما أرشدكم إليه.

١٨ ـ ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ يفهمكم الله هذه الأحكام المذكورة التي فيها صلاح جمعكم ووحدة شأنكم وعدم خلافكم.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم سبحانه كل شيء ومنه علمه بما يصلحكم ويرشدكم إلى الخير والهدى وما فيه منافعكم وفوائدكم، ولذا يشرّعُ لكم هذه الأحكام الإرشادية ويوصيكم بها ويدعوكم إلى العمل بها. . .

قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿سَفَرٍ﴾: السفر: هو الخروج عن الوطن مرتحلاً عنه، وشرعاً هو أن يقطع المسافر مسافة معينة فيصدق عليه أنه مسافر.

﴿فَرِهَٰنٌ﴾: جمع رهن، كثمار جمع ثمر، والرهن: لغة الثبات والدوام ومنه نعمة راهنة، وشرعاً وثيقة للمدين يستوفي منه دينه.

﴿مَّقْبُوضَةٌ﴾: من القبض: وهو تناول الشيء بجميع الكف ويستعار القبض لتحصيل الشيء.

﴿أَمِنَ﴾: اطمأن.

﴿فَلْيُؤَدِّ﴾: من أدى: إذا أوصل، يقال: أدى إليه الشيء الفلاني: إذا أوصله إليه.

﴿أَمَانَتَهُ﴾: الأمانة جمعها أمانات: وهي الوديعة.

﴿وَلَا تَكْتُمُوا﴾: لا تخفوا وتستروا.

﴿ٱلشَّهَٰدَةَۚ﴾: مصدر شهد: وهي الخبر القاطع الذي يؤديه الشاهد.

﴿ءَاثِمٌ﴾: من الإثم: وهو المبطىء عن الخير من الذنوب، والآثم: المتحمل للإثم.

التفسير

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌۖ﴾ ذكر سبحانه سابقاً أنه ينبغي الإشهاد والكتابة في الدَّين إن توفر ذلك حفظاً للأموال وصيانة للحقوق.

وذكر هنا أنه إذا كنتم على سفر أي مسافرين وغالباً ما لا يتوفر الشهود، كما أنه لا يتوفر الكتّاب، ففي مثل ذلك لكي تبقى المعاملات جارية والديون قائمة فقد شرّع الإسلام الرّهن ومفاده.. أن يأخذ صاحب المال مقابله شيئاً من الأموال يحتفظ به كوثيقة يضمن بها حقه في حال تعذر الوفاء من الطرف الآخر فيقوم عندئذٍ ببيعها واستيفاء حقه وبهذا تتحرك العجلة الاقتصادية وتكمل دورتها بدون توقف...

فهذه الرهان المقبوضة هي التي تقضي حاجة الطرف الآخر وتحفظ حق هذا الطرف...

وكما يجري الرّهْن في السفر يجري في غيره حتى في الحضر وقد مارسه النبي ﷺ والمسلمون وهو قائم إلى يومنا هذا، فليس التقييد في السفر إلا لجهة أن الغالب فقدان الكتّاب والشهود وإلا فحكمه يجري في جميع الأوقات والأمكنة.

ويستفاد من قوله تعالى: ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌۖ﴾ إنه يشترط قبض الرّهْن سواء كان القابض هو الدائن أو وكيله أو وليه...

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ﴾.

هذه صورة الثقة بين المتعاملين الراهن والمرتهن، فإذا اطمأن بعضكم لبعض

ووثق بأمانته ودينه فلم يأخذ منه رهناً فعلى المرتهن أن يؤدي هذه الأمانة ويكون في موضع ظن من أعطاه ثقة به ويراعي تقوى الله فلا يعصيه أو ينكر الأمانة ويجحدها . . .

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ نهي عن كتمان الشهادة بعد تحملها فلا يجوز إذا دعي مَنْ تحمّل الشهادة إلى الحضور إلا أن يحضر خصوصاً إذا انحصر تحصيل الحق بشهادته . .

﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ هذا تأكيد لحرمة كتمان الشهادة، وإن الإثم يطال هذا القلب الذي منه تصدر الأفكار والآراء والتوجهات والذي هو مصدر الخطر وظلم الناس، وإذا أصيب القلب بمرض الإثم والمعصية دبّ الخراب والدمار في كل الإنسان وفسد فساداً مريعاً.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ كل حركة يتحركها هذا الإنسان يعلمها الله ويجازي أصحابها بها، فإن كانت عمل خير أثابه عليها بما أعد لمثلها وإن كانت عمل شر عاقبه عليها بما جعله لمثلها، وإذا كان الله يعلم ما يفعله هذا الإنسان فعليه أن يجيد عمله ويجعله صالحاً حتى يرضى الله عنه ويثيبه . . .

قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)﴾.

اللغة

﴿تُبْدُوا﴾: تظهروا وتكشفوا.

﴿تُخْفُوهُ﴾: تستروه ولا تظهروه.

﴿يُحَاسِبْكُم﴾: يجازيكم، وأصله ما يحاسب عليه فيجازى بحسبه.

﴿يَغْفِرُ﴾: من غفر، والغفر: إلباس ما يصونه من الدنس، والغفران والمغفرة من الله: هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب.

﴿يُعَذِّبُ﴾: العذاب: هو الإيجاع الشديد وأصل التعذيب هو الضرب بعذبة الصوم.

التفسير

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الله هو الخالق وهو المالك والمتصرف، له القدرة المطلقة في ملكه لا اعتراض في حكمه ولا معارض له في ملكه، هو

المالك لهذا الكون وما فيه ملكاً حقيقياً وهو مطلق التصرف فيه إيجاداً وإعداماً وبقاءً واستمراراً.

وهذا البيان مقدمة تمهيدية لما سيذكره في الآية التالية لهذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾.

تعددت أقوال المفسرين في هذه الآية حتى بلغت سبعة أقوال أقربها إلى الفهم عرفاً وأوقعها في النفس أثراً.

إن هناك أموراً عقيدية محلّها القلب، وهناك أموراً تظهر عملياً في حركة هذا الإنسان.

فالأولى: كالإيمان بالله وتوحيده وعدله والإيمان برسله وكتبه.

والثانية كالأفعال الواجبة من صيام وصلاة وحج وزكاة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، والله سبحانه سيحاسب الإنسان على ما في نفسه مما هو مطلوب منه وسيحاسبه على ما ظهر منه فعلاً وحركة...

وهناك معنى آخر يمكن أن يكون قريباً ومقبولاً، هو أن الله يعلم نوايا الإنسان وخفايا نفسه كما يعلم ما ظهر منها وانكشف وهو يعلم الذي كان لوجهه ويعلم ما كان لغيره.

فيغفر لمن يشاء ممن استكمل شروط الغفران من التوبة والإنابة والرجوع إلى الله ويعذّب من يشاء ممن أصرّ على المعصية وتمرد على أمر الله...

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ءَامَنَ﴾: صدّق.

﴿أُنزِلَ﴾: النزول في الأصل: انحطاط من علو، وإنزال القرآن: تنزيله منجماً شيئاً بعد شيء.

﴿لَا نُفَرِّقُ﴾: فرّق: بمعنى فصل، وفرّق الشيء: إذا وزّعه وبدّده، ويستعمل التفريق في تشتيت الشمل والكلمة.

﴿أَطَعْنَا﴾: من الطاعة: وهو الانقياد، وأكثر ما تقال في الائتمار لما أُمِر والارتسام فيما رُسم..

﴿غُفْرَانَكَ﴾: الغفران: ستر الذنب ومحوه.

﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: المآل والمرجع.

التفسير

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ شهادة من الله واعتداد بعظمة إيمان النبي ﷺ وإفراده عن المؤمنين تشريفاً لمقامه وتعظيماً له وإذا عطفنا ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ على الرسول فهو، وأما إذا تم الوقف على قوله: ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾ فيكون ما بعده هو قول المؤمنين خاصة...

وعلى كل حال فإيمان الرسول بالمشاهدات التي رآها عن عظمة الله وجلاله وعظمة الوحي وما جاء به عن الله سبحانه، وأما إيمان المؤمنين فبالاستدلال والبراهين القاطعة التي تثبت صحة كل ما جاء عن الله وجوداً وصفات وعقيدة وأحكاماً...

﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ كل فرد من المؤمنين اعتقد بالله وصدّق به وعرفه وجوداً وصفات وقدرة وكل جلال لائق بذاته، وباعتبار أن الإيمان مطلوب من كل فرد كان قوله تعالى: ﴿كُلٌّ﴾ والإيمان بالملائكة وجوداً وصفات وأنهم درجات مختلفة، والإيمان بكتب الله المنزلة على أنبيائه كتوراة موسى وإنجيل عيسى وقرآن محمد... وكذلك الإيمان برسل الله جميعاً لا نفرّق بين أحد من رسله ومن هنا تكتمل الصورة في ذهن المسلم وتنسجم في وحدة تصورية وفكرية ينتج عنها الأعمال الطيبة الخيرة.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ هذه مقولة أهل الإيمان وعقيدة أهل التوحيد في الإسلام، إنهم ينظرون إلى وحدة الرسل منذ أول رسول وإلى خاتم الرسل محمدﷺ، تعددت الأدوار ولكن الهدف واحد، اختلفت الأزمان والمصدر واحد... كلهم سفراء الله إلى خلقه، حملوا رسالته وجاءوا بما ينفع الناس ويخدمهم ويحوّلهم إلى جسد واحد يؤمن بالله ويسعى في سبيل رضاه...

ومن هنا كانت نظرة المسلم إلى الأنبياء نظرة الإجلال والإكبار ونظرة التعظيم والتبجيل.. إنها نظرة ترتقي بالمسلم ليكون رائد الحضارة وأمينها وبيده أزمة

حلّها وعقدها وهو الحصن المنيع في وجه كل التجار وأصحاب المنافع والشعارات المزيّفة. . .

إن المسلم من خلال عقيدته بالأنبياء ووحدتهم جميعاً يرتقي بالإنسانية إلى أن تأخذ مكانتها السامية ودورها في هذه الحياة وهو من هذا المنطلق يوحّد العالم ولا يظلم في حكمه أحداً. . .

إن موسى نبي عظيم وعيسى نبي عظيم ومحمد أعظم جميع الرسل. . نؤمن بهم جميعاً ونستشعر العظمة من خلال ما تركوه من عقائد وتعاليم وهذا يدعونا إلى الاقتداء بهم والسير خلفهم والارتواء من معينهم. . . إننا لسنا كاليهود ولا كالنصارى الذين فرّقوا بين رسل الله فآمنوا ببعض وكفروا ببعض. . .

﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ سمعنا كلامك يا رب وأجبنا دعاءك وأطعنا أمرك والتزمنا بما أردت.

﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ نسألك غفرانك. . نسألك أن تغفر لنا يا ربنا ذنوبنا ومعاصينا وما كسبته أيدينا.

﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ إقرار بفقر الإنسان وحاجته وضعفه. . ربنا إليك المرجع بعد الموت فنقف بين يديك للحساب فارأف بنا وارحم ضعفنا يا أرحم الراحمين.

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)﴾.

اللغة

﴿لَا يُكَلِّفُ﴾: من الكلف: وهو الإيلاع بالشيء، وتكلُّف الشيء: ما يفعله الإنسان بإظهار كلف مع مشقة تناله في تعاطيه.

﴿نَفْسًا﴾: النفس: تطلق على ذات الإنسان، وقوله تعالى: لا يكلف الله نفساً: أي شخصاً...

﴿وُسْعَهَا﴾: الوسع: الطاقة والقدرة.

﴿كَسَبَتْ﴾: الكسب: ما يتحراه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع وتحصيل حظ، وقيل: أن الكسب خص بالصالح من العمل والاكتساب بالسيء.

﴿لَا تُؤَاخِذْنَا﴾: لا تعاقبنا بذنوبنا.

﴿نَّسِينَا﴾: من النسيان: وهو ترك الإنسان ضبط ما استودع وهو ضد الحفظ.

﴿أَخْطَأْنَا﴾: العدول عن الجهة: أي يريد ما يحسن فعله ولكنه يقع منه خلاف ما يريد فهذا أصاب في الإرادة وأخطأ في الفعل وهو ضد العمد.

﴿لَا تُحَمِّلْ﴾: من الحمل: وهو رفع الشيء ووضعه على الظهر أو باليد، وحمل كل شيء بحسبه، فحمل المرأة جنينها: أي تربيته في رحمها، وحمل الأوزار: اكتسابها، وهكذا..

﴿إِصْرًا﴾: الإصر: الثقل، ويطلق على الذنب، العهد.

﴿طَاقَةَ﴾: القدرة على الشيء: من أطاق الشيء.

﴿وَاعْفُ﴾: العفو: هو: الصفح عن الذنب.

﴿مَوْلَىٰنَا﴾: المولى: هو النصير والمعين والمحب والأولى بالشيء.

﴿اغْفِرْ لَنَا﴾: الغفران: ستر الذنب ومحوه.

التفسير

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ هذه حقيقة إيمانية لا يمكن التعدي عنها سواء كانت حكماً ابتدائياً من الله أم إمضاءً منه لكلام عباده الصادقين..

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قاعدة وحجة اعتمدها كل إنسان تريد أن تلزمه بأمر يفوق طاقته ويقدر على القيام به.

إنها قاعدة منطقية عقلانية عرفية تنسجم مع الفطرة ولا تخرج عن المنطق والعدل والإنصاف.

من رحمة الله بعباده أنه سبحانه لا يكلّف عباده بما لا يقدرون على القيام به فلذا كانت أوامره كلها تحت قدرة الإنسان وطاقته وكذلك كل نواهيه تحت قدرة الإنسان وطاقته فلا يصح لهذا الإنسان الاعتذار عن عدم فعلٍ أو ترك آخر ولا يمكنه الخروج عن عهدتها إلا بأدائها والقيام بها وليس له حجة بأنها خارجة عن قدرته أو لا يطيق القيام بها.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ وإذا كانت كل التكاليف واقعة تحت قدرة الإنسان وطاقته فليتحمل مسؤوليته كاملة عن كل خلل يصدر منه..

لكل نفس يعود أجر وثواب كل عمل صالح طيب كما أن كل نفس تتحمل نتيجة كل عمل سيء ومعصية. . .

فكما يعود الأجر والثواب إليها يعود الوزر والعقاب عليها، ومتى عرف الإنسان أن نتيجة عمله ترجع إليه كان ذلك من دوافع المبادرة إلى إجادته وجعله عملاً صالحاً يؤجر ويثاب عليه. . .

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ وهذه مرتبة عالية تستشرفها نفس المؤمن فتأخذ بالدعاء إلى الله أن لا يعاقبها على نسيان أدّى إلى معصية أو خطأ أدّى إلى انحراف. . .

إنها النفس الطيبة التي تشعر أن ارتكاب ما لا يجوز وإن كان معفواً عنه في شرع الله وحكمه كما هو الأمر هنا ولكنها لا تطيق ممارسته أو القيام به وإن كان عن نسيان أو خطأ. فالمؤمن وإن كان لا يشرب الخمر عمداً فهو أيضاً لا يحبه ويؤاخذ نفسه ويشعر بالغبن لها إن مارست ذلك ولو عن خطأ أو نسيان. . إنها نفس لا تريد ممارسة الممنوع ولو كانت في هذه الحالة الاستثنائية المعفو عنها. . .

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾.

لا تزال ألسنة المؤمنين تنطلق بالدعاء قائلة: ربنا وخالقنا لا تحمّل علينا عبئاً ثقيلاً نتيجة للتكاليف إذا خالفناها وعصينا أمرك فيها.

لا تحمّلنا ما حمّلته على من تقدّمنا ممن عصوك، فكان تحميلهم عبئاً ثقيلاً كبيراً كما حدث لبني إسرائيل عندما عبدوا العجل فكانت توبتهم ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾(١) وتحريم بعض الأشياء عليهم عقوبة لهم لعصيانهم أمراً آخر. . . كما في قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾(٢) وهكذا. . .

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ ربنا لا تنزل بنا عقوباتك وآلامك التي

---

(١) البقرة/ ٥٤. (٢) النساء/ ١٦٠.

لا نقدر على تحملها أو الصبر عليها أو لا تحمّلنا من التكاليف الامتحانية والاختبارية ما لا نقدر على حمله...

﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ امح ذنوبنا واسقط ما لك من الحق علينا.

﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ اصفح عن ذنوبنا واسترها علينا فلا تفضحنا بها.

﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ إعطف علينا وأوصل إلينا عطاياك ونعمك، وهذا تدرُّج عظيم من الدعاء بإسقاط الذنب وعدم الملاحقة عليه إلى الرحمة وطلب ما عند الله من الخير والبركة.

﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ أنت ناصرنا والمتولي تدبير أمورنا فلا تتخلى عنّا في مهبّ الرياح العاصفة فنضل ونغوى أو نقع لقمة سائغة في يد الأعداء.

﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أعنّا على القوم الذين كفروا بك وعادوك وخالفوا أمرك حتى نقدر على نشر دينك وإحكام شرعك وتعاليمك.

الفهرس